

مواقف وعظات من حياة الصحابيات و الصالحات

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء

سعد يوسف أبو عزيز

المجموعة الثانية

الجزء الثالث

دار التوفيقية للتراث



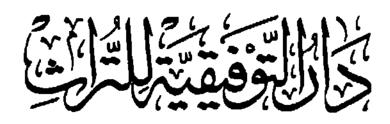
مواقف وعظات من حياة
الصحابيات و الصالحين

سلسلة تحكى سيرة الصحابة و التابعين و الصالحين ، و الصحابيات و الصالحات .
مواقف مؤثرة ، وعظات بالغة ، ودروس مستفادة
لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطاب

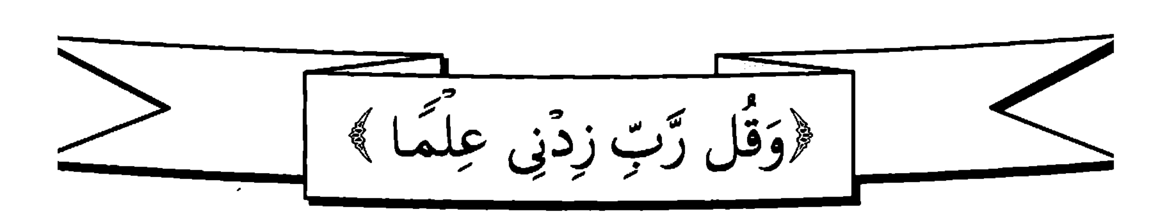
المجموعة الثانية

الجزء الثالث

تأليف
سعد يوسف محمود أبو عزيز



بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب: موسوعة الخطب المنبرية
المجموعة الثانية جـ ٣

اسم المؤلف : سعد يوسف أبو عزيز
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢١٢٧٣
النـــاشــر : دار التوفيقية للتراث

دار التوفيقية للتراث

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر – القاهرة
تليفون : ٢٥١٠٥٦٦٢

الخطبة الثامنة بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ شريكٍ الأنصارية

الثبات علَى الدِّين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنحنُ - أهلُ السُّنَّة والجَماعة - نثبت ما ثبت مِن كرامات الأولياء، ولا نُقيِّد مِن ناحية العقل قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ بنوع منها، ولكنَّا نقيِّدها عن طريق الشَّرع، بألَّا تكون مِمَّا أعلمنا الله أنَّها من خواص الألوهيَّة، حتَّى لا نَغلو فيها غُلوًّا ينتهي إلى الشِّرك، والعِياذُ بالله.

وليست الكرامة هي دليل الولاية، لالتباسِها عَلَى كثيرٍ من النَّاس بما ليس

بكرامة[١]، بل الواقع هي دليل الكرامة، وليس للكرامة تأثيرٌ عَلَى الأحكام الشَّرعيّة، ولكنها كما قال أبو إسحاق في «الموافقات»: «تُفيد لأصحابها يقينًا وعلمًا بالله تَعَالى، وقوّة فيما هم عليه»[٢].ا.هـ[٣].

فالكرامة إذًا ثابتة لأولياء الله الصَّالحين، يُجريها رَبَّنا - تبارك وتعالى - عَلَى يدِ بعض أولياءه، تثبيتًا لهم فيما هم عليه.

عباد الله ...

وقَدْ ذكر ابن سعد في «الطبقات»[٤]، والحاكم في «المستدرك»[٥]، وابن عبد البر في «الاستيعاب»[٦]، وابن الأثير في «أسد الغابة»[٧]، والذَّهبيّ في «سير أعلام النبلاء»[٨]، في ترجمتهم للصحابيّة الجليلة أُم شَرِيكٍ غُزَيَّة بنت جابر الأنصاريّة النَّجاريّة رَضِيَ الله عَنْهَا:

أنَّها أسْلَمت وهي بِمَكَّة، ثُمَّ جَعَلت تَدخُلُ عَلَى نِسَاءِ قُريش سِرًّا فَتَدعُوهُنَّ وتُرَغِّبُهُنَّ في الإسلام حَتَّى ظَهَرَ أمرُهَا لأهل مَكَّة، فَأخذُوها وقالوا: لولا قَومُكِ لفَعَلنا بك وفَعَلنَا ولكنَّا سَنرُدُّكِ إليهم، قَالت: فَحَملُوني عَلَى بَعيرٍ لَيسِ تَحتي شَيءٌ، ثُمَّ تَرَكُوني ثلاثًا لا يُطْعِمُونني ولا يَسْقُوني، وإذا نَزَلُوا مَنْزِلًا أَوْثَقُوني في الشَّمسِ وحَبَسُوا عنِّي الطَّعام والشَّراب.

فَبَينما هُمْ قَدْ نَزَلُوا وأوْثَقُوني في الشَّمسِ، إذا أنا بَأبرَدِ شَيءٍ عَلَى صَدْرِي فَتَنَاولتُهُ فإذا

---

(١) كثيرٌ من الجُهَّال لا يُفرِّقون بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، بل منهم مَن يعتقد أنَّ الوليّ يشترط فيه العَبَط، لا يتحفَّظ من لعابه ولا بَوله!! وقَدْ ذكرنا في غير هذا الموضع الفرق بين وليّ الله ووليّ الشيطان، فانظره.
(٢) «الموافقات» (٤/ ٨٥).
(٣) «تهذيب رسالة: الشرك ومظاهره» لمبارك بن مُحَمَّد الميلي، تهذيب الشيخ سعد الحصين (٦٦).
(٤) (٨/ ١٥٤).
(٥) (٤/ ٣٤).
(٦) (٤/ ١٩٤٣).
(٧) (٧/ ٣٥١).
(٨) (٢/ ٢٥٥).

هُو دَلْوٌ مِن مَاءٍ فَشَرِبتُ مِنْهُ قَليلًا ثُمَّ نُزِعَ مِنِّي، ثُمَّ عَادَ، فَشَربتُ، ثُمَّ رُفِعَ، ثُمَّ عَادَ، ثُمَّ رُفِعَ مِرَارًا، ثُمَّ تُرِكتُ فَشَرِبتُ حَتَّى رُويتُ، ثُمَّ أَفْضَيْت سَائِرهُ على جَسَدِي وثِيَابِي. فلمَّا اسَتيقَظُوا إذا هُمْ بِأَثَرِ الماء.

فَقَالوا: أَتحَلَّلتِ فَأَخَذْتِ سِقَاءَنَا فَشَربتِ مِنْهُ؟ قُلتُ: لا والله، ولكِنَّه كَانَ مِنَ الأمرِ كَذَا وكَذَا، قالوا: لَئِن كُنْتِ صَادقَةً لَدِينُكِ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا. فلمَّا نَظَرُوا إلى أَسْقِيَتِهِم وَجَدُوها كَمَا تَرَكُوها فأَسْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ.

وحدث هذا لأُمّ أيمن مولاة رَسُول الله ﷺ وحاضنته رَضِيَ الله عَنْهَا أيضًا، فقد ذكر صاحب كتاب «أحاسن المحاسن» (١): أنَّ أُمّ أيمن رَضِيَ الله عَنْهَا خرجَت مُهَاجِرةً مَاشِيَةً صَائِمَةً، فَأَصَابَها عَطَشٌ شَدِيدٌ، فلمَّا غَابَت الشَّمْسُ قَالَت: إذَا أنا بِحَفيفِ شَيءٍ فَوقَ رَأسِي، فإذَا بِدَلوٍ مِنَ السَّماءِ، مُدَلًّى بِرِشَاءٍ أَبْيَض، فَتَناولتُهُ، فَشَربتُ حَتَّى رَوِيتُ، فلقد كُنْتُ بَعدَ ذَلِكَ فِي اليَومِ الحَارِّ أطُوفُ فِي الشَّمسِ كَي أَعْطَشَ فَمَا عَطِشْتُ بَعْدَهَا!!

عباد الله ...

وفي هاتين القصَّتين فوائد، نذكر منها فائدتين:

الأولى: إثبات الكرامة لأولياء الله الصَّالحين، وقَدْ تقدَّم الحديث عن الكرامات في غير هذا الموضع.

والفائدة الثانية: الثبات عَلَى الدِّين دليلٌ عَلَى الإيمان العَميق.

أيُّها المسلمون...

إن الفتن في هذا الزَّمان قَدْ كثرت، وأصبح المسلم غريبًا بين النَّاس، بل بين أهله، كما أخبر بذلك النَّبي ﷺ في قوله: «**بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**». رواه مسلم.

وفي رواية: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**» (٢).

---

(١) (٢٣٧).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط»، وغيره، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٣).

وفي لفظ: «**الذين يُصلِحُون مَا أفسَدهُ النَّاس مِن سُنَّتي**» (١).

وفي لفظ: «**الذين يُحيون سُنَّتي ويُعلِّمونها النَّاس**».

وفي لفظ: «**الذين يَفِرُّون بدينهم مِن الفتن**».

بل أصبح المتمسك بدينه الصَّابر عليه في هذا الزمان كالقابض عَلَى الجمر بين يديه، وقَدْ أخبر بذلك أيضًا رَسُول الله ﷺ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**» (٢).

والفتن تنقسم إلى نوعين:

الأول: فتنة الشَّهوات:

وهذه الفتنة عصفت بأناس كثيرين، فعبدوا الدُّنْيَا، وطافوا حول شهواتهم فلها يوالون، وعليها يعادون، وبها يرضون، ولها يغضبون، وقَدْ حذَّر النَّبيُّ ﷺ من فتنتها في أحاديث كثيرة، منها:

(١) عَنْ أَبِي بَرْزَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلاَّتِ الْهَوَى**» (٣).

(٢) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ**».

(٣) عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الأنصاري رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟**».

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٠).

(٢) **صحيح بشواهده**: رواه الترمذي وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٥٧).

(٣) **رواته ثقات**: رواه أحمد، والبزار والطبراني.

قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» (١).

والثاني: فتنة الشبهات:

وهذه الفتنة أشدُّ من سابقتها وأخبث، ومنها ينشأ الحقد والحسد، والتفرّق والتشرذم بين الفِرق والجماعات، وتنطلق الألسن بالتفسيق والتبديع... إلخ، وهذه الفتن لها ارتباط وثيق بالقلب.

فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ(٢) فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا(٣) لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» (٤).

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلاَفِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ.

فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمُدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ» (٥).

---

(١) **متفق عليه.**

(٢) **النكتة:** العلامة.

(٣) **مجخيًا:** مقلوبًا.

(٤) **صحيح:** رواه مسلم.

(٥) **إسناده جيد:** أخرجه أحمد، وقال ابن كثير: إسناده جيد، ولم يخرجوه. «التفسير» (٣/ ٤٦٧).

وما سُمِّي القلب قلبًا إلَّا لكثرة تقلُّبه:

مـا سُـمِّي القلـبُ قلـبًا إلاَّ مِن تقلُّبه فَاحْـذَر عَلَى القلبِ من قلبٍ وَتَحويل

وعَن الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ قَالَ: لا آمن عَلَى أحدٍ بعد الذي سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ. قِيلَ: وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَسْرَعُ انْقِلابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلْيًا**»(١).

وعَن أبي موسى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ**»(٢).

لذا كان النَّبيُّ ﷺ يُكثر في دُعائه بتثبيت القلب.

فعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ مَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**»(٣).

ومن دُعاء القُرآن: ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ** ﴾ [آل عمران: ٨].

عباد الله ...

لاشك أن حاجة المسلم اليوم لوسائل الثبات أعظم من حاجة أخيه أيَّام السَّلف، لِفَساد الزَّمان، ونُدرة الإخوان، وقلّة الناصر.

ومِن رحمة الله تَعَالى بِعبادِه، أن بيَّن لنا في القُرآن وعلى لِسَان نبيِّه ﷺ وفي سيرته ﷺ وسائل كثيرة للثبات عَلَى دينه، **نذكر منها عشر وسائل**(٤):

---

(١) **صحيح**: انظر «الصحيحة» برقم (١٧٧٢)، والحديث رواه أحمد وغيره.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ٣١٥)، وغيره.

(٤) من كتاب «وسائل التثبيت عَلَى دين الله» لمحمد صالح المنجد، مع حذف وإضافة.

الأولى: الإقبال عَلَى القُرآن العظيم:

فالقرآن هو «حبل الله المتين» ونوره المبين، مَن تمسَّك به عصمه الله، ومن اتَّبعه هُدي إلى صِراطٍ مُستقيم.

نَصَّ الله تَعَالَى عَلَى أن الغاية التي من أجلها أُنزل هذا الكتاب منجّمًا مفصّلًا هي التثبيت:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ونصَّ القُرآن عَلَى أن العمل بالقُرآن من أعظم وسائل الثَّبات؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّـهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

الوسيلة الثانية: الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ:

فمَنْ أعانه الله فهو المُعان، ومَن خذله الله فهو المخذول، لذا كان من دُعاء الصَّالحين: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقال تَعَالَى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢].

الوسيلة الثالثة: الإيمان والعمل الصَّالح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْـقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّـهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّـهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. قَالَ قَتَادة: أما ﴿الـحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فيثبتهم بالخير والعمل الصَّالح، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ في القبر. وكذا رُوي عن غيرِ واحد من السَّلف[١].

فالبدايات تحكي النهايات، والله تَعَالَى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢٨).

ومن أقوال ابن عطاء السَّكندري - رَحِمَهُ الله -:

- من علامات النجاح في النهايات: الرجوع إلى الله في البدايات(١).
- مَن أشرقت بدايته، أشرقت نهايته(٢).

الوسيلة الرابعة: الدُّعاء والذِّكر والمحافظة عَلَى أداء الصلوات:

فالدُّعاء طوق النَّجاة، والذِّكر حصن من الشَّيطان، والصَّلاة صلة ورباط وثيق بين العبد وربّه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» (٣).

قَالَ العلَّامة الطَّيبيّ - رَحِمَهُ الله - في شرح الحديث: «يؤمِّنه في الدُّنْيَا أن يعمل عمل المنافق ويوفقه لعمل أهل الإخلاص، وفي الآخرة يؤمِّنه...، ويشهد له بأنه غير منافق يعني بأن المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى، وحَالَ هذا بخلافهم» ا.هـ.

اللَّهُمَّ علِّمنا ما جَهِلنا، وانفَعنَا بما علَّمتنا، واهدنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والوسيلة الخامسة: مصاحبة الصالحين في حياتهم، واقتفاء أثرهم بعد موتهم:

قال الله تَعَالى: ﴿ **الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧].

والصَّالحون عدة في البلاء، وزينة في الرخاء، إذا ذكرت الله أعانوك، وإذا نسيته ذكّروك.

---

(١) «الحكم العطائية» (ص١١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حسن.

لذا أمر الله نبيَّه أن يصبَّر نفسه معهم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

واقتفاء أثرهم، ومطالعة سيرهم، وجهادهم، وثباتهم أعظم عونًا عَلَى الثبات، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

عباد الله ...

ويُضاف لما سبق: أن صاحب أهل الصَّلاح نال من بركتهم.

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لقول الله تَعَالى عن أهل الكهف: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف: ١٨].

قال ابن عطية: وحدَّثني أبي رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سمعتُ أبا الفضل الجوهرى في جامع مصر يقول على منبر وعْظِهِ سنة تسع وستين وأربعمائة: إنَّ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الخير نال من بركتهم، كَلَبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في مُحْكَم تَنزِيله.

قلت(١): إذ كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جَلَّ وَعَلا فما ظَنُّك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصَّالحين، بل في هذا تسليةٌ وأُنْسٌ للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبى ﷺ وآله، خَيرُ آل.

ثبت في «الصحيح» عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**». فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ.

ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّى أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَه. قَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».

وفي رواية: قَالَ أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدّ من قول النَّبيّ

(١) القائل: القُرطبيّ رَحِمَهُ الله.

ﷺ: «فأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[١]

قال أنسٍ: فأنا أحبّ الله ورسوله وأبا بكر وعُمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

قلت: وهذا الذى تمسَّك به أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشمل من المسلمين كُلّ ذى نفس، فكذلك تعلَّقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصّرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كُنَّا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قومًا فذكره الله معهم، فكيف بنا وعندنا عقد الايمان وكلمة الاسلام، وحُبّ النَّبيّ ﷺ، ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ا.هـ[٢].

عباد الله ...

وللحديث بقيّة إن شاء الله، فإلى اللِّقاء.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك الثَّبات في الأمر، والعزيمة عَلَى الرشد، ونسألك حُسن عبادتك، وشكر نعمتك.

آمين... آمين... آمين

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (١٢٠١٣/ ٤)، والترمذي (٢٣٨٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤).

الخطبة التاسعة بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: أُمّ شَرِيك الأنصاريّة

(ب) الثبات علَى الدِّين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن وسائل **الثَّبات عَلَى الدِّين**، سائلًا المولى جلَّت قدرته، أن يُثبتني وإيَّاكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

عباد الله ...

الوسيلة السادسة: اتِّباع الطريق الصَّحيح، وسلوك المنهج القويم:

والطَّريق الذي يجب عَلَى المسلم سلوكه هو طريق أهل السُّنَّة والجماعة، طريق

الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، أهل العقيدة الصافية والمنهج السليم، واتِّباع السُّنَّة والدليل، والتميز عن أعداء الله، ومفاصلة أهل الباطل.

قال تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ وَهِيَ الجَمَاعَةُ»(١).

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا الثبات فتأمَّل وسائل نفسك؛ لماذا ضلّ كثير مِن السَّابقين واللاحقين وتحيَّروا ولم تثبت أقدامهم عَلَى الصِّراط المستقيم ولا ماتوا عليه؟ أو وصلوا إليه بعدما انقضى جلُّ عُمرهم وأضاعوا أوقاتًا ثمينة من حياتهم؟ فترى أحدهم يتنقل في منازل البدع والضلال من الفلسفة إلى علم الكلام والاعتزال إلى التحريف والتأويل إلى التفويض والإرجاء.

وهكذا أهل البدع يتحيّرون ويضطربون، وانظر كيف حُرم أهل الكلام الثبات عند المات فقال السَّلف: «أكثر النَّاس شكًّا عند الموت أهلُ الكلام».

لكن فكِّر وتدبَّر هل رجع أحدٌ مِن أهل السُّنَّة والجماعة عن طريقه سَخطةً بعد إذ عرفه وفقهه وسلكه؟

قَدْ يتركه لأهواء وشهوات أو لشبهات عرضت لعقله الضعيف، لكن لا يتركه لأنه قَدْ رأى أصحّ منه أو تبيَّن له بطلانه، ومصداق هذا مسألة «هرقل» لأبي سفيان ابن حرب عن أتباع مُحَمَّد ﷺ، قَالَ هرقل لأبي سفيان: فهل يرتد أحدٌ منهم سَخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قَالَ أبو سفيان: لا.

ثم قَالَ هرقل: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب(٢).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢٠٤).

(٢) رواه البخاري.

الوسيلة السابعة: التربية الإيمانية:

التربية الإيمانية الواعية المتدرجة.

عن سُمرة بن جندب رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «تعلَّمنا الإيمان قبل القُرآن، ثم تعلمنا القُرآن فازددنا به إيمانًا».

هكذا كانت تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه، فأثمرت صلابة في الإيمان، ومتانة في الجهاد، وثباتًا في المواقف، ولنأخذ عَلَى ذَلِكَ مثلًا:

عن أبي رافع، قال: «وجَّه عُمر جيشًا إلى الرُّوم، فأَسَرُوا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب مُحَمَّد.

فقال: هل لك أن تتنصَّر وأعطيك نصف مُلكي؟

قال: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع مُلك العرب، ما رجعتُ عن دين مُحَمَّد طرفة عين.

قال: إذًا أقتلك.

قال: أنت وذاك.

فأمر به، فَصُلب، وقال للرُّماة: ارمْوه قَريبًا مِنْ بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله.

ودعا بِقِدرٍ، فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأَسِيرَين مِنْ المسلمين، فأمر بأحدهما، فَأُلقي فيها، وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى. ثم بكى.

فقيل للملك: إنه بكى. فظنَّ أَنَّهُ قد جَزَعَ، فقال: رُدُّوه. ما أبكاك؟

قال: قلتُ: هي نفسٌ واحدة تُلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أَنْفُس تُلقى في النار في الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تُقبل رأسي وأُخلِّي عنك؟

فقال له عبدالله: وعن جميع الأُسارى ؟

قال: نعم. فقبل رأسه.

وقدم بالأسارى على عُمر، فأخبره خبره.

فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يُقَبِّل رأس ابن حُذافة، وأنا أبدأ. فَقَبَّل رأسه»[١].

وعن مالك بن أنس: «أن أهل قيسارية أسروا ابن حُذافة، فأمر به ملُكهم، فَجُرِّب بأشياء صبر عليها. ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثًا لا يأكل، فاطَّلعوا عليه، فقالوا للملك: قد انثنى عنقه، فإن أخرجته وإلَّا مات.

فأخرجه، وقال: ما منعك أن تأكل وتشرب؟ قال: أما إن الضرورة كانت قد أحلتها لي، ولكن كرهتُ أن أشمتك بالاسلام.

قال: فَقَبِّل رأسي، وأخلي لك مائة أسير. قال: أما هذا، فنعم.

فقبل رأسه، فخلى له مائة، وخلَّى سبيله»[٢].

هذا موقف واحد من آلاف المواقف المشابهة التي تدلُّ عَلَى متانة الدِّيانة، وصدق المعدن، وصلابة العزيمة، التي أثمرتها التربية الصحيحة هَذِهِ هي النوعية التي دكّت معاقل الشِّرك ودمَّرت عروش الطُّغاة.

هَذِهِ هي الرجولة التي وصفها مُحَمَّد إقبالُ بقوله:

مَنْ ذَا الذي رفع السّيوف ليرفع اسْمك ... فَوْق هامات النّجوم منارا

كُنا جِبالاً في الجبال وَرُبَّما ... سِرْنا على مَوْج البحار بحارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يَفْتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صَحراؤها ... سَجَداتنا والأرْضُ تَقْذف نارا

كُنَّا نُقدِّم للسيوف صدورنا ... لم نَخْشَ يومًا غاشمًا جَبّارا

وكأنّ ظِلّ السّيف ظِلّ حديقة ... خضراء تنبت حَوْلها الأزهارا

لم نخش طاغوتًا يُحَارِبنا ولو ... نَصَب المنايا حولنا أسوارا

ندعو جهارًا لا إله سِوى الذي ... خَلَق الوجود وَقَدَّر الأقدارا

---

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» من طريق البيهقي، وكذا الحافظ في «الإصابة» من حديث ابن عَبَّاس، موصولًا عند ابن عساكر.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٥).

ورؤوسنا يا رب فوق أكفّنا نرجو ثوابك مَغْنمًا وجوارا
كُنَّا نرى الأصنام من ذَهَب فنهدمها ونهدم فَوْقها الكفّارا
لو كان غير المسلمين لحازها كَنزا وصاغ الحُلِيّ والدِّينارا

نعم، كانوا رجالًا والرجال قليل، فجزاهم الله عنَّا وعن الإسلام كُل خير.

فتشبّهوا إن لم تكونوا مِثلهم إن التَّشَبُّه بالرِّجال فلاح

الوسيلة الثامنة: الثقة بالطريق:

لاشك أنَّهُ كلما ازدادت الثقة بالطريق الذي يسلكه المسلم، كان ثباته عليه أكبر، واستشعار المسلم أنَّ الصراط الذي يسلكه ليس جديدًا ولا وليد قرنه وزمانه، إنَّما هو طريق عتيق قَدْ سار فيه مَن قبله الأنبياء والصِّديقون والعلماء والشهداء والصَّالحون، هذا الشعور يُبدِّد الوحشة، ويُزيل الكآبة، ويُطوي المسافة، ويُورث البهجة والسعادة والسرور.

الشعور بالاصطفاء:

قَالَ تَعَالى: ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [النمل: ٥٩].

وكما أنَّ الله تَعَالى اصطفى الأنبياء فللصالحين نصيبٌ من ذَلِكَ الاصطفاء وهو ما ورثوه من علوم الأنبياء، فالعلماء ورثة الأنبياء.

الوسيلة التاسعة: ممارسة الدَّعوة إلى الله تَعَالى:

فالنفس إن لم تتحرَّك تأسن[١]، وإن لم تنطلق تتعفَّن، ومِن أعظم مجالات انطلاق النَّفْس: الدَّعوة إلى الله، فهي وظيفة الرُّسل، ومخلصة النَّفْس من العذاب.

والدعوة إلى الله تَعَالى ببذل الوقت، وكدّ الفكر، وسعي الجسد، وانطلاق اللِّسان، بحيث تصبح الدَّعوة هَمَّ المُسلم ينام بها ويستيقظ بها ويتحرّك بها، يقطع الطريق عَلَى محاولات الشَّيطان بالإضلال والفتنة.

---

(١) **تأسن**: تتغيّر، ومِنْ أقوال الفقهاء: الماء يتغيّر بطول المكث.

زِد عَلَى ذَلِكَ ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتَّحدي تجاه العوائق والمعاندين، وأهل الباطل، وهو يسير في مشواره الدَّعويّ، فيرتقي إيمانه، وتقوَّى أركانه.

الوسيلة العاشرة: الثقة بنصر الله:

قال تَعَالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

وقال تَعَالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تَعَالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّـهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].

فأصحاب الدَّعوات يواجهون كثيرًا من العنت، والاضطهاد، والمكر، بل والمحاربة بالسلاح، ثم تكون العاقبة لهم، والنَّصر حليفهم، ولنا في يوسف عليه السلام وموسى عليه السلام ومحمد ﷺ الأُسوة الحَسنة.

قَالَ تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تَعَالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

فَعرض هَذِهِ الآيات مهمٌّ لأصحاب الدَّعوات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي إضافته زِيَادَة عَلَى ما تقدَّم:

التأمّل في نعيم الجنَّة وعذاب النار، وتذكُّر الموت:

فهذه وسائل مهمّة تُعين عَلَى الثَّبات على الدِّين.

والجنة بلاد الأفراح وسلوة الأحزان، ومحطّ رحال المؤمنين، والنفس مفطورة عَلَى عدم التضحية والعمل والثبات إلَّا بمقابل يُهوِّن عليها الصِّعاب، ويُذلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق.

فالذي يعلم الأجر تَهُون عليه مشقّة العمل، وكان النَّبيُّ ﷺ يستخدم ذِكر الجَنَّة في تثبيت أصحابه، ففي الحديث الصَّحيح: مَرَّ رَسُول الله ﷺ بياسر وعمَّار وأُمّ عمَّار وهُم يُؤذون في الله تَعَالى، فقال لهم: «صَبرًا آل ياسر، فإنَّ مَوعدكُم الجَنَّة» [١].

وكان بعض السَّلف إذا اشتدت به الفاقة وأجهده البلاء قال: «صبرًا عَلَى لأوائها[٢]، والموعد الله» [٣].

عباد الله ...

وأختم خُطبة اليَّوم بدعاء النَّجاة من الفتن:

ثَبَتَ عَن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ كان يَقُول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» [٤].

فاللَّهمَّ نَجِنَّا مِن الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ونسألك اللَّهُمَّ الثبات في الأمر، والعزيمة عَلَى الرشد، ونسألك حُسن عبادتك، وشُكر نعمتك.

آمين... آمين... آمين

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٣).

(٢) لأوائها: تعبها، يقصد الدنيا.

(٣) القائل: شميط بن عجلان، -رَحِمَهُ الله - .

(٤) رواه مسلم.

الخطبة العاشرة بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سليم بنت مِلحَان

(أ) علامات حُب الله ورسوله

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله تَعَالى- عن المحبَّة - محبَّةِ الله تَعَالى: «هِيَ المَنزِلَةُ التي فيها تَنَافَسَ المُتَنَافِسُونَ وإليها شَخَصَ العَامِلُونَ، وإلى عِلمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، وَعَليهَا تَفَانَى المُحِبُّونَ، وبِرَوْحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ العَابِدُونَ، فَهِي قُوتُ القُلُوبِ، وغِذَاءُ الأروَاحِ، وقُرَّةُ العُيُونِ، وَهِي الحَيَاةُ التي مَنْ حُرِمَهَا فَهُو مِنْ جُمْلَةِ الأمْوَاتِ، والنُّورُ الذي مَنْ فَقَدهُ فَهُو في بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، والشِّفَاءُ الذي مَن عَدِمَهُ حَلَّت بِقَلبِهَ جَميعُ

الأَسْقَامِ، واللَّذَّةُ التي مَنْ لَمْ يَظْفَر بِهَا فَعَيشُهُ كُلُّهُ هُمومٌ وَآلامٌ». ا.هـ[١].

ونلتقي اليَّوم إن شاء الله تَعَالى مَعَ صحابيّة جليلة، ملأ حُبُّ الله تَعَالى أقطارَ نفسها فظهر ذَلِكَ عَلَى أحوالها، كما سنرى بعد قليل - إن شاء الله- مَعَ أُم سُلَيم بنت مِلحَان رَضِيَ الله عَنْهَا.

وأُم سُلَيم هي أُم أنسٍ بن مالك خادم النَّبي ﷺ، شهدت حُنينًا وأُحُدًا مَعَ النَّبيّ ﷺ، وقَدْ تقدَّم شيء من قصَّتها في ترجمة الصَّحابي الجليل أبي طلحة الأنصاريّ رَضِيَ الله عَنْهُ.

عباد الله ...

وكان لزواجها من أبي طلحة قصّة عجيبة، تدلُّ عَلَى مكانتها وفضلها، كما تدلُّ عَلَى شدّة حُبَّها لإسلامها وزهدها في هَذِهِ الحياة الدُّنْيَا.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ قَبْلَ أن يُسلِمَ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ وَلاَ يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ فَإِنْ تُسْلِمْ فَذَاكَ مَهْرِى وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ.

فَأَسْلَمَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا .

وفي رواية: قَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ إِلَهَكَ الَّذِى تَعْبُدُ خَشَبَةٌ تَنْبُتُ مِنَ الأَرْضِ نَجَرَهَا حَبَشِىُّ بَنِى فُلاَنٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَت: أفلا تَسْتَحِيي أنْ تَعبُدَ خَشَبةً مِنْ نَباتِ الأرضِ نَجَرَهَا حَبشيُّ بَنِي فُلان؟ إنْ أَنْتَ أَسْلَمْتَ لَمْ أُرِدْ مِنْكَ مِنَ الصَّدَاقِ غَيْرَهُ، قَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ فِى أَمْرِى.

فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالَتْ : يَا أَنَسُ زَوِّجْ أَبَا طَلْحَةَ.

وفي رواية: قَالَ ثَابِتٌ فما سَمِعنا بِمهرٍ قَطُّ كانَ أكرَمَ مِنْ مَهْرِ أُمِّ سُلَيمٍ؛ الإِسْلَامِ[٢].

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في «النكاح» (٦/ ١١٤).

عباد الله ...

ونقف اليوم عند هذا الموقف، لنأخذ منه درسًا ينفعنا في ديننا ودنيانا.

هذا الدرس هو: «**علامات حُبّ الله ورسوله ﷺ**»، إن المؤمن لن يجد حلاوة الإيمان حَتَّى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مِمَّا سواهما.

فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**» (١).

وقال الله تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥].

وها هي أُمّ سُليم رَضِي الله عَنْهَا لم تطلب لنفسها مالًا مقابل زواجها بأبي طلحة، بل كل ما أرادته وطلبته أن يَسلم أبي طلحة، هذا هو المهر، وهو أكرم المهور كما قال ثابت البُناني -رَحِمَهُ الله- ، فالله ورسوله إذًا أحبُّ إلى أُمّ سُليم مِمَّا سِواهما.

عباد الله ...

لِلْمَحبَّة بِحَسب من نُحبّهم أنواع ثلاثة:

الأوّل: مَحبَّة اللهِ تعالى:

وهي أن تَهَبَ كُلَّكَ لِمَن أحببتَ، فلا يَبْقى لك مِنْك شيء. والمراد: أن تَهَب إرادَتكَ وَعَزْمَك وأفعالَك وَنَفْسَك وَمالَك وَوَقْتَك لِمن تُحِبّه، وتجعَلَها حَبْسًا في مَرْضَاته وَمَحَابِّه، فلا تَأْخُذْ لِنَفْسِك منها إلا ما أَعْطَاك، فتأْخُذَه مِنْه لَه (٢).

وَمَعْقدُ نِسْبَةِ العُبوديَّة لله تعالى هو المحبّة. فالعبودية مَعْقودةٌ بها، بحيث متى انْحلَّتِ المَحَبَّة انْحَلّت العُبوديَّةُ، والله أعلم

وهي رُوحُ الإيمان والأعمالِ، والمَقَامَاتِ والأحْوَالِ، التي مَتَى خَلَتْ مِنْهَا فَهِي كَالجَسدِ الذي لا رُوحَ فيه.

---

(١) رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (٥١٢).

تالله لَقَد ذَهَبَ أَهْلُها بِشَرَفِ الدُّنْيَا والآخرةِ؛ إذْ لَهُم مِن مَعِيَّة مَحبُوبِهِم أَوْفَرُ نَصِيبٍ.

وقَدْ قَضَى الله يَومَ قَدَّر مَقادِيرَ الخَلائِقِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكمَتِهِ البَالِغَةِ؛ أنَّ المَرْءَ مَعَ مَنْ أحبّ، فَيَالها مِنْ نِعْمَةٍ عَلَى المُحِبينَ سَابِغَةٍ !!.

تالله لِقَدْ سَبَقَ القَوْمُ السَّعَادةَ، وهُم عَلَى ظَهِيرِ الفُرُش نَائِمُونَ، وقَدْ تَقَدَّمُوا الرَّكْبَ بِمَراحِلَ، وَهُم في سَيْرِهِم وَاقِفُونَ.

مَــنْ لِــي بِمِــثْلِ سَــيْرِك المُــدلَّلِ تَمْـــشِي رُوَيْـــدًا وَتَجِـــئ في الأوَّل

أَجَابُوا مُنَادِيَ الشَّوقِ إذْ نَادَى بِهِم: «حيَّ عَلَى الفَلَاحِ». وبَذَلُوا نُفُوسَهُم في طَلَبِ الوُصُولِ إلى مَحْبُوبِهِم.

تالله لِقَدْ حَمِدُوا عِنْدَ الوُصُولِ سُرَاهُم[١]، وشَكَرُوا مَوْلاهم عَلَى مَا أَعْطَاهُم، وإنَّمَا يَحْمدُ القَومُ السُّرَى عِنْدَ الصَّباحِ.

إقَامَةُ البَيِّنَةِ: لَـمَّا كَثُرَ المدَّعُون للمَحبَّة طُولِبُوا بإقَامَةِ البَيِّنَةِ على صِحَّة الدَّعوى، فَلَو يُعطَى النَّاسُ بِدَعْواهُم؛ لادَّعَى الخَلِيُّ[٢] حُرْقَةَ الشَّجِيِّ[٣].

فَتَنوَّعَ المُدَّعُون في الشُّهُودِ، فَقِيلَ: لا تُقْبَلُ هَذِهِ الدَّعْوَى إلَّا بِبَيِّنَةٍ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

فَتَأَخَّر الخَلْقُ كُلُّهُم، وَثَبَتَ أَتْبَاعُ الحَبِيبِ في أفْعَالِهِ وأقْوَالِهِ وأخْلَاقِهِ، فَطُولِبُوا بِعَدَالةِ البَيِّنَةِ بِتَزْكِيَةٍ ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِم** ﴾ [المائدة: ٥٤]. فَتَأَخَّر أكثرُ المُحبِّين، وَقَامَ المُجَاهِدُونَ، فَقِيلَ لَهُم: إنَّ نُفُوسَ المُحِبِّينَ وَأمْوَالَهُم لَيْسَت لَهُم، فَهَلُمُّوا إلى بَيْعَةِ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَـهُم بِأَنَّ لَـهُمُ الـجَنَّةَ** ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) **سراهم:** مسيرهم إلى آخر الليل، أي في وقت السرى.
(٢) **الخَلِيُّ:** الذي لا زوجة له.
(٣) **والشَّجيّ:** الحزين.

فلمّا عَرَفُوا عَظَمَةَ المُشْتَرى وفَضْلَ الثَّمَنِ، وَجَلَالَةَ مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ، عَرَفُوا قَدْر السِّلعةِ وأنَّ لها شَأنًا، فَرَأوا مِنْ أعْظَمِ الغَبْنِ أنْ يَبِيعُوهَا لِغَيرِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، فَعَقَدُوا مَعَهُ بَيعَةَ الرِّضْوَانِ بِالتَّراضِي مِنْ غَيْر ثُبُوتِ خِيَارٍ، وَقَالُوا: «والله لا نُقِيلُكَ ولا نَسْتَقِيلُكَ».

فلمّا تَمَّ العَقْدُ وسَلَّمُوا المَبِيعَ، قِيلَ لَهُم: مُذْ صَارَتْ نُفُوسُكُم وَأمْوَالُكُم لَنَا؛ رَدَدْنَاهَا عَلَيْكُم أَوْفَر مَا كَانَت، وأضْعَافَهَا مَعَهَا ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وإذَا غُرِسَت شَجَرةُ المحبَّة في القَلْب، وَسُقِيَتْ بِمَاءِ الإخْلَاصِ وَمُتَابَعَةِ الحَبِيبِ؛ أَثْمَرت أنْوَاعَ الثِّمَار، وَآتت أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإذنِ رَبِّها، أَصْلُها ثَابتٌ فِي قَرَار القَلْب، وَفَرْعُها مُتّصِلٌ بِسْدرة المُنْتَهى. لا يزال سَعيُ المُحبِّ صَاعدًا إلى حَبِيبِهِ لا يَحْجُبُه دونه شيء ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالـعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر: ١٠].

وإنَّما يَتكَلَّمُ النَّاسُ في أسْبَابِهَا ومُوجِبَاتِهَا، وعَلَامَاتِهَا وشَوَاهِدِهَا، وثَمَرَاتِهَا، وأحْكَامِهَا، فَحُدُودُهُم ورُسُومُهُم دَارَت عَلَى هَذِهِ السِّتَّةِ، وتَنَوَّعَت بِهِمُ العِبَارَاتُ، وكَثُرتِ الإشَارَاتُ بِحَسَبِ إدرَاكِ الشَّخصِ ومَقَامِهِ وحَالِهِ، ومِلْكِهِ للعِبَارَةِ.

عباد الله ...

وقَدْ يسأل سائل: وماهي الأسبابُ الجالبةُ لمحبَّةِ الله تَعَالى والمُوجبةِ لها؟

ويُجيب الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - عن هذا السُّؤال فيقول: وهي عشرة أسباب:

أحدها: قِرَاءةُ القُرآنِ بِالتَّدبُّرِ، وَالتَّفَهُّم لِمَعَانيهِ وَمَا أُريدَ بِهِ.

الثَّاني: التَّقَرُّبُ إلى الله تَعَالى بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الفَرَائِضِ. فإنَّهَا تُوَصِّلُهُ إلى دَرجةِ المحبُوبِيَّةَ بعدَ المَحَبَّةِ(١).

الثَّالِثُ: دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ: بِاللِّسانِ وَالقَلْبِ، وَالعَمَلِ وَالحَالِ. فَنَصِيبُهُ مِنَ

---

(١) وفي الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبّه».

المحَبَّة عَلَى قَدْر نَصيبِهِ مِنْ هَذَا الذِّكْرِ.

الرَّابعُ: إيثارُ مَحَابِّه عَلَى مَحَابِّك عِنْدَ غَلبَاتِ الهَوَى.

الخَامِسُ: مُطَالَعَةُ القَلْبِ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمُشَاهَدَتِهَا وَمَعرِفَتِهَا، وتَقَلُّبُهُ في رِيَاضِ هَذِهِ المَعْرِفَةِ وَمَبادِيهَا، فَمَنْ عَرَفَ الله بِأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ وَأفْعَالِهِ: أَحَبَّهُ لا مَحَالَةَ.

السَّادِسُ: مُشَاهَدَةُ برِّه وإحْسَانِه وآلائِه، ونعمِهِ الظَّاهرةِ والباطنة. فإنها داعيةٌ إلى محبَّتِهِ.

السَّابعُ؛ وهُوَ مِنْ أَعْجَبِهَا: انْكِسَارُ القَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يدي الله تعالى، ولَيْسَ في التَّعبِيرِ عَنْ هذا المَعْنَى غيرِ الأَسْمَاءِ وَالعِبَارَاتِ.

الثَّامنُ: الخَلْوَةُ بِهِ وَقْتَ النُّزُولِ الإلهيِّ، لِمُنَاجَاتِهِ، وتِلاوَةِ كَلَامِهِ، والوُقُوفُ بِالقَلْبِ والتَّأَدُّبُ بِأَدَبِ العُبُوديَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ. ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بالاسْتِغْفَارِ والتَّوبَةِ.

التَّاسِعُ: مُجَالَسَةُ المُحِبِّين الصَّادِقِينَ، والتِقَاطُ أَطْيَبِ ثَمَراتِ كَلَامِهِم كَمَا تُنْتَقَى أَطَايبُ الثَّمَر. وَلا تَتَكَلَّم إِلَّا إذَا تَرَجَّحَت مَصْلَحةُ الكلام، وَعَلِمتَ أنَّ فيه مَزيدًا لِحَالِكَ، وَمَنْفَعَة لِغَيرِكَ.

العَاشِرُ: مُباعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بين القَلْبِ وَبَينَ الله ﷻ. والكَلَامُ في هَذِهِ المَنزلَةِ مُعَلَّقٌ بِطَرَفَينِ: طَرَفِ مَحَبَّةِ العَبدِ لِرَبِّهِ، وطَرَفِ مَحَبَّةِ الرَّبِّ لِعَبدِهِ، والذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ العَارِفُونَ: أَنَّهُ يُحِبُّهُم، وأَنَّهُم يُحِبُّونَهُ، عَلَى إِثْبَاتِ الطَّرَفَينِ، وأَنَّ مَحَبَّةَ العَبْدِ لِرَبِّهِ فَوقَ كُلِّ مَحَبَّةٍ تُقَدَّرُ، ولا نِسبَةَ لِسَائِرِ المَحَابِّ إليْهَا، وهِيَ حَقِيقَةُ «لَا إله إِلَّا الله» وكَذَلِكَ عِنْدَهُم مَحَبَّةُ الرَّبِّ لأولِيَائِهِ ورُسُلِهِ: صِفَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى رَحْمَتِهِ، وإحْسَانِهِ وعَطَائِهِ، فإنَّ ذَلِكَ أثَرُ المَحَبَّةِ ومُوجِبُهَا، فإنَّهُ لَـمَّا أَحَبَّهُم كَانَ نَصِيبُهُم مِنْ رَحْمَتِهِ وإحْسَانِهِ وبِرِّهِ أَتَمَّ نَصِيبٍ» اهـ.

عباد الله ...

تلك عشرة كاملة، نسأل الله تَعَالى، أن يَرزقنا حُبَّه، وحُبَّ مَن أحبَّه، وحُبَّ كُلِّ عَمل يُقرِّبنا مِنْ حُبِّه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ المحبَّة روح كُلِّ مقام ومنزلة وعمل، فلو بَطَلَت مسألة المحبَّة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطَّلت منازلُ السَّيرِ إلى الله تَعَالى.

قال تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّـهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَعَ عَلَامَاتٍ:

الأُولى والثَّانيَةُ: أَنَّهُم أذِلَّةٌ، أعِزَّةٌ، قِيلَ: مَعناهُ: أرِقَّاءَ رُحَمَاءَ مُشْفِقِينَ عَلَيْهِم، عَاطِفِينَ عَلَيْهِم، فَلَمَّا ضَمَّنَ «أذِلَّةٌ» هَذَا المَعْنَى عَدَّاهُ بأدَاةِ «عَلَى» قَالَ عَطاءٌ: للمُؤمِنين كَالوَلِدِ لِوَالِدِهِ، والعَبْدِ لِسَيِّدِهِ، وعَلَى الكَافِرينَ كَالأسَدِ عَلَى فَريسَتِهِ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العَلامةُ الثَّالِثَةُ: الجِهَادُ في سَبيلِ الله بِالنَّفس واليَدِ، واللِّسَانِ، والمَالِ، وذَلِكَ تَحقِيقُ دَعْوَى المَحَبَّة.

العَلامَةُ الرَّابِعةُ: أنَّهُم لا تَأخُذُهُم في الله لَومَةُ لائِم، وهَذَا عَلامَةُ صِحَّةِ المَحَبَّة، فَكُلُّ مُحِبٍّ يأخُذُهُ اللَّومُ عَنْ محبُوبِهِ فَلَيسَ بِمُحبٍّ عَلَى الحَقيقَةِ، والقُرآنُ والسُّنَّةُ مَملُوءَانِ بِذِكرِ مَن يُحِبُّهُ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى مِنْ عِبَادِهِ المُؤمِنينَ.

وذِكرِ مَا يُحِبُّهُ مِن أعْمَالِهم وأقْوالِهم وأخْلَاقِهم، كَقَولِهِ تَعَالى: ﴿وَاللَّـهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقوله: ﴿وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، فَلَو بَطَلَت مَسألَةُ المَحَبَّةِ لَبَطَلَت جَميعُ مَقَامَاتِ الإيمانِ والإحْسَانِ، ولَتَعَطَّلَت مَنَازِلُ السَّيرِ إلى الله، فإنَّهَا رُوحَ فيه، ونِسْبَتُهَا إلى الأعمَالِ كَنِسبَةِ الإخلاصِ إليْهَا، بَلْ هي حَقِيقةُ الإخْلَاصِ، بَلْ هي نَفْسُ الإسْلام، فإنَّهُ الاسْتِسْلَامُ بالذُّلِّ والحُبِّ والطَّاعةِ لله، فَمَنْ لا مَحَبَّةَ لَهُ لا إسْلامَ

لَهُ البَتَّةَ، بَلْ هي حَقِيقَةُ شَهَادَةِ أنْ لا إله إلَّا الله، فإنَّ «الإلَهَ» هُوَ الذي يَألَهُهُ العِبَادُ حُبًّا وذُلًّا، وخَوفًا، ورَجَاءً، وتَعْظِيمًا وطَاعةً لَهُ، بِمعنى «مَألُوهٌ» وهُوَ الذي تألَهُهُ القُلُوبُ، أي: تُحِبُّهُ وتَذِلُّه لَهُ[1].

عباد الله ...

هذا هو النَّوع الأوَّل مِن أنواع المَحَبَّة، أمَّا النَّوع الثَّاني والثَّالث، فسيأتي ذِكرهما في الخطبة التالية، إن شاء الله تَعَالى.



(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢) مختصرًا، وانظر «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٤١٦ - ٤٢٢)، و«نضرة النعيم» (٣٣٢٨).

الخطبة الحادية عشر بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: أم سُليم

(ب) علامات حُب الله ورسوله

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد قلنا: إن للمحبَّة بِحَسَب مَن نُحِبُّهم أنواعٌ ثلاثة، هي: محبَّة الله تَعَالى، ومحبة الرَّسُول ﷺ، ومحبَّة الخَلَق.

وتكلمنا في الخطبة الماضية عن محبَّة الله تَعَالى، واليوم إن شاء الله تَعَالى نتكلّم عن: محبة الرَّسُول ﷺ، ومحبَّة الخَلَق.

سائلًا المولى - تبارك وتعالى - التوفيق.

عباد الله ...

فإنَّ محبَّةَ رَسُولِ الله ﷺ هِيَ دَليلُ الإيمانِ الصَّادِقِ، مِصداقًا لِقَولِهِ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . وَلَيْسَ هَذَا الحُبُّ مُجَرَّدَ عَاطِفَةٍ جَوْفَاءَ، وإنَّما هُوَ حُبٌّ حَقيقيٌّ نَابعٌ مِنَ القَلْبِ وَمِنَ العَقْلِ مَعًا وَدَليلُ صِدْقِ تِلْكَ المَحبَّة هُو اتِّبَاعُ المُصطَفَى ﷺ في كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ، أَوْ نَهَى عَنْهُ، فَالمُحِبُّ مُطِيعٌ دَائمًا لِمَن يُحِبُّه، وَلِذَلِكَ قِيلَ:

لــو كــان حُــبُّكَ صَــادِقًا لأطَعْــتَهُ ... إنَّ المُحَــبَّ لِمَــنْ يُحِــبُّ مُطِــيعُ

واتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتُهُ هُما الدَّليلُ عَلَى مَحَبَّةِ الله تَعَالى، يَقُولُ أَبُو سُليمانَ الدَّارَانِّي: لمَّا ادَّعَتِ القُلُوبُ محبَّةَ الله، أَنْزَلَ الله لها مِحْنَةً (أي اخْتِبَارًا) هِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فقوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ ﴾ إشارةٌ إلى دَليلِ المحبَّة وَثَمَرتِها، فَدَلِيلُهَا: اتِّباعُ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَا لَمْ تَحصُلِ المُتَابَعَةُ، فَليسَت مَحبَّتُكُم لَهُ حَاصِلَةً ومَحَبَّتُهُ لكم مُنتَفِيةً[١].

عباد الله ...

ولمحبَّة رَسُول الله ﷺ علامات:

العلامة الأولى: تمنِّي رُؤيته:

عَنْ أبي هُريرة رَضِيَ الله عَنْهُ، أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[٢].

فتمنِّي رُؤيته ﷺ دليلٌ على صدق محبّته، لذا حرص عليها الصَّالحون، وتمنّاها المخلصون. وهذه بعضُ أحوالهم:

(١) عن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: « يا رسول

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٢).

الله، إنّك لأحبّ إليّ من نفسي، وإنّك لأحبّ إليّ من ولدي، وإني لأَكُون في البيت فأذْكُرك فما أَصْبر حتى آتي فَأَنْظُر إليك، وإذا ذكرتُ مَوْتي وَمَوْتك عرفتُ أنّك إذا دخلتَ الجنّة رُفِعْتَ مع النّبيين، وإني إذا دخلتُ الجنّة خَشِيتُ أن لا أراك».

فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩][(١)].

(٢) وقال بكّار بن محمد - رحمه الله - : «كان ابْنُ عَوْن[(٢)] طَيِّب الرِّيح، لَيِّنَ الكسوة، وكان يتمنَّى أن يرى النبي ﷺ في النّوم. فلم يَرَه إلاّ قبل مَوْته بيسير، فَسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا. وقال: فَنزل من درجته إلى المسجد، فَسَقَط فأُصِيبتْ رجْلُه، فلم يزلْ يُعالجها حتى مات رحمه الله»[(٣)].

العلامة الثانية: تمني رؤية شيء من آثاره:

قال أحدُ أصحاب «عُبيدة السَّلْماني»[(٤)] لعبيدة: إن عندنا من شَعْر رَسُول الله ﷺ شيئًا من قِبَلِ أَنَسِ بْنِ مالك، فقال: «لئِن يكون عندي منه شعرةٌ أحبُّ إليّ من كُلّ صفراء[(٥)] وبيضاء[(٦)] على ظهر الأرض!».

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - مُعَلِّقًا: «هذا القولُ من عبيدة هو معيارُ كمال الحبّ، وهو أن يُؤْثِرَ شعرةً نَبَوِيَّةً على كُلّ ذَهَبٍ وَفِضّةٍ بأيدي النّاس. ومثل هذا يقوله هذا الإمامُ بعد النبي ﷺ بخمسين سَنَة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وَجَدْنا بَعْضَ شَعْرَة بإسنادٍ ثابت، أو شِسْعَ نَعْلٍ كان له، أو قُلاَمَةَ ظُفْرٍ، أو شَقَفَةً من إناء شَرِبَ فيه.

(١) رواه الطبراني، وأبو نعيم، والضّياء المقدسي في «صفة الجنة»، وقال: لا أرى بإسناده بأسًا.
(٢) هو: عبد الله بن عون، من تابعي التابعين.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٦٨).
(٤) تابعيّ جليل.
(٥) المراد بالصّفراء - هنا - : الذّهب.
(٦) المراد بالبيضاء - هنا - : الفضة.

فَلَو بَذَلَ الغَني معظم أَمْوَالِه في تَحْصِيل شيءٍ من ذلك عنده، أكنْتَ تَعُدُّه مُبَذِّرًا أو سَفِيهًا؟ كَلاَّ. فَابْذُل مَالَك في زَوْرَةِ مَسْجِدِهِ الذي بَنَى فيه بِيَدِه، والسَّلام عليه عِند حُجْرَته في بلده، والتَذَّ بالنَّظَرِ إلى « أُحُدِهِ » وَأحبَّه، فقد كان نَبيك يُحِبّه، وَتَملأْ بالحُلُول في رَوْضَتِهِ وَمَقْعِدِه، فَلِن تكون مُؤْمِنًا حتى يكونَ هذا السَّيِّدُ أَحَبَّ إلَيْكَ من نَفْسك وَوَلَدِك وأموالِك والنّاس كُلِّهم.

وَقَبِّل حَجَرًا مُكَرّمًا نزل من الجنّة[1]، وَضَعْ فَمَكَ لاَثِمًا مكانًا قَبَّلَهُ سَيّدُ البَشَر بيقين، فَهنَّاكَ الله بِمَا أَعْطاك، فَمَا فوق ذَلَك مَفْخَر.

ولو ظَفَرنا بالمِحْجَنِ الذي أشار به الرسولُ ﷺ إلى الحَجَر ثم قبّل مِحْجَنه، لَحُقَّ لنا أن نزدَحِم على ذلك المِحْجَن بالتَّقْبيلِ والتَّبْجِيلِ.

ونحن نَدْرِي بالضّرورة أن تقبيل الحَجَر أرْفَعُ وأفْضَلُ مِنْ تَقْبيل مِحْجَنه ونعله.

وقد كان « ثابت البُنَاني » [2] إذا رأى أَنَسَ بْنَ مَالكِ أَخَذَ يَده فَقبِّلها، ويقول: يَدٌ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ الله ﷺ ! ، فنقول نحن إذْ فاتنا ذلك: حَجَرٌ مُعَظَّمٌ بمنزلة يَمين الله في الأرض مَسَّتْه شَفَتا نَبينا ﷺ لاثِمًا له. فإذا فَاتَك الحَجُّ وتلقَّيْتَ الوَفْدَ فالتَزِم الحاجّ وَقَبِّلْ فَمَه، وَقُلْ: فَمٌ مَسَّ بالتقبيل حَجَرًا قَبَّلَهُ خَلِيلي ﷺ » ا.هـ [3].

العلامة الثالثة: بَذْلُ النَّفْس والنَّفِيس دُونَه ﷺ :

والمواقف الدّالة على ذلك أكثر من أن تحصى؛ وقَدْ تقدَّم بعضُها في ترجمة الصَّحابة رضي الله عنهم.

العلامةُ الرَّابعة: السَّمْعُ له والطّاعة:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : « واتباع الرسول ﷺ وطاعتُهُ هُما الدليلُ على محبّة الله تعالى، يقول أبو سليمان الداراني: لـمّا ادّعت القلوب محبّة الله، أنزل الله لها

---

(١) قال ﷺ : « نزلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ من الجَنَّة، وهو أشَدّ بياضًا من اللَّبَن فَسَوَّدَتْهُ خَطَايا بني آدم! » صحيح: رواه الترمذي، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٧٥٦).

(٢) من التابعين.

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٢، ٤٣)، ولم أجد دليلًا عَلَى جواز تقبيل فم الحاج.

محنة (أي اختبارًا) هي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فقوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبَّة وثمرتِها، فدليلُها: اتِّباعُ الرّسول ﷺ، وثمرتُها: محبّةُ حاصلةٌ وَمحبّتُه لكم مُنْتَفِية» ا.هـ[١].

وعلى ما تقدَّم: فمن ادّعى محبّةَ رسولِ الله ﷺ وأبى طاعته، وخالف سُنّته، فهو كاذب في دعواه.

العلامة الخامسة: الدّفاع عَنْ سُنَّته:

وخصوصًا في هذا العصر «زمن الغربة» الذي قال عنه الإمامُ سهل بن عبد الله التستريّ - رحمه الله تعالى -: «عليكم بالاقتداء بالأثَر والسُّنة، فإني أخاف أنّه سيأتي عن قليل زمانٌ إذا ذَكر إنسانٌ النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله، ذَمُّوه، ونفروا عنه، وتبرّؤوا منه، وأذلّوه، وأَهَانوه!!»[٢].

هذا، وأهل الحديث - في هذا العصر - هم فرسان الحلبة، فهم أقدر الناس على كشف شبهات المضلّين، ورَدّ سهام الملحدين.

قال **الخطيبُ البغدادي**[٣] - رحمه الله تعالى -: «قد جعلهم الله - يعني أصحاب الحديث - أركان الشريعة، وهدم بهم كُلّ بدعة شنيعة، فهم أمُناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأُمّته، والمجتهدون في حفظ مِلَّتِهِ، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، فإن الكتاب عدّتهم، والسُّنّة حجّتهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء» ا.هـ.

العلامة السادسة: الاجتهاد في نَشْر سُنَنه، وإظهار طريقته:

وقد ورد في الحث على ذلك أحاديث، منها:

عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللهُ[٤] امْرَأً سَمِع

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢)..
(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٧).
(٣) «شرف أصحاب الحديث» (٨، ٩)
(٤) نَضّر: معناه الدعاء له بالنّضارة، أي: جَمَّله اللهُ وزَيَّنه.

مِنّا شيئًا فَبَلَّغَهُ كَما سَمِعَه فَرُبَّ مُبَلَّغ أَوْعى مِنْ سَامِع » (١).

عباد الله ...

والنَّاس في حُبّ النَّبيّ ﷺ وطاعته ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: صِنْفٌ جَفَى عن حُبِّه وأعْرض عنه، وعاداه:

وهؤلاء قوم: أطفأ الله بصائرهم، وأعمى أبصارهم، فقد جعلوه ﷺ حامل الشّر في العالم، والمسؤول عن التخلّف في المعمورة - عليهم لعنة الله - ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

أحدهم: كتب يصف النبي ﷺ بأنه رجل رجعي، بدوي، متخلّف، أساء إلى العرب!!

ونردّ عليه: أَرَسُولنا رَجْعيٌّ وَمُتَخلِّف؟! إذن، مَنِ الذي أخرج الناسَ من الظلمات إلى النور؟

مَنِ الذي قَوَّم الأفكار؟

ومَنِ الذي حَوَّل العربَ من رُعَاةٍ للغنم إلى قادة للأُمَم؟!.

أتطلبون من المختار مُعْجِزة يكفيه شَعْبٌ من الأمْوات أَحْيَاه

والثاني: يقول: إن الأئمة أرفع قَدْرًا، وأكثر تأثيرًا في العالم من الأنبياء والرّسل!!.

ونردّ عليه: من يقصد بالأئمة؟ أئمة الشعوذة، والرشوة، والتبعية، وأكل أموال الناس بالباطل؟! أهؤلاء أرفع شأنًا من الأنبياء والرسل؟!! ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

إنّها الخيانة المطلقة؛ لأنّ غَضَب الله إذا حَلّ بِعَبْدٍ أَنْسَاه إرادته وشعوره.

والثالث: رجلٌ « عابدٌ لشهوته » و « مغرم بالنّساء » جنّد قلمه ولسانه في محاربة الله ورسوله، والدعوة إلى الإباحية والفجور.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وانظر: « صحيح الترغيب » (٨٤).

لمّا هُزم أَحَدُ « الطُغاة » أمام أعداء الإسلام، كتب إليه يقول:

ملأنا لك الأقْداح يا مَن بحُبّه سكرنا كما الصّوفي بالله يسكر

فهذا الصِّنف من البشر، عادى محمّدًا ﷺ، واستهزأ بشريعته.

القسم الثاني: صنف غَلاَ في حُبّ النّبي ﷺ:

ورفعوه إلى مقام الألوهية!! وهم غلاة التصوّف، الذين انحرفوا عن المنهج، وأفرطوا في حُبّه ﷺ.

وقد حذّر النبي ﷺ من هذا الإفراط فقال: « **لا تطروني كما أطرت النّصارى عيسى ابن مريم، إنّما أنا عَبْد الله ورسوله فقولوا: عَبْد الله ورسوله** » [(١)].

وقال ﷺ - وهو في سَكَرات المَوتِ: « **اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَنًا يُعبد** » [(٢)].

ومن أمثلة المغالاة في حُبّ النبي ﷺ:

- قول « البرعي » - الصّوفي - حين أتى إلى قبر النبي ﷺ:

يا رسول الله يا مَنْ ذِكْره في نهار الحشر رَمْزًا ومقامًا
فأقِلْني مِنْ عَثْرتي يا سيّدي ومن اكتساب الذّنب خمسين عامًا

سبحان الله! من الذي يقيل العثرة إلاّ الله؟ ومن الذي يغفر الذنب سواه؟

- وقول البوصيري في « بُرْدَتِهِ »:

وكيف تدعو إلى الدُّنيا ضَرُوَرةُ مَنْ لَوْلاَه لَمْ تَخْرُجِ الدُّنيا من العَدَمِ!

فهذا من الإطراء المذموم، والغلوّ المرفوض.

ويقول:

يا سيّد الخَلْق مالي مَنْ أَلُوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٩).

(٢) صحيح: رواه مالك في « الموطأ » (٣٦٧).

إن لم تكـــن في قيامـــي آخـــذًا بيدي فَـــضْلاً وإلاّ فَقُـــلْ يـــا زَلَـــة القَـــدَم

جلّ الله وتعالى، عمّا يقولون علوًّا عظيمًا.

القسم الثالث: صِنْف اعتدلوا في حُبِّهم للنّبي ﷺ:

وهم: أهلُ السُّنّة والجماعة، حيث قالوا في شأن حبيبهم:

هو عبد الله ورسوله، بلّغ عن ربّه، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا - كما نصّ القرآن - .

أحبوه؛ لأن حبّه ﷺ: كحلٌ للعينين، وبلسم للأرواح، وتشريف للآذان، وتنوير للقلوب والمجالس.

فحبّه ﷺ والاقتداء به، والسّير على منهجه، هو: الطريق الصحيح للوصول إلى الله تعالى[١].

نسأل الله - تعالى - أن يوفّقنا لاتّباعه.

عباد الله ...

ولِحُبّ النَّبيّ ﷺ ثمرات، منها:

(١) نيلُ محَبّة الله تعالى ومغفرته:

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وليس هذا الحب مجرَّد عاطفة جوفاء، وإنَّما هو حبٌّ حقيقيٌّ نابع من القلب ومِن العقل معًا، ودليل صدق تلك المَحَبَّة هو اتِّباع المصطفى ﷺ في كلّ ما أمر به، أو نهى عنه، فالمحبُّ مطيعٌ دائمًا لمن يحبّه، ولِذَلِكَ قيل:

لـــو كـــان حُـــبُّكَ صَـــادِقًا لأطَعْـــتَهُ إنَّ الُمحَـــبَّ لِمَـــنْ يُحِـــبُّ مُطِـــيعُ

---

(١) «رحمة للعالمين» للدكتور/ عائض القرني (١٣٦ - ١٤١) بتصرف، وإضافة.

(٢) السُّكْنى مع رَسُولِ الله ﷺ في الجنة:

فعن أنس ؓ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «**وما أعددتَ لَهَا؟**». قال: حُبّ الله ورسوله. قال: «**فإنّك مع من أحببت**». قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدّ من قول النبي ﷺ : قال: «**فإنّك مع من أحببتَ**».

قال أنس: فأنا أُحبّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[١].

والمراد بقوله ﷺ : «**فإنّك مع من أحببتَ**». أي: في الجنة[٢].

فأيّ شرف بعد هذا؟

(٣) نيل حلاوة الإيمان:

فعن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه: وَجَدَ حَلاوةَ الإيمان: من كان اللهُ ورسولُهُ أَحبَّ إليه مِمّا سواهما، ومن أَحَبّ عَبْدًا لا يُحبّه إلاّ لله، ومنَ يْكَرهُ أن يعودَ في الكُفْر بعد إذ أَنْقَذَه اللهُ كما يكْرَهُ أن يُلْقى في النّار**»[٣].

قال **الإمام النووي** - رحمه الله - : «ومعنى حلاوة الإيمان: اسْتِلْذَاذ الطّاعات، وتحمّل المشاق في الدِّين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا» ا.هـ[٤].

(٤) نيلُ الهداية:

قال تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور: ٥٤].

(٥) الفوز العظيم:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ**﴾ [النور: ٥٢].

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٦٣٩) واللفظ له.

(٢) «عمدة القارئ» (٢٢/ ١٩٧).

(٣) رواه البخاري (٢١) واللفظ له، ومسلم (٤٣).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ١٣).

عباد الله ...

هذه بعض ثمرات محبّة النبي ﷺ فاحرص على تحصيلها، واجتهد في متابعته، والسَّيْر على هَدْيه في صورته، وسيرته، وسريرته.

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاك لِمَا يُحب ويَرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأمَّا محبَّة الخَلق، وهذا هو النَّوع الثَّالث من أنواع المَحَبَّة:

فَلِمحَبَّةِ الخَلقِ أنواعٌ عَديدةٌ أفْضَلُهَا مَحَبَّةُ المُؤمِنِ لأخِيهِ في الله تَعَالى أي حُبًّا خالِصًا لا مَنفَعَةَ مِنْ وَرَاءِهِ، وقَدْ أشارَ ابنُ حَزم إلى هذا النَّوعِ مِنَ المَحَبَّةِ - أي محبَّةِ الخَلْقَ - فَقَالَ: إنَّ المَحَبَّةَ ضُرُوبٌ فأفْضَلُهَا مَحَبَّةُ المُتَحَابِّينَ في الله عَزَّ وَجَلَّ، إمَّا لاجتِهَادٍ في العَملِ، وإمَا لاتِّفَاقٍ في أصلِ النِّحْلةِ والمَذهَبِ، وإمَّا لِفضْلِ عِلمٍ يُمنَحُهُ الإنْسَانُ، ومحبَّةُ القَرَابةِ، ومَحَبَّةُ الأُلفَةِ، ومَحَبَّةُ الاشتِراكِ في المَطَالِبِ، ومحبَّةُ التَّصَاحُبِ والمعرِفَةِ، ومَحبَّةُ البِرِّ يَضَعُهُ المرءُ عِندَ أرضِهِ، ومحبَّةُ الطَّمَعِ في جَاهِ المحبُوبِ، ومَحَبَّةُ المُتحابَّيْن بِسِرٍّ يَجتَمِعَانِ عَليهِ يَلزَمُهُمَا سَترُهُ، ومَحبَّةُ بُلُوغ اللَّذَّةِ، وقَضَاءِ الوَطَرِ، ومحبَّةُ العِشْقِ التي لا عِلَّةَ لها إلَّا اتِّصَالُ النُّفوسِ[١].

إنَّ مَحَبَّةَ الخَلقِ بَعضَهُم بَعضًا في الله تَعَالى إنَّما هي نَابِعَةٌ في الحَقيقةِ مِن مَحَبَّةِ العَبدِ لله تَعَالى، وجَالِبَةٌ لِمحبَّتِه سُبْحَانَهُ لِهَذَا العَبدِ، وإذا أحَبَّ الله عَبدًا جَعلهُ مِنَ المحبُوبينَ بَيْنَ خَلقِهِ، يَقُولُ العلَّامةُ ابنُ تَيميَّةَ: إنَّك إذا أحبَبتَ الشَّخص لله كانَ هُوَ المَحبُوبَ لِذَاتِهِ، فَكُلَّما تَصَوَّرتهُ في قَلبِكَ، تَصَوَّرتَ مَحبُوب الحَقِّ فأحْبَبتَهُ، فَازدادَ بِذَلِكَ حُبُّكَ لله.

كما إذا ذكرت النَّبيَّ ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصَّالحين، وتصّورتهم

---

(١) «طوق الحمامة» (٦٣).

في قلبك؛ فإنَّ ذَلِكَ يَجذبُ قلبك إلى محَبَّة الله المُنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله.

فالمحبوبُ لله يَجْذِبُ إلى محَبَّة الله، والمُحبُّ لله إذا أحبَّ شَخْصًا لله فإنَّ الله هُو محبوبُهُ، فهو يُحبُّ أن يَجذَبهُ إلى الله تَعَالى، وكُلٌّ مِنَ المُحِبِّ لله والمحبوب لله يُجذَبُ إلى الله» [(١)].

عباد الله ...

ويكفي أن نشير هنا إلى حديث واحد بيَّن فيه النَّبيُّ ﷺ ثمرة من ثمرات الحُبّ في الله تَعَالى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ**[(٢)] **اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ**[(٣)] **مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا**[(٤)]**؟ قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**» [(٥)].

عباد الله ...

وأخيرًا أعود فأدعو بما دَعَا بِهِ النَّبيُّ ﷺ ربَّه - تَبارك وتعالى -: «**اللَّهُمَّ إنَّا نسألك**[(٦)] **حُبَّك وحُبَّ مَن أحبَّك، وحُبَّ كُلِّ عمل يقرِّبنا مِن حُبّك**».

آمين... آمين... آمين

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٠٨)، وانظر «نضرة النعيم» (٣٣٢٩).
(٢) أرصد: أقعده يرقبه.
(٣) المدرجة: الطريق.
(٤) رَبُّها: أي تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذَلِكَ.
(٥) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٦) إنِّي أسألك.

الخطبة الثانية عشر بعد المائة:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سُليم بنتِ مِلحان

كيف يواجه المسلم البلاء؟

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُول أنسٍ بن مالك رَضِي الله عَنْهُ: مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْم، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لاَ تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لاَ. قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا».

قَالَ فَحَمَلَتْ، وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى سَفَرٍ وَهِىَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لاَ يَطْرُقُهَا طُرُوقًا، فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ فَاحْتُبِسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقال أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِى أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدِ احْتُبِسْتُ بِمَا تَرَى، قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِى كُنْتُ أَجِدُ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا.

قال: وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلَدَتْ غُلاَمًا.

قال أنسٌ: فَقَالَتْ لِى أُمِّى: يَا أَنَسُ لاَ يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ، فَلَمَّا رَآنِى قَالَ: «**لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ. فَوَضَعَ الْمِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِى حَجْرِهِ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلاَكَهَا فِى فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ ثُمَّ قَذَفَهَا فِى فِى الصَّبِىِّ فَجَعَلَ الصَّبِىُّ يَتَلَمَّظُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ**». فَمَسَحَ وَجْهَهُ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ[(١)].

وفي رواية قالت: فَقُلتُ: أَلا أَعْجَبَكَ مِنْ جِيرَانِنَا؟ قَالَ: وَمَا لَهُمْ؟ قُلْتُ: أُعِيرُوا عَارِيَةً فَلَمَّا طُلِبَتْ مِنْهُمْ جَزَعُوا. قَالَ: بِئْسَ مَا صَنَعُوا. فَقُلْتُ: هَذَا ابْنُكَ. قَالَ: لا جَرَمَ لا تَغْلِبِينِي عَلَى الصَّبْرِ اللَّيْلَةَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي لَيْلَتِهِمْ**»، قَالَ الرَّاوِي: فَلَقَدْ رَأَيْتُ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ تِسعَةً كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، يَعني مِن نَسلِ الوَلَدِ الذي رُزِقُوهُ تِلكَ اللَّيلَةَ.

عباد الله ...

ونقف عند هذا الموقف الإيمانيّ، لنخرج بسؤالٍ مهم جدًّا، وهو:

كيف يواجه المسلم البلاء[(٢)]؟

إذا ابْتُلِيَّ المسلم في بَدنهِ أو أهلهِ أو مَالِهِ، فإنَّ عليه أن يسير وفق المنهج الإسلامي الصَّحيح لمواجهة مثل هَذِهِ الحالة، **وتتلخَّص خُطوات هذا المنهج فيما يلي:**

---

(١) أخرجه البخاري (فتح - ٩/ ٥٠٩)، ومسلم (٢١٤٤)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٩٦).

(٢) «نضرة النعيم» (٣٥ - ٤٢) باختصار شديد.

الخطوة الأولى: عَلَى المسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنَّ هناك حياةً أخرى هي خيرٌ من هَذِهِ الحياة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٧]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]، ويعني اعتقاد هذا أن تلك المحنة مهما طالت فهي إلى زوال، لأنَّ الدُّنْيَا نفسها زائلة، وهي لا تعدو أن تكون دار امتحان وابتلاء، يقول الله تَعَالَى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّـهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ومن هذا المنظور للحياة يتكون لدى الشخص المبتلى حوافز للقري والسمو فوق المحنة، فيجاهد نفسه، ويقول عند المصيبة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقَدْ جعل الله هَذِهِ الجملة ذكر الذاكر بعد نزول المصائب، لأنَّ المصائب لا تعدو أن تكون سلبًا للنِّعم التي سبق أن أنعم الله بها عليه، أو حرمانًا من النِّعم التي أنعم الله بمثلها عَلَى عباده، والنِّعم لدى التحقيق هي ملك لله تَعَالَى، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنِّعم أيضًا مِلك لله تَعَالَى، ومصير العباد كُلِّهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلِّها أن تعود إلى مالكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويتذكَّر أيضًا أَنَّهُ هو نفسه مملوكٌ لله، وأنَّ جَميع الخلائق مملوكون له سبحانه وأنهم عباده، وأنهم جميعًا راجعون إليه، فَإِذَا رجع الملك إلى مالكه فعلامَ الحُزن؟ وعلام الأسى؟ ولِمَ الاعتراض؟ ولماذا التسخُّط؟ فحينما يتذكَّر المؤمن قوله تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠]، وتذكَّر هَذِهِ الحقائق يُعلن عبارة الإيمان التي تدلُّ عليها بقوله: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

هَذِهِ العقيدة الإيمانية رحمة من الله تملأ القلوب طمأنينة وتسليمًا، ورضَى عن الله عَزَّ وَجَلَّ فيما جرت بها مقاديره[1]. فما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وتتمثل الخطوة الثانية في الصبر عَلَى آثار الابتلاء، أو بالآحرى: الحالات الناجمة عنه من الملل والقلق والاضطراب والوساوس في الصبر الجميل[2] والاحتساب تأسيًا

---

(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) **الصبر الجميل**: هو الصبر الذي لا شكوى معه.

برسول الله ﷺ الذي امره ربه بالصبر عَلَى الأذى أُسوة بأولي العزم من الرُّسل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فهذاالصبر يجعله في معيّة الله تَعَالَى، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، كما يجعله من أهل محبته، فهو سُبْحَانَهُ القائل: ﴿ وَاللَّـهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وأن يتيقَّن أنَّ مع العُسر يُسرًا، وأنَّ مع الكَرْب فَرَجًا، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ هو الذي يكشف ضُره، قال تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّـهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَـهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٧]، وأنه ستشمله رحمة الله تَعَالَى فهو سُبْحَانَهُ: ﴿ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الـحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨]، ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّـهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وأن مِن تمام رحمته سُبْحَانَهُ أن يكفِّر عنه بهذه البلايا ما سبق من سيئاته، فقد جاء في الحديث الشريف: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(١).

وليعلم أن جزاء الصَّبر هو الفوز برضوان الله تَعَالَى والفوز بالجنة، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

الخطوة الثالثة: عَلَى المسلم إذا ابتلي بالضرَّاء أن يتأمَّل حياته الحالية والماضية، وينظر أيضًا في نواياه المستقبلية، وأن يعلم أن ما أصابه من حسنة فمن الله تَعَالَى، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، كما قال تَعَالَى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]. فإن وجد ذنوبًا – وما أكثرها – فليُبادر إلى مُحاسبة نفسه، وأن يلتمس عيوبه، لأن جهله بها من أكبر ذنوبه، والفاجر لا يُحاسب نفسه، أمَّا المؤمن فذو نفس لوامة، تلوم عَلَى الشر، لِمَ فعلته؟ وتلوم عَلَى الخير، لِمَ لا تستكثر منه؟

ويترتب عَلَى ذَلِكَ اللجوء الفوري إلى التوبة النَّصوح، والتَّطهُّر من الذنوب، والإكثار من الاستغفار، فالتوبة تجعل التائب من أهل مَحَبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والاستغفار له أثره العظيم في جلب الرزق

---

(١) صحيح: رواه البخاري.

ودفع البلاء، يقول تَعَالَى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢]. كما أن الاستغفار من مُوجبات رحمته تَعَالَى، سُبْحَانَهُ هو القائل: ﴿ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦].

الخطوة الرابعة: التزام الاستقامة والتقوى؛ أما الاستقامة فلأنها أقوى سبب للرقي الإيماني، وما انتشرت في قوم إلَّا صَلَحَ حالهم وزاد إقبالهم عَلَى الخير، والمستقيمون هم الذين وعدهم الله عَزَّ وَجَلَّ بإذهاب الحَزَنَ وإبعاد الخوف عنهم في الدنيا والآخرة، يقول الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْـجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

أمَّا التَّقوى فهي من مفاتيح السعادة لأنها تجعل المؤمن في معيَّة الله تَعَالَى وتجلب رحمته ورزقه، قال تَعَالَى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، كما أنها مفتاح للخروج من الأزمات ومجلبة للرزق، قال تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقبل ذَلِكَ وبعده؛ فالتوبة تجعل العبد من أهل محبَّة الله تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

الخطوة الخامسة: التوجّه بالدُّعاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والتضرع إليه والاستغاثة به أن يكشف ما به من سوء، وأن يرزقه العافية، وذلك كما حدث من نبي الله أيوب عليه السلام، ويُستحب أن يتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى، قال تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، كما يُستحب أيضًا أن يدعوه بصالح أعماله، كما حدث من الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرج عنهم.

وبعد الدعاء، تأتي الاستعانة بالله تَعَالَى والتوكل عليه، قال تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ، فالشدة يعقبها الفرج، وإنَّ

مع العُسر يُسرا، يقول الشاعر:

ولـرب نازلـة يـضيق بهـا الفتـى ذرعًـا وعـند الله مـنها المخـرج
ضـاقت فلمـا اسـتحكمت حلقاتهـا فـرجت، وكـنت أظـنها لا تفـرج

وبعد التوكل واعتقاد الفرج؛ فلابُدّ من الأخذ بالأسباب التي تساعده في الخروج من أزمة الابتلاء، يقول ابن القيِّم: فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وحدها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل متعلّق بربوبيّته وقضائه وقدره.

الخطوة السادسة: إذا لم يجد المبتلى ذنبًا في الحال - وهذا نادر - فليعلم أن هذا الابتلاء تمحيص له، وتدريب عَلَى تحمّل المشاق التي تؤدي في النهاية إلى ابتلاء من نوع آخر هو الابتلاء بالسرَّاء أَوْ التمكين في الأرض، وهذا معنى قول الشافعيّ -رَحِمَهُ الله - : «إن أحدًا لا يُمَكَّن حتى يُبتلى» وذلك هو حال أولي العزم من الرسل ومَن اتبعهم من صالحي المؤمنين، ومِمَّا يقرِّب هذه المسألة إلى الأذهان أننا نجد تقوية الجسم إنها تكون بممارسة الرياضات التي تستلزم مجهودًا شاقًّا، فكذلك تنمية القوة النفسية تستلزم التدريب عَلَى تحمّل المشاق والابتلاءات، وكذلك قطف ثمار الزرع لا يتم إلا بعد بذل مجهود الحرث والزرع والسقاية. ولذا كان عَلَى الإنسان أن يفوّض أمره إلى ربه، وألَّا يقنط وييأس من رحمة الله.

عباد الله ...

وللحديث بقية ستأتي بعد قليل، إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والخطوة السابعة: من الخطوات التي يواجه المسلمُ بها البلاء:

إذا تام المسلم واستغفر ربه، وأقلع عن معصيته، ودعا الله بصالح أعماله، وتوكل عَلَى الله، وأخذ بالأسباب ولم ينكشف ما به، فعليه أن يَعلم ويتيقّن أن ذَلِكَ لحكمة اقتضاها المولى عَزَّ وَجَلَّ لا يعرفها الآن، وكفاه في ذَلِكَ أن يعد في معيّة الله تَعَالى من أهل محبته، ومِن أظهر الأدلة عَلَى ذَلِكَ: قصّة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام بأمرٍ من ربه عَزَّ وَجَلَّ، كي يقي والديه من الطُغيان والكُفر، ولاشك أن الابتلاء بفقد الولد أخف كثيرًا من الابتلاء بالكفر والطغيان، قال ابن كثير في تفسير قوله تَعَالى: ﴿ **فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾ [الكهف: ٨٠]، أي: يحملهما حُبه عَلَى متابعته في الكفر، وقال قَتَادة: لو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يُحب[١].

ومن ثَمَّ وجب عليه الرضا حتى ينجو بنفسه من سخطِ الله تَعَالى، ويترتب عَلَى هذا الرضا أن يقذف الله في قلبه السكينة والطمأنينة، وربما كان ما تكرهه نفسه هو عين الكرامة في حقه وهو وسيلته المستقبلية للحصول عَلَى أعلى الدرجات، يقول الله تَعَالى: ﴿ **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومِن هنا تتجلى حِكم التوكل والاحتساب والاستخارة في أمور العبد، فإنَّ العبد قاصر عَلَى إدراك ما ينفعه في دينه ودنياه، ولذلك شُرِّعت الاستخارة وتفويض الأمر إلى الله. ا.هـ.

❁❁❁❁❁

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٤).

الخطبة الثالثة عشر بعد المائة:

[د] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سُلَيم بنت مِلحان

التبرك المشروع، والتبرك الممنوع

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْمٍ فَيَنَامُ عَلَى فِرَاشِهَا وَلَيْسَتْ فِيهِ، قَالَ: فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَامَ عَلَى فِرَاشِهَا فَأُتِيَتْ فَقِيلَ لَهَا: هَذَا النَّبِيُّ ﷺ نَامَ فِي بَيْتِكِ عَلَى فِرَاشِكِ.

قَالَ: فَجَاءَتْ وَقَدْ عَرِقَ وَاسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَى قِطْعَةِ أَدِيمٍ عَلَى الفِرَاشِ، فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذَلِكَ العَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا، فَفَزِعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا

تَصْنَعِينَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا، قَالَ: «أَصَبْتِ» (١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أيضًا قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ(٢) عِنْدَنَا، فَعَرِقَ وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ العَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟». قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ(٣).

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ الله- : قَوْله: (فَقَالَ عِنْدنَا فَعَرِقَ) أَيْ نَامَ لِلْقَيْلُولَةِ. قَوْله: (تَسْلُتُ العَرَق) أَيْ تَمْسَحُهُ وَتَتْبَعُهُ بِالْمَسْحِ.

قَوْله: (كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَدْخُلُ بَيْت أُمّ سُلَيْمٍ، فَيَنَامُ عَلَى فِرَاشهَا) كَانَتْ رَضِي الله عَنْهَا مَحْرَمًا لَهُ ﷺ، فَفِيهِ الدُّخُولُ عَلَى الْمَحَارِمِ، وَالنَّوْم عِنْدهنَّ، وَفِي بُيُوتهنَّ، وَجَوَاز النَّوْم عَلَى الأُدُم، وَهِيَ الأَنْطَاع وَالجُلُود.

قَوْله: (فَفَتَحَتْ عَتِيدَتهَا) هِيَ كَالصُّنْدُوقِ الصَّغِير، تَجْعَلُ الْمَرْأَة فِيهِ مَا يَعِزُّ مِنْ مَتَاعهَا.

قَوْله: (فَفَزِعَ النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: مَا تَصْنَعِينَ؟) مَعْنَى فَزِعَ: اِسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمه» ا.هـ(٤).

عباد الله ...

ونقف عند هذا الموقف لنخرج منه بدرس مهم، يتعلَّق بأمر الاعتقاد، وهو: جواز التَّبرك بآثار النَّبيّ ﷺ.

وهنا نُجيب عن سُؤالَينْ مُهمَّين، وهما: ما هو التَّبرُّك، وما هي أقسامه؟

والجواب:

التبرك: طلب البركة، والبركة: كثرة الخير وزيادته واستمراره.

والتبرك ينقسم من جهة حكمه إلى قسمين:

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣١).

(٢) **قال**: نام وقت القَيلولة.

(٣) رواه مسلم (٢٣٣١)، وأحمد (٣/ ١٣٦).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٤٨٠).

(أ) **تبرك مشروع**: وهو أن يفعل المسلم العبادات المشروعة طلبًا للثواب المترتب عليها، ومن ذَلِكَ أن يتبرك بقراءة القرآن والعمل بأحكامه، فالتبرك به هو ما يرجو المسلم من الأجور عَلَى قراءته له وعمله بأحكامه، ومنه التبرك بالمسجد الحرام بالصلاة فيه ليحصل عَلَى فضيلة مضاعفة الصلاة فيه، فهذا من بركة المسجد الحرام.

(ب) **تبرك ممنوع**: هو ينقسم من حيث حكمه إلى قسمين:

١- **تبرك شركي**: وهو أن يعتقد المتبرِّك أن المتبرّك به، وهو المخلوق، يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالًا، لأنَّ الله تَعَالَى وحده موجد البركة وواهبها، فقد ثبت في «صحيح البخاري» عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**البركة من الله**»(١)، فطلبها من غيره، أو اعتقاد أن غيره يهبها بذاته شرك أكبر.

٢- **تبرك بدعيّ**: وهو التبرك بما لم يرد دليلٌ شرعيّ يدلُّ عَلَى جواز التبرك به، معتقدًا أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل فيه بركة، أو التبرك بالشيء الذي ورد التبرك به في غير ما ورد في الشرع التبرك به فيه. وهذا بلا شك محرَّمٌ؛ لأنَّ فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتابٍ أو سُنة، ولأنه جعل ما ليس سبب سببًا، فهو من الشِّرك الأصغر، ولأنه يؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر، كما سيأتي بيانه.

وهذا القسم من التبرك وهو التبرك البدعي ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التبرك الممنوع بالأولياء والصالحين:

وردت أدلة كثيرة تدل عَلَى مشروعية التبرك بجسد وآثار النبي ﷺ، كشعره، وعرقه، وثيابه، وغير ذَلِكَ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩)، (٥٦٣٩).

(٢) ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه: أن هذا التبرك لا يعني ترك العمل، والاتّكال عليه، فعن عبد الرحمن بن أبي قرار رَضِي الله عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ توضأ يومًا، فجعل أصحابه يتمسّحون بوضوئه، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ما يَحمِلُكم عَلَى هذا؟» قالوا: حُبَّ الله ورسوله، فقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن يُحبَّ الله ورسوله، أَوْ يُحبُّه الله ورسولُه، فليَصْدُق حَدِيثَه إذا حَدَّث، وليؤدِّ أمانته إذا اؤْتُمِن، وليُحسِن جوارَ مَن جَاوَرَه». رواه الطبراني وغيره، وحسنه المنذريّ في «الترغيب» (٣/ ٢٦)، وقال الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٩٩٨): الحديث ثابت.

أما غير النبي ﷺ من الأولياء والصالحين فلم يرد دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يدل عَلَى مشروعيّة التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم، ولِذَلِكَ لم يرد عن أحد من أصحاب النبي ﷺ، ولا عن أحد من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحد من الصالحين، فلم يتبركوا بأفضل هَذِهِ الأمة بعد نبيِّها، وهو أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ الله عَنْهُ، ولا بغيره من العشرة المبشرين بالجنة، ولا بأحدٍ من أهل البيت ولا غيرهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، لحصرهم الشديد عَلَى فعل جميع أنواع البر والخير، فإجماعهم عَلَى ترك التبرك بجسد وآثار غيره ﷺ من الصالحين دليلٌ صريحٌ عَلَى عدم مشروعيته.

وعليه؛ فإنَّ مَن تبرك بذات أو آثار أحد من الصالحين غير النبي ﷺ قَدْ عصى الله تَعَالَى، وعصى نبيه مُحَمَّدًا ﷺ، وأعطى هَذِهِ الخاصية التي خصَّ بها ربنا جل وعلا نبيَّه ﷺ لغيره من البشر، وسواهم بالنبي ﷺ في ذَلِكَ، فسوى عموم الأولياء والصالحين بخير البشر وسيد ولد آدم ﷺ، وهذا فيه هضمٌ لحقه ﷺ، ودليلٌ عَلَى نقص محبته ﷺ في قلب هذا المتبرك[١].

ومن أنواع التبرك المحرَّم بالصالحين:

(أ) التمسَّح بهم[٢]، ولبس ثيابهمَ، أو الشرب بعد شربهم، طلبًا للبركة.

(ب) تقبيل قُبورهم[٣]، والتمسَّح بها، وأخذ ترابها طلبًا للبركة.

---

(١) قال علامة الهند حسن صديق خان في «الدين الخالص» (٢/ ٢٥٠): «ولا يجوز أن يُقاس أحد من الأمة عَلَى رسول الله ﷺ، ومن ذاك الذي يبلغ شأنه؟ قَدْ كان له ﷺ في حال حياته خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره.

(٢) وقَدْ ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة «الحكم الجديرة بالإذاعة» (ص٥٦): أن رجلًا جاء إلى الإمام أحمد، فمسح يديه عَلَى ثيابه، ومسح بهما وجهه، فغضب الإمام أحمد، وأنكر ذَلِكَ أشد الإنكار، وقال: عمَّن أخذتم هذا الأمر؟!

(٣) قال الإمام عز الدين بن جماعة الكنانيّ الشافعيّ في «هداية السالك» (ص١٣٩٠، ١٣٩١): «عدَّ بعض العلماء من البدع: الانحناء للقبر المقدس، عند التسليم، قال: يظن من لا علم له أنه من شعار التعظيم، وأقبح منه تقبيل الأرض للقبر، لم يفعله السلف الصالح، والخير كله في اتِّباعه - رحمهم الله تَعَالَى - ونفعنا بهم، ومَن خطر بباله أن تقبيل الأرض أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وأقوال السلف وعملهم، وليس عجبي ممن جهل =

وقَدْ حكى جمعٌ من أهل العلم إجماع العلماء عَلَى أن هذا كله منهيٌّ عنه(١).

وذكر أبو حامد الغزالي الشَّافعي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وغيره من علماء الشافعية والحنفية أن هَذِهِ الأفعال من عادات النَّصارى(٢)، وذكر بعض علماء الشافعية وبعض علماء الحنفية أن استلام القبور تبركًا كبيرة من كبائر الذنوب.

(جـ) عبادة الله عند قبورهم تبركًا بها: معتقدًا فضل التَّعبد لله تَعَالَى عندها، وأن ذَلِكَ سبب لقبول هَذِهِ العبادة، وسبب لاستجابة الدعاء.

النوع الثاني: التبرك بالأزمان والأماكن والأشياء التي لم يرد في الشرع ما يدلُّ عَلَى مشروعيّة التبرك بها:

ومن أمثلة هَذِهِ الأشياء:

١- الأماكن التي مرَّ بها النَّبي ﷺ، أو تعبَّد لله فيها اتفاقًا: من غير قصد لها لذاتها، وإنَّما لأنه ﷺ كان موجودًا في هَذِهِ الأماكن وقت تعبده لله تَعَالَى بهذه العبادة، ولم يرد دليلٌ شرعيٌّ يدلُّ عَلَى فضلها.

ومن هَذِهِ الأماكن: جبل ثور، وغار حراء، وجبل عرفات، والأماكن التي مرّ بها النبي ﷺ في أسفاره، والمساجد السبعة التي قُرب الخندق، والمكان الذي يزعم بعضهم

= ذَلِكَ فارتكبه، بل عجبي ممن أفتى بتحسينه مع علمه بقبحه ومخالفته لعمل السلف، واستشهد لذلك بالشعر، نسأل الله أن يوفقنا في القول والعمل، وأن يعصمنا من الهوى والزلل بمنهِ وكرمهِ. للمزيد انظر «رسالة التوحيد» للدهلوي الهندي (ص٢٣، ٢٤).

(١) وقال الإمام النووي الشافعي في «منسكه» (ص٤٥٣): الثامن: أي: من مسائل الزيارة: لا يجوز أن يُطاف بقبر النبي ﷺ، ويُكره إلصاق البطن والظهر بجدار القبر، قاله الحليمي وغيره.
ويُكره مسحه باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضر في حياته ﷺ، هذا هو الصواب، وهو الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه، وينبغي أن لا يغتر بكثر من العوام في مخالفتهم ذَلِكَ، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بأقوال العلماء، ولا يلتفت إلى مُحدثات العوام وجهالاتهم، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وأقوال العلماء، وكيف يبتغى الفضل في مخالفة الصواب؟!

(٢) وقال الإمام الغزالي في «الإحياء» (١/ ٢٧١): المسّ والتقبيل للمشاهد (القبور) عادة النصارى واليهود. ا.هـ.

أنَّ النبي ﷺ وُلد فيه، مَعَ أنَّهُ مختلفٌ في مكان ولادته ﷺ اختلافًا كثيرًا، ومثل الأماكن التي قيل إنه وُلد فيها نبي أو ولي أو عاشوا فيها، ونحو ذَلِكَ، مَعَ أنَّ كثيرًا من ذَلِكَ لم يَثْبُت.

فلا يجوز للمسلم قصد زيارة هَذِهِ الأماكن للتعبد لله تَعَالَى عندها، أو فوقها، بصلاة أو دعاء أو غيرهما، كما لا يجوز للمسلم مسح شيء من هَذِهِ الأماكن لطلب البركة، ولا يُشرعُ صعوده في يوم عرفة، ولا غيره، ولا التمسح بالعمود الذي فوقه، وإنَّما يشرع الوقوف عند الصخرات القريبة منه إن تيسّر، وإلَّا وقف الحاج في أي مكان من عرفات، ولِذَلِكَ لم يثبت عن أحدٍ من الصحابة أنَّهُ قصد شيئًا من هَذِهِ الأماكن للتبرك بها بتقبيل أو لمس أو غيرهما ولا أن أحدًا منهم قصدها للتعبد لله فيها[١].

وقَدْ ثبت عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِى هَذَا وَمَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[٢]. رواه البخاري ومسلم.

وثبت عن عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ، الذي هو ثاني الخُلفاء الراشدين الذين أُمرنا باتِّباع سنتهم، أنَّهُ لَـمَّا رأى النَّاس وهو راجعٌ من الحج ينزلون فَيُصلُّون في مسجد، فسأل عنهم، فقالوا: مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فقال: «إنَّما هلك مَن كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا[٣]، مَن مرّ بشيء من هَذِهِ المساجد فحضرت الصلاة فليُصلِّ، وإلا فليمض». فهذا قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي قَالَ عنه النبي ﷺ: «**جَعَلَ اللَّهُ الحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**»[٤].

وهو - أي قول عمر السابق - يدلُّ عَلَى التحذير من التبرك بالأماكن التي مرَّ بها أو تعبَّد فيها نبيِّنا ﷺ دون قصد لها، وعلى عدم مشروعية قصد هَذِهِ الأماكن للتعبد لله

---

(١) قال ابن وضَّاح المالكي الأندلسي المتوفى سنة (٢٨٧هـ) في رسالة «ما جاء في البدع» باب ما جاء في ابتداء الآثار (ص٩١): كان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ بالمدينة، ما عدا قباء وأُحُدًا. ا.هـ.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٣) **البيع**: جمع بيعة - بكسر الباء - وهي المكان الذي يتعبد فيه اليهود والنصارى.

(٤) **صحيح لشواهده**: أخرجه الترمذي (٣٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٩٥)، وغيرهما.

فيها، وعلى هذا أجمع سلف هَذِهِ الأمة، وكل مَن سار عَلَى طريقتهم لما سبق، ولأن ذَلِكَ من المحدثات التي لا دليل عليها.

٢- التبرك ببعض الأشجار وبعض الأحجار وبعض الأعمدة وبعض الآبار والعيون: التي يظن بعض العامة أنَّ لها فضلًا، إمَّا لظنهم أن أحد الأنبياء والأولياء وقف عَلَى ذَلِكَ الحجر، أو لاعتقادهم أن نبيًّا نام تحت تلك الشجرة، أو يرى أحدهم رؤيا أن هَذِهِ الشجرة أو هذا الحجر مبارك، أو يعتقدون أن نبيًّا اغتسل في تلك البئر أو العين، أو أن شخصًا اغتسل فيها فشفيَ، ونحو ذَلِكَ، فيغلون فيها ويتبركون بها فيتمسحون بالأشجار والأحجار، ويغتسلون بماء هَذِهِ البئر أو تلك العين طلبًا للبركة، ويعلقون بالشجرة الخِرق والمسامير والثياب، فربما أدى بهم غلوهم هذا في آخر الأمر إلى عبادة هَذِهِ الأشياء، واعتقاد أنها تقنع وتضر بذاتها.

ولاشك أن التبرك بالأشجار والأحجار والعيون ونحوها، بأي نوع من أنواع التبرك، مِن مسح أو تقبيل، أو اغتسال، أو غيرها مِمَّا سبق ذكره محرَّمٌ بإجماع أهل العلم، ولا يفعله إلا الجُهَّال، لأنه إحداث عبادات ليس لها أصل في الشرع[1]، ولأنه من أعظم أسباب الوقوع في الشرك الأكبر، ولما روى أبو واقد الليثي قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الكُفَّارُ يَنُوطُونَ بِسِلاَحِهِمْ بِسِدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِـمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَـهُمْ آلِهَةٌ﴾ ثم قَالَ: «إِنَّكُم قومٌ تجهلون، لَتَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[2].

فلما طلب حدثاء العهد بالإسلام مِن الصحابة شجرة يتبركون بها تقليدًا للمشركين أنكر عليهم النبي ﷺ ذَلِكَ، وأخبرهم أن طلبهم هذا يشبه طلب بني

---

(١) هذا فيما يتعبد به لله تَعَالَى، أما فيما يتعلق بالاستشفاء بها مع أنه لم يثبت بالتجربة أَوْ غيرها، أن فيها شفاء، ونحو ذَلِكَ، فهو محرم أيضًا من جهة اتخاذ ما ليس بسبب سببًا، فهو من الشرك الأصغر.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي (٦/ ٣٤٦، ١١١٨٥ - الكبرى)، وأحمد (٥/ ٢١٨) وغيرهم.

إسرائيل من موسى عليه السلام، أن يجعل لهم آلهة تقليدًا لمشركي زمانهم، فطلبهم مشابه لطلب بني إسرائيل من جهة طلب التشبّه بالمشركين فيما هو شرك، وإن كان ما طلبه هؤلاء الصحابة من الشرك الأصغر.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أَنَّهُ ليس هناك حجر أو غيره يُشرع مسحه أو تقبيله تبركًا، حَتَّى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، لا يُشر تقبيله مطلقًا مَعَ أَنَّهُ قَدْ وقف عليه، وأثرت فيه قدماه عليه السلام، وهذا كله قَدْ أجمع عليه أهل العلم[١].

ومسح الحجر الأسود وتقبيله وكذلك مسح الركن اليماني في أثناء الطواف إنَّما هو من باب التعبد لله تَعَالى، واتِّباع سنة النبي ﷺ، ولِذَلِكَ قَالَ عمر رَضِيَ الله عَنْهُ لَـمَّا قبَّل الحجر الأسود: «إنِّي لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت رَسُول الله يُقبِّلك ما قَبَّلتك»[٢].

كما أَنَّهُ يجب قطع الأشجار وهدم الآبار والعيون، وإزالة الأحجار التي يتبرك بها العامة، حسمًا لمادة الشرك، كما فعل عمر رَضِيَ الله عَنْهُ حين قطع شجرة بيعة الرضوان.

٣- التبرك ببعض الليالي والأيام التي يقال إنها وقعت فيها أحداث عظيمة، كالليلة التي يُقال إنها حصل فيها الإسراء والمعراج، ونحو ذَلِكَ.

وللحديث بقية إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) حكى هذا الإجماع شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والنوع الثالث: التبرك بالأماكن والأشياء الفاضلة:

وردت نصوص شرعية كثيرة تدلُّ عَلَى فضل وبركة كثير من الأماكن، كالكعبة المشرفة، والمساجد الثلاثة، وكثيرٌ من الأزمان كَليلةِ القَدر ويوم عرفة، وكثير من الأشياء الأخرى، كماء زمزم، والسحور للصائم، والتبكير في طلب الرزق ونحوه، وغير ذَلِكَ.

والتبرك بهذه الأشياء يكون بفعل العبادات وغيرها مِمَّا ورد في الشرع ما يدل عَلَى فضلها فيها، ولا يجوز التبرك بها بغير ما ورد، وعليه فمن تبرك بالأزمان أَوْ الأماكن أَوْ الأشياء التي وردت نصوص تدلُّ عَلَى فضلها أَوْ بركتها بتخصيصها بعبادات أَوْ تبركات معينة لم يرد في الشرع ما يدل عَلَى تخصيصها بها، فقد خالف المشروع، وأحدث بدعة ليس لها أصل في الشرع، وذلك كمن يخص ليلة القدر بعمرة، وكمن يتبرك بجدران الكعبة بتقبيلها أَوْ مسحها، أَوْ يتمسح بمقام إبراهيم أَوْ بالحجر المسمَّى حجر إسماعيل، أَوْ بأستار الكعبة، أَوْ بجدران المسجد الحرام، أَوْ المسجد النبوي وأعمدتها، ونحو ذَلِكَ، فهذا كله محرَّم، وهو من البدع المحدثة، وقَدْ اتفق أصحاب النبي ﷺ وسلف هذه الأمة عَلَى عدم مشروعيته[1]، ومثله أن يتبرك بأحجار أَوْ تراب شيء من

---

(١) روى عبد الرزاق «المقام» (٨٩٥٧) والفاكهي في «ذكر مسح المقام» (١٠٠٥) بإسناد صحيح عَلَى شرط الشيخين عن ابن جريج قال: أرأيت أحدًا يقبِّل المقام أَوْ يمسّه؟ قال: أما أحد يعتد به فلا. وعطاء - وهو ابن أبي رباح - من أجلّة التابعين، وممن لازم التدريس بالمسجد الحرام، فهذا يدل عَلَى إجماع الصحابة وعلماء التابعين عَلَى عدم مشروعيته، إذ لو كان مشروعًا لبادروا إلى فعله لحرصهم عَلَى الخير.

وقال الإمام النووي في «منسكه» الباب الخامس (ص٣٩٧): «لا يُقبِّل مقام إبراهيم ولا يستلمه، فإنه بدعة». وقال الهيتمي الشافعي في حاشيته عليه: «التقبيل والاستلام عبادتان مطلوبتان =

المواضع الفاضلة بالتمرغ عليه أَوْ يجمعه والاحتفاظ به.

ومِمَّا يدلُّ أيضًا عَلَى تحريم التبرك بالأشياء الفاضلة بغير ما ورد في الشرع، ما ثبت في «صحيح البخاري» عن ثاني الخلفاء الراشدين الذين أُمِرنا باتِّباع سُنتهم: عمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ، والذي قال عنه النبي ﷺ: «**إن الله جعل الحق عَلَى قلب عمر ولسانه**» أنه قال رَضِي الله عَنْهُ لما قبَّل الحجر الأسود: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبّلك ما قَبَّلتك»، رواه البخاري ومسلم، فقول عمر هذا صريح في أن تقبيل الحجر الأسود إنما هو اتِّباع للنبي ﷺ، فالمسلم يفعله تعبدًا لله تَعَالَى، واقتداءً بخير البريّة ﷺ، وليس من باب التبرك في شيء.

وإذا كان هذا في شأن الحجر الأسود الذي هو أفضل الكعبة، فغيره من الأماكن والأشياء الفاضلة أولى، فيتعبد المسلم فيها بما ورد في الشرع ولا يزيد عليه.

ومِمَّا يدلُّ كذلك عَلَى تحريم التبرك بالأشياء الفاضلة بغير ما ورد في الشرع ما ثبت عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عمّ النبي ﷺ عبد الله بن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أنه أنكر عَلَى مَن استلم أركان الكعبة الأربعة، لأن النبي ﷺ لم يستلم إلَّا الحجر الأسود والركن اليماني[1]. رواه البخاري. وما ثبت عن الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير رَضِيَ الله عَنْهُمَا من الإنكار عَلَى مَن مسح مقام إبراهيم.

وفي ختام الكلام عَلَى هذا الموضوع - أي التبرك البدعي -: إن هذا النوع من التبرك من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر المخرج من الملة، ولذلك لما عصى الله تَعَالَى بعضُ المسلمين بفعل التبرك البدعي أدى ذَلِكَ بكثير منهم إلى الوقوع في الشرك الأكبر، وذلك بالوقوع في التبرك الشركي، أَوْ بالوقوع في نوع آخر من أنواع الشرك الأكبر.

وقَدْ نقل ابن إسحاق صاحب «المغازي» وغيره ما يدلُّ عَلَى أن سبب وقوع العرب

= في الحجر الأسود، فلا يثبتان لغيره إلا بنص كذلك، ثم ذكر ما ثبت في الركن اليماني» يعني مسحه. وذكر أنه لم يثبت في المقام شيء.

(١) إسناد القصة حسن.

في الشرك هو تعظيم حجارة حرم مكة والتبرك بها، بل قال الإمام أبو إسحاق الشاطبيّ المالكي عند كلامه عَلَى التبرك: «العامة لا تقتصر في ذَلِكَ عَلَى حدّ، بل تتجاوز فيه الحدود، وتبالغ في جهلها في التماس البركة، حتى بداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به عن الحدّ، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية، حسبما ذكره أهل السير»[(١)]. وهذا يدل أيضًا عَلَى تحريم جميع أنواع التبرك الممنوع. ا.هـ[(٢)].

❁❁❁❁❁

(١) الاعتصام (٢/ ٩) وقال ابن الحاج المالكي كما في «إصلاح المساجد» (ص١٠١): التعليل الذي لأجله كره العلماء رحمهم الله تَعَالَى، التمسح بالمصحف والمنبر والجدران، وإلى غير ذَلِكَ، كان السبب في عبادة الأصنام.

(٢) «تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية» للأستاذ الدكتور/ عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (١١٨ - ١٢٩) باختصار يسير وإضافة، راجع مادته الشيخ/ مصطفى العدوي.

الخطبة الرابعة عشر بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: أُمِّ الدرداء

الوفاء بالعهود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيروي أهلُ السِّيرِ: أن أُمّ الدرداء رَضِي الله عَنْهَا رَوَتْ عِلمًا جمًّا عن زوجها أبي الدرداء وغيره.

وعرضت القرآن وهي صغيرة عَلَى أبي الدرداء، وطال عُمرها، واشتهرت بالعلم والعمل والزُّهد.

وقالت رَضِي الله عَنْهَا لأبي الدرداء عند موته: إنك خطبتني إلى أبويّ في الدنيا

فأنكحوك، وأنا أخطُبُك إلى نَفْسِك في الآخرة، فقال لها: فلا تنكحين بعدي[١].

فخطبها معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ الله عَنْهُمَا بعد وفاة أبي الدرداء، فأخبرته بالذي كان، فقال لها: عليك بالصِّيام[٢].

عباد الله ...

ونقف عند هذا الموقف لنخرج منه بدروس، منها درس مهمّ نحن في أمسِّ الحاجة إليه وخصوصًا في هذا العصر.

هذا الدرس هو «**الوفاء**».

- **ما هو الوفاء؟**
- **وما هي أنواعه؟**

هذا ما سوف نجيب عنه في هَذِهِ الخطبة - إن شاء الله تَعَالَى - والله الموفَّق لما يُحبّ ويرضى.

أما معنى الوفاء:

فالوفاء - كما يقول الجُرجانيُّ - هو ملازمةُ طريق المواساةِ، ومحافظةُ عُهُودِ الخُلَطَاءِ[٣].

وقال الرَّاغب: الوفاءُ بالعهد: إتمامُهُ وعدمُ نقضِ حِفْظِهِ[٤].

وقال أيضًا: الوفاء: صِدْقُ اللِّسَانِ والفعلِ معًا[٥].

وللوَفَاءِ بِالعُهُودِ قِيمَةٌ إنْسَانيَّةٌ وأخْلَاقيَّةٌ عُظْمَى لأنَّهُ يُرْسِي دَعَائِمَ الثِّقَةِ في الأفْرَادِ، ويُؤَكِّدُ أَوَاصِرَ التَّعَاوُنِ في المُجْتَمَعِ.

---

(١) وذلك لقوله ﷺ: «المرأةُ لآخرِ أزواجها» صحيح. رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر «صحيح الجامع» (٦٦٩١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).
(٣) «التعريفات» (٢٧٤).
(٤) «المفردات» (٥٢٨).
(٥) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٢٩٢).

يَقُولُ الرَّاغِبُ الأصفَهانِيُّ فِي ذَلِكَ: الوَفَاءُ: أَخُو الصِّدقِ والعَدلِ، والغَدرُ: أخُو الكَذِبِ والجَورِ، ذَلِكَ أَنَّ الوفَاءَ صِدقُ اللِّسانِ والفِعلِ مَعًا، والغَدْرُ كَذِبٌ بِهِمَا، لأنَّ فيه مَعَ الكَذِبِ نَقْضٌ للعَهدِ.

والوَفَاءُ يَختَصُّ بالإنْسَانِ، فَمَن فُقِدَ فيهِ - أي الوَفَاءُ - فَقَدْ انسَلَخَ مِن الإنْسَانيَّةِ، وقَدْ جَعَلَ الله تَعَالى العَهدَ مِنَ الإيمَانِ وصَيَّرَهُ قِوَامًا لأمُورِ النَّاسِ، فالنَّاسُ مُضْطَرُّونَ إلى التَّعاوُنِ، وَلا يَتمُّ تَعَاوُنُهُم إلَّا بِمُرَاعاةِ العَهْدِ والوَفَاءِ بِهِ، ولولا ذَلِكَ لَتَنافَرَتِ القُلُوبُ وارتَفَع التَّعَايُشُ، ولِذَلكَ عَظَّمَ الله تَعَالى أمرَهُ فَقَالَ: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقِيلَ في قَولهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ [المدثر: ٤]، أي: نَزِّه نَفْسَكَ عَنِ الغَدْرِ، وقَدْ عُظِّمَ حَالُ السَّمَوأَلِ فِيمَا التَزَمَ بِهِ مِنَ الوَفَاءِ بِدُروعِ امرِئِ القَيس، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الوَفَاءَ قِيمَةٌ عَظِيمَةٌ قَدَّرَهَا عَرَبُ الجَاهِلِيَّةِ، وقَدْ أقرَّهُمُ الإسْلامُ عَلَى ذَلِكَ، ولا يَستَطِيعُ ذَلِكَ إلَّا القَلِيلُونَ، ولِقلَّةِ وُجُودِ ذَلِكَ فِي النَّاس قَالَ تَعَالى: ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ** ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقَدْ ضُرِبَ بِهِ المَثَلُ في العِزَّةِ فَقَالتِ العَربُ: «هُوَ أعزُّ مِنَ الوَفَاءِ»[(١)].

عباد الله ...

أمَّا عن أنواع الوفاء:

فلِلْوفاء أنواعٌ عَديدَةٌ بِاعْتِبَار المُوفَى به، فَهِيَ قَدْ تَكُونُ وَفَاءً بِالعَهْدِ، وقَدْ تَكُونُ وَفَاءً بِالعَقْدِ أو المِيثَاقَ، وقَدْ تَكُونُ وَفَاءً بِالوَعْدِ. وَتَوضِيحُ ذَلِكَ فِيما يَلِي:

الوَفَاءُ بِالعَهْدِ: هُوَ - كما قَالَ الرَّاغِبُ - : إتْمَامُهُ وَعَدَمُ نَقْضِ حِفْظِهِ، ويَتَطَابَقُ مِنْ ثَمَّ صِدْقُ القَوْلِ والعَمَلِ جميعًا[(٢)].

وَعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: العُهُودُ: مَا أحَلَّ الله، ومَا حَرَّم، ومَا فَرَض، ومَا حَدَّ في القُرآنِ كُلِّه»[(٣)].

---

(١) «الذريعة إلى مكارم الأخلاق» (٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) «المفردات» (٥٢٨)، و«الذريعة إلى مكارم الأخلاق» (٢٩٢).

(٣) « عمدة التفسير » للشيخ أحمد شاكر (٤/ ٦٢)، وانظر «نضرة النعيم» (٣٦٤٠).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قَالَ القُرطبيُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تَعَالى: ﴿ **وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا** ﴾ عامٌّ في جميع ما عهده الله إلى عِبادِهِ، ويحتمل أن يُراد به جميع ما انعقد بين إنسانين، وأُضيف ذَلِكَ العهد إلى الله مِن حيث أمر بحفظه والوفاء به، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ تتعظون». ا.هـ[(١)].

وقال السَّعديُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى- : «قوله تَعَالى: ﴿ **وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا** ﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومِن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخق، فالجميع يجب الوفاء به، ويحرَّم نقضه والإخلال به» ا.هـ[(٢)].

عباد الله ...

ومن الوفاء لله تَعَالى: الاعتراف بنعمهِ، وعدم جحودها، والناس في هذا عَلَى قسمين:

الأول: شاكرٌ في النِّعماء، صابرٌ في البلاء، مُقرّ بعجزهِ عن القيام بشكر ربِّه مهمَا نزل به من البلاء، وحلّ بساحته من القضاء.

والقسم الثاني: كفورٌ جَحُود لنعم الله، لا يعترف بها لا في حال سرّاءه، ولا في حال ضرَّاءه، بل يعزو النِّعم لغير ربِّه، وهذا هو الإنسان الكنود، قَالَ تَعَالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]،

قَالَ ابن عباس: ﴿ لَكَنُودٌ ﴾ لكفورٌ جَحود لنعم الله.

وقال الحسن: يَذْكُرُ المصائب ويَنْسَى النِّعم.

وأخذه الشاعر فنظمه:

يــا أيُّهَــا الظَّــالمُ في فعلـــهِ ... والظُّلْــمُ مَــرْدُودٌ عَلَــى مَــنْ ظَلَــمْ

إلى متــى أنــتَ، وحتــى مَتــى ... تــشكو المُـصيبات وتَنْـسَى الـنِّعم!

---

(١) «تفسر القرطبي» (٧/ ١٢٤).

(٢) «تفسير السعدي» (٢٨٠).

وقيل: الكنود: هو الذي يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير.

وقيل: الجاحد للحقّ.

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نِعم الله في معاصي الله.

وقال أبو بكر الورّاق: الكنود: الذي يرى النِّعمة من نفسه وأعوانه.

وقال الترمذي: الكنود: الذي يرى النِّعم ولا يرى المُنْعِم(١).

وقَدْ أخبر النَّبيُّ ﷺ عن حال النَّاس أمام نِعم الله تَعَالى في الحديث التالي:

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ(٢) وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ(٣) فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي(٤) النَّاسُ.

قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ الإِبِلُ - أَوْ قَالَ البَقَرُ شَكَّ إِسْحَاقُ - إِلاَّ أَنَّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ البَقَرُ. قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ(٥) فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: البَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ

---

(١) انظر هذه الآثار في «تفسير القرطبي» للآية الكريمة.

(٢) **البرص**: بياض يظهر في البدن، لفساد مزاج.

(٣) **يبتليهم**: يختبرهم.

(٤) **قذرني النَّاس**: أي: اشمأزوا من رؤيتي.

(٥) **ناقة عُشراء**: هي الحامل القريبة الولادة.

النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا[١] فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا[٢].

قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ[٣] فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ[٤] فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ اليَوْمَ إِلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ[٥]. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِيَ اليَوْمَ إِلاَّ باللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ اليَوْمَ[٦] شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ

---

(١) **شاة والدًا**: أي: وضعت ولدها وهو معها.

(٢) **فأنتج هذان وولد هذا**: هكذا الرواية: فأنتج، رباعي وهي لغة قليلة الاستعمال، والمشهور نتج، ثلاثي، وممن حكى اللغتين: الأخفش، ومعناه: تولى الولادة، وهي النتج والإنتاج، ومعنى ولد هذا - بتشديد اللام - معنى أنتج، والنتاج للإبل، والمولد للغنم وغيرها، هو كالقابلة للنساء.

(٣) أي: جاءه في صورة رجلٍ أبرص، كما كان كذلك قبل أن يمسحه المَلك.

(٤) **انقطعت بي الحبال**: هي الأسباب، وقيل: الطرق.

(٥) **إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر**: أي ورثته من آبائي الذين ورثوه من آبائهم، كبيرًا عن كبير، في العز والشرف والثروة.

(٦) **أجهدك**: معناه: لا أشق عليك بردّ شيء تأخذه.

وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[(١)].

عباد الله ...

هذا هو حال النَّاس أمام نِعم الله تَعَالى، منهم الشَّاكر لنعم الله تَعَالى، ومنهم الجاحد لها.

فلينظر كُلُّ واحدٍ مِنَّا مِن أيِّ الفريقين يكون؟

نسأل الله تَعَالى أن يجْعَلني وإيَّاكم مِمَّن إذا ابْتُلوا بالسَّراء شكرا، وإذا ابتلوا بالضرَّاء صبروا، وأن يجعلني وإيَّاكم مِن أحبِّ خلقه إليه، ومن المقرَّبين لديه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فإن الإقرار بربوبيّة الله تَعَالى وألوهيَّته مركوز في الفِطَر، فقد أقرَّ النَّاس بذلك وهم في عالم الأصلاب، يوم أخذ الله عليهم العهد والميثاق.

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآيَةَ [الأعراف: ١٧٢]، قَالَ: «جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ فتكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالَ: فَإِنِّى أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا.

اعْلَمُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ غَيْرِى وَلاَ رَبَّ غَيْرِى، فَلاَ تُشْرِكُوا بِى شَيْئًا، إِنِّى سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِى يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِى وَمِيثَاقِى وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِى.

قَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا لاَ رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ وَلاَ إِلَهَ لَنَا غَيْرُكَ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ

---

(١) رواه البخاري (فتح ٦/ ٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤)، واللفظ له.

وَرَفَعَ عَلَيْهِمْ آدَمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَرَأَى الغَنِيَّ وَالفَقِيرَ وَحَسَنَ الصُّورَةِ وَدُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ: رَبِّ لَوْلاَ سَوَّيْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ. قَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُشْكَرَ، وَرَأَى الأَنْبِيَاءَ فِيهِمْ مِثْلَ السُّرُجِ عَلَيْهِمُ النُّورُ، خُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ فِي الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، كَانَ فِي تِلْكَ الأَرْوَاحِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى مَرْيَمَ»[١].

عباد الله ...

وللحديث عن الوفاء بقيَّة – إن شاء الله تَعَالى – فإلى اللقاء.

---

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في «مسند» أبيه (٥/ ١٣٥)، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية ابن جعفر الرازي به، وقَدْ جاء هذا الإشهاد مرفوعًا من حديث ابن عَبَّاس عن النبيِّ ﷺ قال: «أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ – يَعْنِي عَرَفَةَ – فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾». وإسناد الرواية حسن، أخرجها أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢).

الخطبة الخامسة عشر بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: أُم الدرداء

الوفاء بالعقود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا في الخطبة الماضية: أن للوفاء أنواعٌ عديدة، منها:

الوفاء بالعهد: وتكلَّمنا بفضل الله تَعَالى عنه.

والنوع الثاني: الوفاء بالعَقْد: والمراد به إمَّا العهد، وبذلك يتطابقُ مع النوع الأول، وقيل: العقودُ هي أوكدُ العهود، وقيل: هي عُهود الإيمان والقُرآن، وقيل: هي ما يتعاقدُه النَّاسُ فيما بينهم[١].

(١) «تفسير البغوي» (٢/ ٦).

قَالَ الله تَعَالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

قَالَ القرطبيُّ – رَحِمَهُ الله – في تفسير هَذِهِ الآية: «أمر الله سبحانه بالوفاء بالعقود، قال الحسن: يعني بذلك عقود الدين وهي ما عقده المرء على نفسه، من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير وغير ذلك من الامور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة، وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات، كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الاسلام. وأمَّا نذر المباح فلا يلزم بإجماع من الامة، قاله ابن العربي». ا.هـ[١].

وقال العلَّامة السَّعدي – رَحِمَهُ الله – في تفسيره لقول الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ : «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شاملٌ للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شاملٌ لأصول الدِّين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها». ا.هـ[٢].

وقال ابن كثير – رَحِمَهُ الله –: «قوله تعالى ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ قال غير واحدٍ: يعني بالعُقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذَلِكَ، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون

---

(١) «تفسير القرطبيّ» (٦/ ٥).

(٢) «تفسير السعدي» (٢١٨).

عليه من الحَلِفِ وَغَيْرُهُ.

وقال عددٌ من العلماء في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ يعني بالعهود، يعني: ما أحلَّ الله وما حرَّم، وما فرض، وما حَدَّ في القرآن كُلِّه، فلا تَغْدُرُوا ولا تَنكُثُوا.

وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ قال: هي ستةٌ: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين» ا.هـ. [١].

عباد الله ...

وقَدْ كان رَسُول الله ﷺ من أوفى النَّاس بالعقود، وإليكم هَذِهِ القصَّة الطويلة، والتي تكتب بماء الذَّهب عَلَى صفحات القلوب:

عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالغَمِيمِ**[٢] **فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ**» . فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ[٣] الجَيْشِ ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ . فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ[٤]. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلأَتِ القَصْوَاءُ[٥] ، خَلأَتِ القَصْوَاءُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**[٦]»، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً**[٧] **يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**».

ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ ، عَلَى ثَمَدٍ[٨] قَلِيلِ

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٨١).

(٢) **الغميم**: موضع بين مكة والمدينة.

(٣) **قترة**: الغبار الأسود.

(٤) **حَلْ حَلْ**: هو زجر الناقة للنهوض.

(٥) **خلأت القصواء**: حرنت من غير علة، والقصواء: اسم ناقة رَسُول الله ﷺ .

(٦) **حبسها حابس الفيل**: أي: حبسها الله عَزَّ وَجَلَّ عن دخول مكة، كما حبس الفيل عن دخولها.

(٧) **خُطّة**: أي: خصلة.

(٨) **ثمد**: بفتحتين: أي: حُفيرة فيها ماء مثمود، أي قليل.

المَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ(١) تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ(٢) النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ(٣).

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ(٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ(٥)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا(٦)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي(٧)، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ**». فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ.

قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ. وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ. فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا(٨) عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ.

---

(١) **يتبرضه النَّاس**: أي: يأخذون منه قليلًا قليلًا.

(٢) **لم يلبثه النَّاس**: أي: لم يتركوه يلبث أي: يقيم.

(٣) **يجيش لهم بالري حتى صدوا عنه**: أي: يفور بالماء حتى رجعوا.

(٤) **عيبة نصح رسول الله**: أي: موضع النصح له والأمانة عَلَى سره.

(٥) **العوذ المطافيل**: الناقة التي وضعت إلى أن يقوى ولدها.

(٦) **جَمُّوا**: أي: قووا.

(٧) **حتى تنفرد سالفتي**: أي: حتى أموت وأبقى منفردًا في قبري، والسالفة: صفحة العنق.

(٨) **بَلَّحوا**: أي: امتنعوا من الإجابة.

قَالُوا: ائتِهِ.

فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ(١) قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لأَرَى أَوْشَابًا(٢) مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا(٣) أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ(٤)، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ.

قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ(٥)، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ(٦)، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ - وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ**». ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ(٧) أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً(٨) إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا

---

(١) **اجتاح أهله**: أي: أهلك أصلهم.

(٢) **أوباشًا**: أي: أخلاطًا من أنواعٍ شتى.

(٣) **خليقًا**: أي: حقيقًا وجديرًا.

(٤) **امصص بظر اللات**: البظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانوا يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأُم، بدلًا من اللات، فأراد أبو بكر المبالغة في سبِّ عروة بإقامة مَن كان يعبد مقام أُمِّه.

(٥) **المغفر**: حلق يتقنّع به المتسلّح، وربما كان مثل القلنسوة غير أنها أوسع.

(٦) **أي غُدر**: مبالغة في وصفه بالغدر.

(٧) يرمق: يلحظ.

(٨) **النخامة**: البزقة التي تخرج من أقصى الحَلق.

يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ: أَيْ قَوْم ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا ، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ[١] ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ ، فَاقْبَلُوهَا . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ . فَقَالُوا: ائْتِهِ .

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**هَذَا فُلاَنٌ ، وَهْوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ[٢] فَابْعَثُوهَا لَهُ**» . فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ . فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ . فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ . فَقَالُوا: ائْتِهِ .

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ**» . فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو . قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ ، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**» .

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» . قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ . فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**» . ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**» . فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ

---

(١) **الوَضوء**: بفتح الواو: الماء الذي يُتوّضأ به.

(٢) **البُدن**: جمع بَدَنة، وهي تقع عَلَى الجمل والناقة والبقرة، وهي بالإبل أشبه، سُمّيت بدنة لعظمها وسمنها.

عَبْدِ اللَّهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ**».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «**لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**» .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**» . فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لاَ تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1] وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ ، إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا . قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ ابْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ[2] ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ**» . قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**فَأَجِزْهُ لِي**» . قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ . قَالَ: «**بَلَى ، فَافْعَلْ**» . قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ .

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ .

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «**بَلَى**». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «**بَلَى**» . قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ إِذًا قَالَ «**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**» . قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَى ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟**» . قَالَ: قُلْتُ: لاَ. قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**» . قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى . قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى . قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ

---

(١) **أُخذنا ضغطة**: أي: قهرًا.

(٢) **يرسف في قيوده**: أي: يمشي مشيًا بطيئًا بسبب القيد.

نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ[(١)]، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ. قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِى البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِىِّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً.

قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِىَ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِىَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ**﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿**بِعِصَمِ الكَوَافِرِ**﴾ [المتحنة: ١٠]، فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِى الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِى سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِىُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهْوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِى طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا العَهْدَ الَّذِى جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّى لأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا. فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ[(٢)]، وَفَرَّ الآخَرُ، حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «**لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِى وَإِنِّى لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِىَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِى إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِى اللَّهُ مِنْهُمْ.

---

(١) أي: اعتلق به واتبع قوله وفعله ولا تخالفه.

(٢) حتى برد: حتى مات.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ(١)، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ». فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ(٢).

قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلاَّ لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلاَّ اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهْوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿**الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [الفتح: ٢٤]، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ(٣).

عباد الله...

كان هذا جانبًا من جوانب الوفاء في حياته ﷺ ولقد أفاض العلماء في شرح هَذِهِ القصّة لأهميتها، وللدروس والعظات المستفادة منها، ومَن أراد المزيد فليرجع إلى «فتح الباري»، و«شرح النووي لصحيح مسلم» (٤).

والله الموفق للصواب، والهادي إلى سواء الصراط.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) **ويل أمه مسعر حرب**: ويل أمه: كلمة ذمّ تقولها العرب في المدح ولا يقصدوا معنى ما فيها من الذم، مسعر حرب: أي: مَن يسعرها كأنه يصفه بالإقدام في الحرب.

(٢) **سيف البحر**: أي: ساحله.

(٣) رواه البخاري (٢٧٣٢)، ومسلم مقطّعًا (١٧٨٣)، ١٧٨٤، ١٧٨٥).

(٤) ويُفضل ذكر القصة بفوائدها وعظاتها في أكثر من خطبة، حتى لا يتعجّل الخطيب، وحتى لا يُصاب المصلّي بالملل.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وعلى الوفاء بالعهد سار الصحابة رضي الله عنهم اتِّباعًا لكتابهم واقتداءً بنبيِّهم ﷺ، وإليكم هذا النموذج:

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ - رَجُلٍ مِنْ حِمْيَرَ - قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلاَدِهِمْ، حَتَّى إِذَا انْقَضَى العَهْدُ غَزَاهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ، فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَشُدُّ عُقْدَةً وَلاَ يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ». فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ[1].

وللحديث بقيّة - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٥٨٠)، وأبو داود (٢٧٥٩)، وقال محقق «جامع الأصول» (٢/ ٦٤٨): إسناده صحيح.

الخطبة السادسة عشر بعد المائة:

[جـ] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء

[أ] الوفاء بالوعود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا قَبْلُ: أنَّ للوفاء أنواعُ عديدة، ذكرنا مِنها نوعين:

الأول: الوفاء بالعهد.

والثاني: الوفاء بالعقد.

ونلتقي اليوم - إن شاء الله - مَعَ **النوع الثالث:** وهو الوفاء بالوعد. وأسأل الله التوفيق.

عباد الله...

والمراد بالوفاء بالوعد: أن يَصْبِرَ الإنسانُ عَلَى أداء ما يَعدُ به الغير، ويَبْذُلُهُ من تلقاء نَفْسِه، ويَرْهَنُهُ به لِسَانُهُ حَتَّى وإن أَضَرَّ بِهِ ذَلِكَ.

وقَدْ أثنى الله تَعَالى عَلَى نَبيِّه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلام فقال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية الكَريمة: هَذَا ثَناءٌ مِن الله تَعَالى عَلَى إسماعِيل بن إبراهيم الخَليل عليهما السلام، وهو والدُ عَرَبِ الحِجاز كُلِّهم بأنه ﴿**كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ**﴾.

قال ابنُ جُرَيج: لم يعد ربَّه عدةً إلَّا أنجزها، يعني: ما التزم عبادةً قطُّ بنذرٍ إلَّا قام بها ووفَّاهَا حقَّها.

وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿**صَادِقَ الوَعْدِ**﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢]، وصَدَقَ في ذَلِكَ.

فَصِدْقُ الوَعْدِ مِن الصِّفات الحَميدة، كما أنَّ خَلْفَهُ مِنْ الصِّفاتِ الذَّميمة، قال الله تَعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣]. وقال رَسُولُ الله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[1].

وَلَـمَّا كانت هَذِهِ صِفات المُنافقين كان التلبُّس بضدها من صِفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله عَلَى عبده ورسوله إسماعيل بصدقِ الوعد.

وكذلك كان رَسُولُ الله ﷺ صَادِقَ الوَعد أيضًا، لا يَعِدُ أحدًا شيئًا إلَّا وَفَّى له به، وقَدْ أثنى عَلَى أبي العاص بن الرَّبيع زَوج ابنتِهِ زَيْنب فقال: «**حَدَّثني فَصَدَقَني، وَوَعَدَني فَوَفَى لي**»[2] ا.هـ[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٦).

عباد الله...

ومِمَّا يَدلُّ عَلَى وفاء الرَّسُول ﷺ بِالوَعد، مَا يَلِي:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنْتُ عَلَى جَمَلٍ ثَفَالٍ(١)، إِنَّمَا هُوَ فِي آخِرِ القَوْمِ، فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا؟**». قُلْتُ: جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: «**مَا لَكَ؟**». قُلْتُ: إِنِّي عَلَى جَمَلٍ ثَفَالٍ. قَالَ: «**أَمَعَكَ قَضِيبٌ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**أَعْطِنِيهِ**». فَأَعْطَيْتُهُ فَضَرَبَهُ فَزَجَرَهُ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ أَوَّلِ القَوْمِ قَالَ: «**بِعْنِيهِ**». فَقُلْتُ: بَلْ هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**بِعْنِيهِ قَدْ أَخَذْتُهُ بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرَ، وَلَكَ ظَهْرُهُ(٢) إِلَى الْمَدِينَةِ**». فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَخَذْتُ أَرْتَحِلُ. قَالَ: «**أَيْنَ تُرِيدُ؟**». قُلْتُ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً قَدْ خَلاَ مِنْهَا. قَالَ: «**فَهَلاَّ جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ؟**». قُلْتُ: إِنَّ أَبِي تُوُفِّيَ وَتَرَكَ بَنَاتٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْكِحَ امْرَأَةً قَدْ جَرَّبَتْ خَلاَ مِنْهَا. قَالَ: «**فَذَلِكَ**». فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ قَالَ: «**يَا بِلاَلُ اقْضِهِ وَزِدْهُ**». فَأَعْطَاهُ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ، وَزَادَهُ قِيرَاطًا.

قَالَ جَابِرٌ: لاَ تُفَارِقُنِي زِيَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمْ يَكُنِ القِيرَاطُ يُفَارِقُ جِرَابَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ(٣).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنُ اليَمَانِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي (حُسَيْلٌ) قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا؟ فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الخَبَرَ فَقَالَ: «**انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ**»(٤).

عباد الله...

هَذِهِ صور ومواقف من حياة النَّبيّ ﷺ والتي تَدلُّ عَلَى أنَّ الوفاء بالوَعد كان

---

(١) **جمل ثفال**: أي بطيء السَّير.

(٢) ولك ظهره إلى المدينة، أي: تركبه إلى المدينة.

(٣) رواه البخاري (٢٣٠٩).

(٤) رواه مسلم (١٧٨٧).

من أَخْلَاقِهِ ﷺ.

وسَار الخُلَفَاء عَلَى نَهجِه في ذَلِكَ، **اسْمَعُوا:**

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبْيَضَ قَدْ شَابَ، وَكَانَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يُشْبِهُهُ، وَأَمَرَ لَنَا بِثَلاثَةَ عَشَرَ قَلُوصًا، فَذَهَبْنَا نَقْبِضُهَا فَأَتَانَا مَوْتُهُ فَلَمْ يُعْطُونَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَامَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَةٌ فَلْيَجِئْ. فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَمَرَ لَنَا بِهَا(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِي: «**لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ البَحْرَيْنِ قَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**». فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَاءَ مَالُ البَحْرَيْنِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَةٌ فَلْيَأْتِنِي. فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ قَالَ لِي: «**لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ البَحْرَيْنِ لأَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**». فَقَالَ لِي: احْثُهْ. فَحَثَوْتُ حَثْيَةً فَقَالَ لِي: عُدَّهَا. فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ، فَأَعْطَانِي أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ(٢).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ – رَضِيَ الله عَنْهُ – قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ – رَضِيَ الله عَنْهَا – فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَيْكِ السَّلاَمَ، ثُمَّ سَلْهَا أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ. قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلأُوثِرَنَّهُ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي. فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَهُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنَتْ لَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ. قَالَ: مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ المَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحْمِلُونِي ثُمَّ سَلِّمُوا ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ. فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَادْفِنُونِي، وَإِلاَّ فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، إِنِّي لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنِ اسْتَخْلَفُوا بَعْدِي فَهُوَ الخَلِيفَةُ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. فَسَمَّى عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ، وَوَلَجَ عَلَيْهِ شَابٌّ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ، كَانَ لَكَ مِنَ القَدَمِ فِي

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٢٦)، وأصله في الصحيحين.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٣١٤).

الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ الشَّهَادَةُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ. فَقَالَ: لَيْتَنِى يَا ابْنَ أَخِى وَذَلِكَ كَفَافًا لاَ عَلَىَّ وَلاَ لِى أُوصِى الخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِى بِالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْرًا، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لاَ يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ [(١)].

وعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِى طَلْحَةَ اليَعْمُرِىِّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَامَ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رُؤْيَا لاَ أُرَاهَا إِلاَّ لِحُضُورِ أَجَلِي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكاً نَقَرَنِى نَقْرَتَيْنِ، قَالَ: وَذَكَرَ لِى أَنَّهُ دِيكٌ أَحْمَرُ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ امْرَأَةِ أَبِى بَكْرٍ فَقَالَتْ: يَقْتُلُكَ رَجُلٌ مِنَ العَجَمِ. قَالَ: وَإِنَّ النَّاسَ يَأْمُرُونَنِى أَنْ أَسْتَخْلِفَ وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ وَخِلاَفَتَهُ الَّتِى بَعَثَ بِهَا نَبِيَّهُ ﷺ وَإِنْ يَعْجَلْ بِى أَمْرٌ فَإِنَّ الشُّورَى فِى هَؤُلاَءِ السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنْ بَايَعْتُمْ مِنْهُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، وَإِنِّى أَعْلَمُ أَنَّ أُنَاساً سَيَطْعُنُونَ فِى هَذَا الأَمْرِ أَنَا قَاتَلْتُهُمْ بِيَدِى هَذِهِ عَلَى الإِسْلاَمِ أُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ الكُفَّارُ الضُّلاَّلُ، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَتْرُكُ فِيمَا عَهِدَ إِلَىَّ رَبِّى فَاسْتَخْلَفَنِى شَيْئاً أَهَمَّ إِلَىَّ مِنَ الكَلاَلَةِ[(٢)]، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَغْلَظَ لِى نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ فِى شَىْءٍ مُنْذُ صَحِبْتُهُ أَشَدَّ مَا أَغْلَظَ لِى فِى شَأْنِ الكَلاَلَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِى صَدْرِى وَقَالَ: «**تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ**[(٣)] **الَّتِى نَزَلَتْ فِى آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ**»[(٤)]. وَإِنِّى إِنْ أَعِشْ فَسَأَقْضِى فِيهَا بِقَضَاءٍ يَعْلَمُهُ مَنْ يَقْرَأُ وَمَنْ لاَ يَقْرَأُ وَإِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى أُمَرَاءِ الأَمْصَارِ إِنِّى إِنَّمَا بَعَثْتُهُمْ لِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ وَيُبَيِّنُوا لَهُمْ سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ وَيَرْفَعُوا إِلَىَّ مَا عُمِّىَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ مِنْ شَجَرَتَيْنِ لاَ أُرَاهُمَا إِلاَّ خَبِيثَتَيْنِ هَذَا الثُّومُ وَالبَصَلُ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَرَى نَبِىَّ اللَّهِ ﷺ يَجِدُ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٢).

(٢) **الكلالة**: أن يموت الرجل ولا يدع والدًا ولا ولدًا يرثانه، فإن كان له أخت فلها نصف ما ترك، وإن كانتا اثنتين فلهما الثُلثان، وإن كانوا إخوة رجالًا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين.

(٣) **آية الصيف**: أي: التي نزلت في الصيف.

(٤) يقصد قوله تعالى: ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ** ... ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية.

فَيَأْمُرُ بِهِ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُخْرَجُ بِهِ مِنَ المَسْجِدِ حَتَّى يُؤْتَى بِهِ البَقِيعَ، فَمَنْ أَكَلَهُمَا لاَبُدَّ فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا. قَالَ: فَخَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَأُصِيبَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ[١].

عباد الله...

ومِمَّا قيل فِي الوفاء بالوعد مِن الشِّعر:

لقد وَعَدْتَ وأَنْتَ أكرمُ واعِدٍ ... لا خَيرَ فِي وَعْدٍ بغير تَمَامِ
أَنْعِم عليَّ بما وعدتَ تَكَرُّمًا ... فالمَطْلُ يُذْهِبُ بَهْجَةَ الإنْعَامِ

وقال آخر:

تَعْجِيلُ وَعْدِ المَرْءِ أُكْرُومَةٌ ... تَنْشُرُ عَنْهُ أطْيَبَ الذِّكْرِ
والحُرُّ لا يَمْطُلُ مَعْرُوفَهُ ... ولا يَلِيقُ المَطْلُ بالحُرِّ

وقال آخر:

ومِيعَادُ الكَرِيمِ عَلَيْهِ دَيْنٌ ... فَلا تَزِدِ الكَرِيمَ عَلَى السَّلامِ
يُذَكِّرُهُ سَلامُكَ مَا عَلَيْهِ ... ويُغْنِيكَ السَّلامُ عَنِ الكَلامِ

وأَنْشَدُوا:

إذَا قُلْتَ فِي شَيءٍ «نَعَم» فَأَتِمَّهُ ... فإنَّ «نَعَم» دَيْنٌ عَلَى الحُرِّ واجِبُ
وإلاَّ فَقُل «لا» تَسْتَرِح وتُرِح بِهَا ... لِئَلاَّ يَقُولَ النَّاسُ إنَّكَ كَاذِبُ

وقال آخَرُ:

لا كَلَّفَ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ... ولا تَجُودُ يَدٌ إلا بِمَا تَجِدُ
فَلا تَعِد عِدَةً إلا وَفَيْتَ بِهَا ... واحْذَر خِلافَ مَقَالِ لِلَّذِي تَعِدُ

أسأل الله تَعَالَى أن يَجعلني وإيَّاكم مِن الموفين بالوعود.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فكم فَوَّت خُلف الوعدِ مِن المَصَالِح.

وكَم أوغر مِن صُدور.

وكَم أوقع مِن خَسَائِر.

وكم ضَيَّع مِن أعمار.

بل وكَم أحدث من هَزَائِم.

بل وكَم كان سبب خلف الوعد من إضفاء صفة النِّفاق عَلَى مَن اتَّصفَ به.

عباد الله...

إن الوفاء بالوعد من أسباب دخول الجَنَّة:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**»[(١)].

وللحديث بقيّة إن شاء الله تَعَالى.

فإلى اللّقاء.

❖❖❖❖❖

---

(١) حسن: رواه أحمد في «المسند»، والحاكم وغيرهما، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٤٧٠).

الخطبة السابعة عشر بعد المائة:

[د] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء

[ب] الوفاء بالوعد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «**الوفاء بالوعد**» سائلًا الله تَعَالى التوفيق.

عباد الله...

والوفاء بالوعد صفة من صفات المولى عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ الله تَعَالى: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ – ٥].

. والوفاء - كما تقدَّم - خُلُقًا مِن أخلاق الأنبياء - عَلَيْهُم السَّلامُ - والصُّلحاء، قَالَ تَعَالى عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلام: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤].

وها هي عَائِشة رَضِي الله عَنْهَا تُخبرنا عن وفاء رَسُول الله ﷺ بالوعد، فتقول: ابْتَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الأَعْرَابِ جَزُورًا[١] أَوْ جَزَائِرَ بِوَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ (الذَّخِيرَةِ)، وَتَمْرُ (الذَّخِيرَةِ) العَجْوَةُ، فَرَجَعَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ وَالتَمَسَ لَهُ التَّمْرَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّا قَدِ ابْتَعْنَا مِنْكَ جَزُوراً أَوْ جَزَائِرَ بِوَسْقٍ مِنْ تَمْرِ (الذَّخِيرَةِ) فَالتَمَسْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ». قَالَ: فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاغَدْرَاهُ. قَالَتْ: فَنَهَمَهُ[٢] النَّاسُ وَقَالُوا: قَاتَلَكَ اللَّهُ أَيَغْدِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟!. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً». ثُمَّ عَادَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّا ابْتَعْنَا مِنْكَ جَزَائِرَكَ وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّ عِنْدَنَا مَا سَمَّيْنَا لَكَ فَالتَمَسْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاغَدْرَاهُ. فَنَهَمَهُ النَّاسُ وَقَالُوا: قَاتَلَكَ اللَّهُ أَيَغْدِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً». فَرَدَّدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً فَلَمَّا رَآهُ لاَ يَفْقَهُ عَنْهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «اذْهَبْ إِلَى خُوَيْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ فَقُلْ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ لَكِ إِنْ كَانَ عِنْدَكِ وَسْقٌ مِنْ تَمْرِ (الذَّخِيرَةِ) فَأَسْلِفِينَاهُ حَتَّى نُؤَدِّيَهُ إِلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَذَهَبَ إِلَيْهَا الرَّجُلُ ثُمَّ رَجَعَ الرَّجُلُ فَقَالَ: قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَابْعَثْ مَنْ يَقْبِضُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلرَّجُلِ: «اذْهَبْ بِهِ فَأَوْفِهِ الَّذِي لَهُ». قَالَ: فَذَهَبَ بِهِ فَأَوْفَاهُ الَّذِي لَهُ، قَالَتْ: فَمَرَّ الأَعْرَابِيُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً فَقَدْ أَوْفَيْتَ وَأَطْيَبْتَ».

قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُولَئِكَ خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ المُوفُونَ المُطِيبُونَ»[٣].

---

(١) الجَزور: بفتح الجيم، البعير، ذكرًا كان أَوْ أُنثى، إلَّا أن اللفظة مؤنثة، والجمع: جُزُر - بضمتين- وجزائر.

(٢) فنهمه النَّاس: أي: زجروه.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٢٦٨)، وقال الهيثميّ في «المجمع» (٤/ ١٤٠٠): إسناد أحمد صحيح.

عباد الله...

وجملة القَول: أنَّ الوفاء بالعهود والعقود والوعود مِن أخلاق النَبيِّين والصَّالحين، وهذه صور ومواقف أخرى تُبيِّن مكانة هَذِهِ الأخلاق:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِى بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: فَأْتِنِى بِالكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِى البَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِى أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا[1]، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِى كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً، فَرَضِىَ بِكَ، وَسَأَلَنِى شَهِيدًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِىَ بِكَ، وَأَنِّى جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِى لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّى أَسْتَوْدِعُكَهَا.

فَرَمَى بِهَا فِى البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهْوَ فِى ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِى فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِى كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِى طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَىْءٍ، قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّى لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِى جِئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِى بَعَثْتَ فِى الخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[2].

ومِن قَصَص الوَفَاءِ بِالعَهْدِ ورِعَايَةُ الذِّمَمِ:

فَقَدْ نُقِلَ فيه مِنْ عَجَائِبِ الوَقَائِعِ وغَرَائِبِ البَدَائِعِ مَا يُطْرِبُ السَّامِع ويُشَنِّفُ المَسَامِعَ، كَقَضِيَّة الطائي وشَرِيكٍ نَدِيمَي النُّعْمَان بنِ المُنْذِرِ، وتَلْخِيصُ مَعْنَاهَا:

---

(١) زجج موضعها: سوَّى موضع النقر وأصلحه.

(٢) رواه البخاري (٢٢٩١).

أنَّ النُّعْمَانَ كَانَ قَدْ جَعَلَ لَهُ يَوْمَيْنِ: يَوْمَ بُؤْسٍ، مَنْ صَادَفَهُ فِيهِ قَتَلَهُ وأَرْدَاهُ، ويَومَ نَعِيمٍ، مَنْ لَقِيَهُ فِيهِ أَحْسَنَ إلَيهِ وأغْنَاهُ، وكَانَ هَذَا الطَّائِيُّ قَدْ رَمَاهُ حَادِثُ دَهْرِهِ بِسِهَامِ فَاقَتِهِ وفَقْرِهِ، فَأَخْرَجَتْهُ الفَاقَةُ مِنْ مَحَلِّ اسْتِقْرَارِهِ لِيَرْتَادَ شَيْئًا لِصِبْيَتِهِ وصِغَارِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إذْ صَادَفَهُ النُّعْمَانُ فِي يَوْمِ بُؤْسِهِ، فَلَمَّا رَآهُ الطَّائِيُّ عَلِمَ أَنَّهُ مَقْتُولٌ وأنْ دَمَهُ مَطْلُولٌ، فَقَالَ: حَيَّا اللهُ المَلِكَ، إنَّ لِي صِبْيَةً صِغَارًا وأهلًا جِياعًا وقَدْ أَرَقْتُ مَاءَ وَجْهِي فِي حُصُولِ شَيءٍ مِنْ البُلْغَةِ لَهُم وقَدْ أقْدَمَنِي سُوءُ الحَظِّ على المَلِكِ فِي هَذَا اليَوْمِ العَبُوسِ، وقَدْ قَرُبتُ مِنْ مَقَرِّ الصِّبْيَةِ والأهْلِ وهُم على شَفَا تَلَفٍ مِنْ الطَّوَى، ولَن يَتَفَاوتَ الحَالُ فِي قَتْلِي بَيْنَ أوَّلِ النَّهَارِ وآخِرِه، فَإِن رَأى المَلك أنْ يَأذَنَ لِي فِي أنْ أُوَصِّلَ إلَيْهِم هَذَا القُوتَ وأُوصِي بِهِم أَهْلَ المُرُوءَةِ مِنَ الحَيِّ، لِئَلَّا يَهْلِكُوا ضَيَاعًا ثُمَّ أعُود إلى الملك وأُسَلِّم نَفْسِي لِنَفَاذِ أَمْرِه.

فَلَمَّا سَمِعَ النُّعْمَانُ صُورَةَ مَقَالِهِ وفَهِمَ حَقِيقَةَ حَالِهِ ورَأى تَلَهُّفَهُ على ضَيَاعِ أطْفَالِهِ، رَقَّ لَهُ ورَثَي لِحَالِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: لا آذَنُ لَكَ حَتَّى يَضْمَنَكَ رَجُلٌ مَعَنَا، فَإِنْ لم تَرْجِع قَتلنَاهُ، وكَانَ شَرِيكُ بن عَدِيٍّ بن شُرَحبيلَ نَدِيمُ النُّعْمَان مَعَهُ، فَالتَفَتَ الطَّائِيُّ إلى شَرِيكٍ وقَالَ لَهُ:

يَا شَرِيكَ بنَ عَدِيٍّ ... مَا مِنْ المَوتِ انْهِزَام
مَن لأطْفَالٍ ضِعَافٍ ... عَدِمُوا طَعْمَ الطَّعَام
بَيْن جُوعٍ وانْتظار ... وافْتِقَارٍ وسِقَام
يَا أخَا كُلِّ كَرِيمٍ ... أنْتَ مِنْ قَوْمٍ كِرَام
يَا أخَا النُّعْمَان جُد لِي ... بِضَمَانٍ والتِزَام
ولَكَ اللَّهُ بأنِّي ... رَاجِعٌ قَبْلَ الظَّلام

فَقَالَ شَرِيكٍ بن عَديّ: أصْلَحَ الله المَلِك عَلَيَّ ضَمَانُهُ، فَمَرَّ الطَّائِيُّ مُسْرِعًا وصَارَ النُّعْمَانُ يَقُولُ لِشَرِيكٍ: إنَّ صَدْرَ النَّهَار قَدْ وَلَّى ولم يَرْجِع، وشَرِيكٌ يَقُولُ: لَيْسَ لِلْمَلِكِ عَلَيَّ سَبِيلٌ حَتَّى يَأتِي المَسَاءُ، فَلَمَّا قَرُبَ المَسَاءُ قَالَ النُّعْمَان لشَرِيكٍ: قَدْ جَاءَ وَقْتُكَ قُمْ فَتَأَهَّب لِلْقَتلِ، فَقَالَ شَرِيكٌ: هَذَا شَخْصٌ قَدْ لَاحَ مُقْبِلًا وَأرجُو أنْ يَكُونَ الطَّائِيَّ، فإنْ لم

يَكُن فَأمْرُ المَلِكِ مُمْتَثَلٌ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ وإذْ بالطَّائِيِّ قَدْ اشْتَدَّ عَدْوِهِ فِي سَيرِهِ مُسْرِعًا حَتَّى وصَلَ فَقَالَ: خَشِيتُ أن يَنْقَضِي النَّهَار قَبْلَ وُصُولِي، ثُمَّ وَقَفَ قَائِمًا وقَالَ أيُّهَا المَلِكُ مُر بِأمْرِكَ، فَأطْرَقَ النُّعْمَان ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وقَالَ: والله مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْكُمَا، أمَّا أنْتَ يا طَائِي فَمَا تَرَكْتَ لأحَدٍ فِي الوَفَاءِ مَقَامًا يَقُوم فِيهِ ولا ذِكْرًا يَفْتَخِرُ بِهِ، وأمَّا أنْتَ يَا شَرِيكُ فَمَا تَرَكْتَ لِكَرِيمٍ سَمَاحَةً يُذْكَرُ بِهَا فِي الكُرَمَاءَ، فَلَا أَكُونُ أنا أَلأَمَ الثَلاثَةِ، ألا وإنِّي قَدْ رَفَعْتُ يَوْمَ بُؤْسِي عَنِ النَّاس ونَقَضْتُ عَادَتِي، كَرَامَةً لِوَفَاءِ الطَّائِيِّ وكَرَمِ شَرِيكٍ، فَقَالَ الطَّائِيُّ:

وَلَقَدْ دَعَتْنِي لِلْخِلافِ عَشِيرَتِي ... فَعَدَدتُ قَوْلُهُمُ مِنَ الإضْلالِ

إنِّي امْرؤٌ مِنِّي الوَفَاءُ سَجِيَةٌ ... وفَعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفْضَالِ

فَقَالَ لَهُ النُّعْمَان: مَا حَمَلَكَ عَلَى الوَفَاءِ وَفِيهِ اتْلافُ نَفْسِكِ؟ فَقَالَ: دِينِي، فَمَنْ لَا وَفَاءَ فِيهِ لا دِينَ لَهُ، فَأَحْسَنَ إليه النُّعْمَان وَوَصَلَهُ بِمَا أغْنَاهُ وأعَادَهُ مُكَرَّمًا إلى أَهْلِهِ وأنَالَهُ مَا تَمَنَّاهُ[١].

عباد الله...

ومِنْ ذَلِكَ: مَا حُكِيَ أنَّ الخَلِيفَة المَأمُون لَـمَّا وَلَّي عَبْد الله بن طَاهِرِ بن الحُسَين مِصْرَ والشَّامَ وأطْلَقَ حُكْمَهُ، دَخَلَ عَلَى المَأمُون بَعْضُ إخْوَانِهِ يَوْمًا فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِين إنَّ عَبْد الله بن طَاهِرٍ يَمِيلُ إلى وَلَدِ أبِي طَالِبٍ، وهَوَاهُ مَعَ العَلَوِيِّينَ وكَذَلِك كَانَ أَبُوهُ قَبْلَهُ، فَحَصَلَ عِنْدَ المَأمُونِ شَيءٌ مِنْ كَلَامِ أخِيهِ مِنْ جِهَةِ عَبْد الله بن طَاهِرٍ، فَتَشَوَّش فِكْرُهُ وضَاقَ صَدْرُهُ، فَاسْتَحْضَرَ شَخْصًا وجَعَلَهُ فِي زِيِّ الزُّهَّادِ والنُّسَّاكِ الغُزَاةِ ودَسَّهُ إلى عَبْد الله بن طَاهِرٍ وقال لَهُ: امْضِ إلى مِصْرَ وخَالِطْ أهْلَهَا ودَاخِل كُبَرَاءَهَا واسْتَمِلْهُم إلى القَاسِمِ بن مُحَمَّد العَلَوِيِّ واذْكُر مَنَاقِبَهُ، ثُمَّ بَعد ذَلِكَ اجْتَمِع بِبَعض بِطَانة عَبْد الله بن طَاهِر، ثُمَّ اجْتَمِع بعَبْد الله بن طَاهر بعد ذَلِكَ وادْعُهُ إلى القَاسِم بن مُحَمَّد العَلَوِيِّ، واكْشِف بَاطِنَهُ وابْحَث عَنْ دَفِين نِيَّتِهِ وائْتِنِي بِمَا تَسْمَعُ.

---

(١) «المستطرف» (١/ ٢٨٧، ٢٨٨).

فَفَعل ذَلِكَ الرَّجُلُ مَا أَمَرهُ بِهِ المَأمُون وتَوَجَّهَ إلى مِصْرَ ودَعَا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِهَا، ثُمَّ كَتَبَ وَرَقَةً لَطِيفةً ودَفَعَهَا إلى عَبْد الله بن طَاهِرٍ وَقْتَ رُكُوبِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنْ الرُّكُوبِ وجَلَسَ في مَجْلِسِهِ خَرَجَ الحَاجِبُ إِلَيْهِ وأَدْخَلَهُ على عَبْد الله بن طَاهِرٍ وهُوَ جَالِسٌ وَحْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: لَقَد فَهِمْتُ مَا قَصَدْتَهُ، فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ، فَقَالَ: ولِي الأَمَانُ؟ قَالَ: نَعَم، فَأَظْهَرَ لَهُ مَا أَرَادَهُ ودَعَاهُ إلى القَاسِم بن مُحَمَّد، فَقَالَ لَهُ عَبْد الله: أَوَتَنْصِفُني فِيما أَقُولُهُ لَكَ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَهَل يَجِبُ شُكْرُ النَّاس بَعْضِهِم لِبَعضٍ عِنْدَ الإحْسَانِ وَالمِنَّةِ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَيَجِبُ عَلَيَّ وأنا في هَذِه الحَالة الَّتِي تَرَاها مِنْ الحُكْمِ والنِّعمَةِ والوَلايةِ وَلِي خَاتَمٌ في المَشْرِقِ وخَاتَمٌ في المَغْرِبِ، وأَمْري فِيمَا بَيْنَهُمَا مُطَاعٌ، وقَوْلِي مَقْبُولٌ. ثُمَّ إنِّي التَفِتُ يَمِينًا وشِمَالًا فَأَرَى نِعْمَةَ هَذَا الرَّجُلِ غَامِرةً، وإحْسَانَهُ فَائِضًا عَلَيَّ، أَفَتَدْعُوني إلى الكُفْرِ بِهَذِهِ النِّعمةِ وتَقُولُ اغْدُر وجَانِب الوَفَاءَ، والله لَو دَعَوتَنِي إلى الجَنَّة عَيَانًا لِمَا غَدَرْتُ ولما نَكَثْتُ بَيْعَتَهُ وتَرَكْتُ الوَفَاءَ لَهُ. فَسَكَتَ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ عَبْد الله: والله مَا أَخَافُ إلَّا عَلَى نَفْسِكَ، فَارْحَل مِنْ هَذَا البَلَدِ، فَلَمَّا يَئِسَ الرَّجُلُ مِنْهُ وكَشَفَ بَاطِنَهُ وسَمِعَ كَلَامِهُ رَجَعَ إلى المَأمُون فَأَخْبَرَهُ بِصُورَةِ الحَالِ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ وزَادَ في إحْسَانِهِ إِلَيْهِ وضَاعَفَ إنْعَامَهُ عَلَيْهِ[1].

عباد الله...

هَذِهِ مواقف من حياة الأنبياء والصُّلحاء، تُبيِّن وتَكشِف عن مَكَانة الوفاء من الدِّين، وللحديث بقية، انتظروها بعد قليل. إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا أَسْفَرَت عَنْهُ وُجُوهُ الأَوْرَاقِ وأَخْبَرَت بِهِ الثِّقَاتُ في الآفَاقِ، وَظَهَرَت رِوايَتُهُ بِالشَّامِ والعِرَاقِ، وضُرِبَ بِهِ الأَمْثَالُ في الوَفَاءِ بِالاتِّفَاقِ: حَديثُ السَّمَوألِ بن عَادِيَا

(١) المرجع السابق (١/ ٢٨٨).

وتَلْخِيص مَعْنَاهُ:

أنَّ امْرَأَ القَيْسِ الكِنْدِيَّ لـمَّا أَرَادَ المُضِيَّ إلى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّوم، أَوْدَعَ عِند السَّمَوأَلِ دُرُوعًا وسِلَاحًا وأَمْتِعَةً تُسَاوي مِن المَالِ جُمْلَةً كَثِيرَةً، فَلَمَّا مَاتَ امْرُؤُ القَيْسِ أَرْسَلَ مَلِكُ كِنْدَةَ يَطْلُبُ الدُّرُوعَ والأَسْلِحَةَ المُودَعَةَ عِنْدَ السَّمَوأَلِ، فَقَالَ السَّمَوأَلِ: لَا أَدْفَعُهَا إلَّا لِمُسْتَحِقِّهَا، وأبي أنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيئًا، فَعَاوَدَهُ فَأَبى، وقَالَ: لا أَغْدِرُ بِذِمَّتِي وَلَا أَخُونُ أَمَانَتِي وَلَا أَتْرُكُ الوَفَاءَ وَالوَاجِبَ عَلَيَّ، فَقَصَدَهُ ذَلِكَ المَلِكُ مِنْ كِنْدَةَ بِعَسْكَرِهِ فَدَخَلَ السَّمَوأَل فِي حِصْنِهِ وامْتَنَعَ بِهِ، فَحَاصَرَهُ ذَلِكَ المَلِك، وكَانَ وَلَدُ السَّمَوأَل خَارِج الحِصْنِ فَظَفَرَ بِهِ ذَلِكَ المَلِك فَأَخَذَهُ أسِيرًا، ثُمَّ طَافَ حَوْلَ الحِصْنِ وصَاحَ بِالسَّمَوأَل، فَأَشْرَفَ عَليهِ مِنْ أَعْلَى الحِصْنِ، فَلَمَّا رَآهُ قال لَهُ: إنَّ وَلَدَكَ قَدْ أَسَرْتُهُ، وهَا هُو مَعِي فإنْ سَلَّمْتَ إلَيَّ الدُّرُوعَ والسِّلَاحَ التي لامْرِيءِ القَيْسِ عِنْدَكَ، رَحَلْتُ عَنْكَ وسَلَّمْتُ إلَيْكَ وَلَدَكَ، وإنْ امْتَنَعْتَ مِن ذَلِكَ ذَبَحْتُ وَلَدَكَ وأنْتَ تَنْظُرُ، فَاخْتر أَيَّهُمَا شِئْتَ.

فَقَالَ لَهُ السَّمَوأل: مَا كُنْتُ لأخْفِرَ ذِمَامِي وأُبْطِلُ وَفَائِي، فَاصْنَع مَا شِئْتَ، فَذَبَحَ وَلَدَهُ وهُو يَنْظُرُ، ثُمَّ لما عَجَزَ عَنِ الحِصْنِ رَجَعَ خَائِبًا، واحْتَسَبَ السَّمَوأل ذَبْحَ وَلَدِهِ وصَبَرَ مُحَافَظَةً عَلَى وَفَائِه.

فَلَمَّا جَاءَ المَوْسِمُ وحَضَرَ ورَثَةُ امْرِيءِ القَيْسِ سَلَّمَ إِلَيْهِم الدُّرُوعَ والسِّلَاحَ.

ورَأَى حِفْظَ ذِمَامِه ورِعَاية وَفَائِهِ أَحَبَّ إليه مِن حَيَاةِ وَلَدِهِ وبَقَائِهِ، فَصَارتِ الأَمْثَالُ فِي الوَفَاءِ تُضْرَبُ بِالسَّموأل، وإذَا مَدَحوا أَهْلَ الوَفَاءِ فِي الأَنَام ذُكِرَ السَّمَوأل فِي الأَوَّلِ، وَكَم أعْلَى الوَفَاءُ رُتْبَةَ مَنْ اعْتَقَلَهُ بِيَدَيْهِ، وأَغْلَى قِيْمَةَ مَنْ جَعَلَهُ نُصْبَ عَيْنَيهِ واسْتَنْطَقَ الأَفْوَاهَ لِفَاعِلِهِ بِالثَّنَاءِ عَليهِ واسْتَطْلَقَ الأيْدِيَ المَقْبُوضَةَ عَنْهُ بِالإحْسَانِ إِلَيْهِ» [(١)].

عباد الله...

والنَّاظِر فِي أحوال المُسلمِين اليوم لا يَكادَ يَرى هَذَا الخُلُق - خُلُق الوفاء - أثرًا إلَّا ما رَحِمَ رَبِّي.

---

(١) «المستطرف» (١/ ٢٨٩).

والسَّبب: بُعد النَّاس عن هَدي إسْلامهم، لذا رأينا الخيانة ضربت بِجَذْرِها في قلوب كثير من النَّاس، وامتدت فروعُها عَلَى تصرّفاتهم وأحوالهم، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

والذي يُخالط النَّاس يلمس ذَلِكَ جيِّدًا، ويراه واضحًا.

وصدق الشاعر إذ يَقُول:

اشْـدُدْ يَـدَيْكِ بمَـن بَلَـوتَ وفـاءً ... إن الـوفاءَ مِـنَ الـرِّجَال عزيـزُ

اللَّهُمَّ رُدَّ المُسلمين إلى دِينك رَدًّا جَمِيلًا.

❁❁❁❁❁

الخطبة الثامنة عشر بعد المائة:

[هـ] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء

صور أخرى من الوفاء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدَّم معنا بعض صور الوفاء، وهناك صور أخرى، منها:

وفاء المرأة لزوجها، ووفاء الزوج لزوجته:

أما وفاء المرأة لزوجها: فقد تقدَّم معنا موقف أُم الدرداء مع زوجها أبي الدَّرداء عند موته.

ومن وفاء المرأة لزوجها: حفظ عهده، ولزوم ما كان يُحبه في حال حياته منها مِن

خلاق حسنة.

فَعَنْ فَضَالَةَ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلاثَةٌ لاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ مِن سَيِّده فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ**»(١).

قَالَ المُنَاوِيُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى -: قوله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ**» أي: فإنَّهم مِن الهَالِكين «**رَجُلٌ فَارَقَ**» بِقَلبه ولِسَانه واعْتِقَاده أو ببدنه ولِسَانه. وخَصَّ الرَّجُل بالذِّكر لشَرفه وأصالته وغَلَبة دَوران الأحكام عليه، فالأُنْثَى مِثْله مِن حَيْث الحُكم. «**الجَمَاعَةَ**» المعهودين وهم جماعة المسلمين «**وَعَصَى إِمَامَهُ**» إما بنحو بدعة كالخوارج المتعرضين لنا والممتنعين من إقامة الحق عليهم المقاتلين عليه، وإما بنحو بغي أو حرابة أو صيال أو عدم إظهار الجماعة في الفرائض، فكل هؤلاء لا تسأل عنهم لحل دمائهم. «**وَمَاتَ عَاصِيًا**») فميتته ميتة جاهلية، «**وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ مِن سَيِّده**» أو سيِّدته أي: تغيَّب عنه في محلٍ وإن كان قريبًا، «**فَمَاتَ**» فإنَّهُ يَمُوت عَاصيًا. «**وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلاَ تَسْأَلْ عَنْهُمْ**» فَائدةُ ذكره ثَانيًا تَأكيدًا للعلم ومزيد بيان الحُكم». اهـ(٢).

عباد الله...

وقَدْ وصف الله تَعَالى النِّساء الصَّالحات بقوله: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّـهُ**﴾ [النساء: ٣٤].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «وقوله: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ**﴾ أي: من النِّساء ﴿**قانِتَاتٌ**﴾ يعني مُطيعات لأزواجهن ﴿**حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ**﴾ أي تحفظُ زَوجها في غَيبته في نَفْسِها ومَالَه. ﴿**بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ أي: المحفوظ مَنْ حَفِظَهُ الله». ا.هـ(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني والحاكم وغيرهما، وقال الحاكم: صحيح عَلَى شرطهما، ولا أعلم له علّة، وأقره الذهبيّ، وقال الذهبيُّ: رجاله ثقات، وصححه الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (٥٤٢).

(٢) «فيض القدير» (٣/ ٤٢٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦٨).

أما وفاء الزوج لزوجته:

فهذا من أخلاق نبيِّنا صلواتُ الله وسلامهُ عليه.

لَـمَّا ماتت أُمُّنا خديجة رَضِيَ الله عَنْهَا، ترك موتُها أثرًا في نفس رَسُول الله ﷺ، تَقُول عَائِشة رَضِيَ الله عَنْهَا: ذَكَرَ رَسُول الله ﷺ خديجة، فتناولتُها، فقلتُ: عجوز، كذا وكذا، وقَدْ بدَّلك الله بها خيرًا منها.

فَقال: «**مَا أَبْدَلَنِي الله خَيْرًا مِنها، لقد آمنَتْ بي حين كَفَر النَّاس، وأشركَتني في مالها حين حَرَمَني النَّاس، ورزقني الله وَلَدَها، وحرمَني ولد غيرها**». قُلت: والله لا أُعاتبك فيها بعد اليوم(١).

وجاءت عجوز من صويحبات خديجة إلى النَّبيّ ﷺ بعد موتها، فأحسن النَّبيُّ ﷺ لقائها، وأكرم مثواها وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وصار يسأل عن أحوالها وما صارت إليه، فقالت عائشة لَـمَّا خَرَجت: تُقْبِلُ عَلَى هذا العَجُوز هذا الإقبال؟! فقال: «**إنَّها كانت تأتينا أيَّام زمَان خَديجة، وإن حُسْنَ العهدِ من الإيمان**» (٢).

وفي «صحيح مُسلم» عن عَائِشة رَضِيَ الله عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ قَالَ: «**أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ**». قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**».

عباد الله...

أرأيتم وفاءً يداني هذا الوفاء؟

ما أجمل الحياة في ظِلِّ الإسلام.

فأين هذا الوفاء في الدُّنْيَا اليوم؟

لقد انتشرت الخيانة، ومات الوفاء في كثير من البيوت، والحديث عن هذا أشهر من أن يُذكر.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٧، ١١٨)، ومجالد ضعيف، وباقي رجاله ثقات.

(٢) رواه الحاكم، والبيهقيّ في «شُعب الإيمان».

ومن صور الوفاء: الوفاء بين الأصحاب:

الوفاء بين الإخوة الذين التقوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى محبة الله تَعَالى.

قَالَ أبو حامد الغزالي - رَحِمَهُ الله - فِي «الإحياء»: «وكانَ فِي السَّلف مَن يَتفَقد عِيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويُموّنهم من ماله، فَكَانوا لا يفتقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه ما لم يَرَوْا مِن أبيهم في حياته». ا.هـ.

وقال أيضًا: «وكان محمد بن يُوسف الأصفهاني يقول: وأين مِثل الأخ الصَّالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت، وهو مُنْفِردٌ بِحُزنك، مُهتمٌّ بما قَدّمت وما صِرت إليه، يَدعُو لك في ظُلمة الليل وأنت تحت أطباق الثَّرى». ا.هـ[١].

عباد الله...

والوفاء لم يقتصرّ عَلَى الآنَاسيّ، بل رأيناه وسمعنا عنه في الحيوان والطَّير، اسمعوا:

قَالَ ابن كثير عن أبو القاسم القشيريّ: كان يعظ النَّاس، تُوفِّي بِنَيْسَابور عن سبعين سنة، ودُفن إلى جانب شيخه أبي عليّ الدقاق، وكان له فرسٌ يركبها قَدْ أُهديت له، فلما تُوفِّي لم تأكل علف حَتَّى نفقت بعده بيسير، فماتت. ا.هـ.

وقال الذهبي: وقال المؤيد في «تاريخه»: أُهدى للشيخ أبي القاسم فرسٌ، فركبه نحوًا من عشرين سنة، فلما مات الشيخ لم يأكل الفرسُ شَيئًا، ومات بعد أسبوع. ا.هـ[٢].

وهذه قصّة عجيبة أيضًا:

قَالَ الحافظ أبو نُعيم - رَحِمَهُ الله -: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، قال: أتيت أبا منصور أعوده، فقال لي: بات سفيان - يعني الثوري[٣] - في هذا البيت، وكان ههنا بلبل لابني، فقال: ما بال هذا الطير

(١) «الإحياء» (٢/ ١٨٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٢٩).

(٣) شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ، وأمير المؤمنين في الحديث.

محبوس؟ لو خلَّى عنه، فقلت: هو لابني وهو يهبه لك، قَالَ: فقال: لا، ولكنى أعطيه دينارًا، قال: فأخذه فخلَّى عنه، فكان يذهب فيرعى فيجيء بالعشي فيكون في ناحية البيت، فلما مات سُفيان تَبع جَنَازته، فَكَانَ يضطرب على قبره.

ثُمَّ اختلف بعد ذلك ليالي إلى قبره فكان ربما بات عليه وربما رجع إلى البيت، ثُمَّ وَجَدُوه ميتًا عِنْد قَبْرِهِ، فَدُفن معه في القَبر أو إلى جَنْبِهِ[1].

عباد الله...

هَذِهِ بعض صور الوفاء، فلنأخذ منها عظة وعبرة، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة ما تقدَّم: فللوفاء فوائد، منها:

١- مَنْ أوْفَى بِعَهدِ الله مِنْ تَوحِيدهِ وإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لَهُ، أَوْفَى الله بِعهدِهِ مِن تَوفِيقهِ إلى الطَّاعاتِ وأسْبَابِ العِبَاداتِ.

٢- الذِين يُوفُونَ بِعهدِ الله هُم أُولُو الألبَابِ وهُم الذين بَاعُو أنْفُسهم وأموَالَهُم لله فَوَعدهُم أنَّ لَهُم الجَنَّة، ومَن أوفَى بعهدِهِ مِن الله؟!

٣- مَدَحَ الله المُوفِينَ بِعُهودِهِم كَثِيرًا في القُرآنِ.

٤- الوَفَاءُ صِفَةٌ أَسَاسِيَّةٌ في بِنيةِ المُجتَمَع الإسْلاميِّ، حَيثُ تَشْمَلُ سَائِرَ المُعامَلاتِ، إذْ كُلُّ المُعَامَلاتِ والعلاقَاتِ الاجتمَاعِيَّة والوُعُود والعُهُودِ تَتوقَّفُ عَلَى الوفَاءِ، فإذَا انْعَدَم الوَفَاءُ انْعَدَمَت الثِّقةُ، وسَاءَ التَّعَامُلُ وسَادَ التَّنَافُر.

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٥٨).

٥- مِنْ أهمِّ الوَفَاءِ، الوَفَاءُ بالعُهُودِ مِنْ بَيْعَةٍ وبَيْعٍ ودَيْنٍ ونَذْرٍ وشُرُوطٍ تتَعَلَّقُ بِالْمُعَامَلَاتِ المالِيَّةِ والاجتِمَاعِيَّةِ.

٦- الْمُسلمُ الْمُتمسِّكُ بالوَفَاءِ في كُلِّ أحوالِهِ يَجِدُ في نَفْسِهِ سَعَادَةً عَظِيمةً عِنْدَمَا يُوَفِّي حُقُوق الله عَزَّ وَجَلَّ كامِلةً، وحُقُوقَ إخوانِهِ الْمُسلمِينَ، ولا يَنْسَى حَقَّ أهلِهِ ونَفْسِهِ عَلَيهِ فَيُعطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

اللَّهُمَّ يا ذا الحَبلِ الشَّديد، والأمرِ الرَّشيد، أسأَلُك الأمْنَ يَوْمَ الوعيد، والجَنَّة يَوْمَ الخُلود مع المقرَّبين الشهود، الرُّكَّع السُّجود، الْمُوفِين بالعهُود، إنَّك رحيمٌ وَدودٌ، تفعلُ ما تُريد.

آمين... آمين... آمين

۞۞۞۞۞

الخطبة التاسعة عشر بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة أم حَرَام بنت مِلحَان

[أ] الرّؤى والأحلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكِ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَحُبّ الاستشهَاد، والمَوت في سَبيل الله لم يَقتصِر عَلَى الصَّالحين مِن عِباد الله، بل تَعدَّاهُ إلى الصَّالحات.

قَالت أُمّ حرام بِنت مِلحَان رَضِي الله عَنْهَا[1]: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِلاً فِي بَيْتِي إِذِ

(١) هي أُم حرام بنت ملحان الأنصاريّة، أُخت أُم سُليم، وخالة أنس بن مالك، وزوجها عبادة بن الصامت.

اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُضْحِكُكَ؟ فَقَالَ: «**عُرِضَ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ ظَهْرَ هَذَا البَحْرِ كَالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ**»، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ**».

ثُمَّ نَامَ أَيْضاً فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي مَا يُضْحِكُكَ؟ قَالَ: «**عُرِضَ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ هَذَا البَحْرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ**». فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «**أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ**».

فَغَزَتْ مَعَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ – وَكَانَ زَوْجَهَا – فَوَقَصَتْهَا بَغْلَةٌ لَهَا شَهْبَاءُ فَوَقَعَتْ فَمَاتَتْ[١].

قَالَ الإمام النووي – رَحِمَهُ الله – في شرحه لهذا الحديث: قولها «إِذِ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ» هذا الضحك فَرحًا وسُرورًا بكون أُمّته تَبْقَى بَعده متظاهرة بأمور الاسلام قائمة بالجهاد حتى في البحر.

قَولُهُ ﷺ: «**كَالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ**» قِيل: هو صفة لهم فى الآخرة إذا دخلوا الجَنَّة والأصح أَنَّهُ صفة لهم فى الدُّنْيَا، أى: يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم واستقامة أمرهم وكثرة عددهم.

قولها فى المرة الثانية: «ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ» وكان دعا لها فى الأولى، قَالَ: «**أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ**» هذا دليلٌ عَلَى أن رُؤياه الثانية غير الأولى، وأنه عرض فيها غير الأولين.

وفي الحديث معجزات للنبى ﷺ:

منها: إخباره ببقاء أُمّته بعده، وأَنَّهُ تَكُون لَهُم شَوْكَة وقُوّة وعدد وأنهم يَغْزُون، وأنهم يَركَبُون البحر، وأنَّ أُمّ حَرَام تَعِيش إلى ذَلِكَ الزَّمان، وأَنَّها تَكُون معهم، وقَدْ وجد بحمد الله تعالى كل ذَلِكَ.

وفيه فضيلة لتلك الجيوش وأنهم غُزَاة فى سبيل الله.

واختلف العلماء: متى جَرَت الغَزوة التى تُوفّيت فيها أُمّ حرام فى البحر؟

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٤٥) حديث رقم (٧٠٢)، ومسلم (١٩١٢).

وقَدْ ذَكَرَ فى هذه الرواية فى «مُسلم» أنَّها رَكَبَت البحر فى زَمان مُعاوية[(١)] فَصُرعت عَنْ دَابتها فَهَلَكت.

قال القاضي: قَالَ أكثر أهل السِّير والأَخْبَار: أنَّ ذَلِكَ كَانَ فى خِلافة عُثمان بن عفَّان رَضِيَ الله عَنْهُ، وأنَّ فيها رَكبت أُمّ حرام وزَوجَها إلى قُبْرص فَصُرعت عَن دابتها هُناك، فَتُوفِّيت ودُفِنَت هُنَاك، وعلى هذا يكون قوله: (فى زمان معاوية) معناه: فى زمان غزوة فى البحر لا فى أيام خلافته، قَالَ: وقيل: بل كان ذلك فى خلافته، قَالَ: وهو أظهر فى دلالة قوله: (فى زمانه).

وفى هذا الحديث: جواز ركوب البحر للرجال والنساء، وكذا قاله الجمهور، وكره مالك ركوبه للنساء لأنه لا يمكنهنَّ غالبًا التستر فيه، ولا غضّ البصر عن المتصرّفين فيه، ولا يُؤْمَن انكشاف عوراتهن فى تصرفهن، مع ضرورتهن إلى قضاء الحاجة بحضرة الرجال[(٢)].

واستدلّ بعض العلماء بهذا الحديث عَلَى أنَّ القِتال في سَبيل الله تَعَالى والموت فيه سواء في الأجر، لأن أُمّ حرام ماتت ولم تقتل، ولا دلالة فيه لِذَلِكَ، لأنه ﷺ لم يقل: إنَّهُم شُهداء، إنَّما يغزون في سبيل الله، ولكن قَدْ ذكر مسلم في الحديث الذي بعد هذا بقليلٍ حديث زهير بن حرب من رواية أبي هريرة: «**مَنْ قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

وهو موافقٌ لمعنى قول الله تَعَالى: ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [النساء: ١٠٠]. ا.هـ[(٣)].

عباد الله...

وقَدْ تكلَّمنا في غير هذا الموطن عن الجِهاد في سبيل الله، والترغيب في الاستشهاد بما يُغني عن الإعادة. وبقي الحديث عن الرؤيا.

---

(١) ابن أبي سفيان رضي الله عنهما.
(٢) الآن لهنَّ دورات مياه خاصَّة بهنَّ، كما هو معلوم.
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥١ - ٥٣).

والرؤى والأحلام من القضايا التي شغلت بَالَ كثيرٍ من النَّاس، خصوصًا في هذا العصر، وتصدَّى لتأويلها كثيرٌ من الجَهلة الذين لا يعرفون كوعهم من بوعهم، فتراهم يهرفون بما لا يعرفون، مِمَّا أوقع الكثير مِمَّن دخلوا في دوامة الفراغ في حيرة، وتشاؤم، وخوف مِمَّا تحمله الأيام والليالي من مصائب وفتن ومحن وإحن.

وربَّما أوّل الجَاهِلُ رؤيا غير تأويلها لفاجرٍ، أو ظالمٍ، فخرج من عنده أبو بعد سماعه تأويل رؤياه وكأنَّهُ مِن عباد الله الصَّالحين وأوليائه المتقين.

فَليَتَّقِ كُلُّ إنسان مِنَّا ربَّه، ويقف عند حدود ما يعلم، قَالَ الله تَعَالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

هذا؛ وقَدْ بيَّن النبيُّ ﷺ آدابًا للرؤى، ينبغي عَلَى كل مسلم معرفتها لأهميتها:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا** - وفي رواية: **فَلا يُحدث بها إلَّا من يُحب** - **وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلاَ يَذْكُرْهَا لأَحَدٍ، فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ**» [١].

وهناك روايات ذكرت آدابًا أخرى، منها:

١- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفِثْ**[٢] **عَنْ شِمَالِهِ ثَلاَثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ**» [٣].

٢- عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاَثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلاَثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ**» [٤].

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) النَّفث: نفخ لطيف لا ريق معه.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.

وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ» (١).

فحاصل ما ذُكر من آداب الرؤيا المكروهة ستّة أشياء:

١- الاستعاذة بالله من شَرِّها، وهي مشروعة عند كُلّ أمر يكرهه المؤمن.

٢- الاستعاذة بالله من الشيطان، لأنها منه، وأَنَّهُ يُخيّل بها لقصد تحزين الآدمي والتهويل عليه.

٣- النَّفث عن اليسار أَوْ التّفل(٢)، كما في الرواية، طردًا للشيطان الذي حضر الرؤيا المكروهة وتحقيرًا واستقذارًا، وخُصّت به اليسار لأنها محلّ الأقذار ونحوها، والتثليث للتأكيد.

٤- التحولّ عن الجنب الذي كان النائم عليه، ولعلّ هذا للتفاؤل بتحوّل تلك الحال التي كان عليها، والله أعلم.

٥- الصَّلاة، لِما فيها من التوجّه إلى الله واللجوء إليه، ولأن في التحريم بها عصمة من الأسواء، وبها تكمل الرغبة، وتصحّ الطُّلبة، لقرب المصلِّي من ربّه عند سجوده.

٦- أَلّا يُحَدِّث بها أحدًا، ولا يُفسِّرها لنفسه لأن الرؤيا تقع عَلَى ما تُعَبَّر به، ولكن لا تُحدث تأثيرًا في النفوس(٣).

فعَن أنسٍ، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ الرُّؤيا تَقَع عَلَى ما تُعَبّر، ومثل ذَلِكَ رَجُلٌ رَفَعَ رِجْلَه فهو ينتظر متى يَضعها، فإذا رأى أحدُكم رؤيا فلا يُحدّث بها إلّا ناصحًا أَوْ عالِمًا**» (٤).

عَنْ أَبِي رَزِينٍ العقيلي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فَإِذَا**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) **التّفل**: نفخ معه ريق لطيف.

(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٣٨٧ - ٣٨٩) بتصرف.

(٤) **صحيح**: رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٢٠).

عُبِّرَتْ وَقَعَتْ» (١).

هذه الأحاديث صريحة بأن الرؤيا تقع عَلَى ما تفسّر به، ويمكن أن يُقال: إن الله إذا قدَّر أن تقع الرؤيا فإنه سُبْحَانَهُ يقدّر للعابر أن يفسّرها عَلَى وِفْقَ ما ستقع.

الكَذِب في الرُّؤيا من الكبائر:

عَنْ وَاثِلَةَ بْنَ الأَسْقَعِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الفِرَى أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ**» (٢).

الفِرَى: جمع فرية، وهي الكذبة. **يَدَّعِيَ**: ينتسب إلى غير أبيه. **يُرِيَ عَيْنَهُ**: يكذب فيما يدَّعي أن عينه رأته.

والحديث يفيد: أن الانتساب إلى غير الأب كَبيرةٌ، لأن فيها تضييعًا للأنساب وإدخالًا عَلَى الأُسر ما ليس منها، وهذا يترتب عليه محاذير شرعية كثيرة.

وأن الكذب في الرؤيا كَبيرةٌ، لأنه كذب عَلَى الله في أَنَّهُ أراه كذا وهو لم ير ما يقول، بخلاف الكذب في اليقظة فإنه كذب عَلَى المخلوق، فهو إن كان حرامًا لكنه دون الكذب عَلَى الله.

وأن الكذب عَلَى رَسُول الله ﷺ كَبيرةٌ أيضًا، لما يترتب عَلَى ذَلِكَ من تضليل النَّاس في الدِّين (٣).

رُؤيا النَّبيّ ﷺ في المنام حَقّ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَسَيَرَانِى فِى الْيَقَظَةِ - أَوْ لَكَأَنَّمَا رَآنِى فِى الْيَقَظَةِ - لاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِى**» (٤).

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ومعنى «رِجلِ طائر» أي: أنها عَلَى رجل قَدَر جَار، وقَضَاء مَاض مِن خير أَوْ شرّ، وأن ذَلِكَ هو الذي قسمه الله لصاحبها.

(٢) رواه البخاري.

(٣) «الرؤيا وما يتعلق بها» (ص١٣)، لجماعة من العلماء.

(٤) رواه مسلم.

ومعنى الحديث: أنَّ مَن رأى النَّبيّ ﷺ في المنام فسوف يراه في اليقظة يوم القيامة، وهذا تبشير لصاحب الرؤيا، أَوْ فكأنما رآه في اليقظة، وهذا تبشير يدلُّ عَلَى إكرام صاحب هذه الرؤيا، ولا يرى رَسُول الله ﷺ في المنام إلَّا من كان في قلبه حُبّ له والتزام لهداه.

إنَّ رؤيا الرسول ﷺ في المنام حق، وليس من قبيل الأضغاث، لأن الشيطان لا يتخيّل للإنسان بشكل النَّبيّ ﷺ .

وهذا من خصوصياته ﷺ عَلَى الأصح، فاللَّهُمَّ أكرمنا برؤياه.

هذا، واعلموا - عباد الله - أن رؤيا الأنبياء وَحْي، كما ذكر علماؤنا من السَّلف الكرام، وإليكم هذه الرُّؤيا المناميّة التي رآها النَّبيُّ وقصّها علينا:

عَنْ سَمُرَةَ بْنُ جُنْدَبِ الفَزَارِيُّ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكثِرُ أَنْ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا**». قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ. وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي**[1] **وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ بِهَا رَأْسَهُ**[2] **فَيَتَدَهْدَهُ**[3] **الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ يَأْخُذُهُ فَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى.**

قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟

قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ، قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ الأَوَّلُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَل بِهِ المَرَّةَ الأُولَى.

---

(١) **ابتعثاني**: أنهضاني لأنطلق معهما.

(٢) **يثلغ رأسه**: يشجها، أي: يكثرها.

(٣) **يتدهده الحجر**: يتدحرج.

قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟

قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ – قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسَبُ أَنَّهُ قَالَ: وَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ.

قَالَ: فَاطَّلَعْتُ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهِيبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا(١).

قَالَ: قُلْتُ: مَا هَؤُلاَءِ؟

قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ – حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ – وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ يَسْبَحُ، وإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهرِ رَجُلٌ قَدْ جَمعَ عِنْدَهُ حِجَارةً كَثيرةً، وإِذَا ذَلِكَ السَّابحُ يَسبحُ مَا يَسبحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِى قَدْ جَمَعَ الحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ(٢) لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَراً حَجَراً، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ وَأَلْقَمَهُ حَجَراً.

قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا؟

قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْت رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، فَإِذَا هُوَ عِنْدَ نَارٍ لَهُ يَحُشُّهَا(٣) وَيَسْعَى حَوْلَهَا.

قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟

قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْشِبَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ. وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَانَي

---

(١) ضوضوا: الضَّوضَى – مَقصُورًا الجَلَبَةُ وأصوات النَّاس لغة في المهموزة – يعني الضوضاء – ورجل مضوّض: مُصوِّت.

(٢) يفغر فاه: يفتحه.

(٣) يحشها: يرقدها.

الرَّوْضَةِ رَجُلٌ قَائِمٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَنْ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِى السَّمَاءِ وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ وَأَحْسَنِهِ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلاَءِ؟

قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ. قَالَ: فَقَالاَ لِيَ: ارْقَ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْتُ إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالاً شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ.

قَالَ: فَقَالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِى ذَلِكَ النَّهَرِ، فَإِذَا نَهَرٌ صَغِيرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِى كَأَنَّمَا هُوَ الْمَحْضُ فِى الْبَيَاضِ.

قَالَ: فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ وَصَارُوا فِى أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالَ: فَقَالاَ لِى: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا بَصَرِى صُعُداً فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ قَالاَ لِى: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ذَرَانِى فَلأَدْخُلُهُ.

قَالَ: قَالاَ لِيَ: الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قَالَ: فَإِنِّى رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً فَمَا هَذَا الَّذِى رَأَيْتُ؟

قَالَ: قَالاَ لِى: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِى أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِى أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَيْهِ إِلَى قَفَاهُ وَمِنْخَرَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذِبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِى بِنَاءٍ مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِى.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِى يَسْبَحُ فِى النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحِجَارَةَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الَّذِى عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِى رَأَيْتَ فِى الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأَمَّا الوِلْدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ».

قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ وَأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانَ شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَناً وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحاً فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُم»(١).

عباد الله...

هذه رؤيا حق، رآها النَّبيُّ ﷺ في منامه، وهي كما سمعتم تُبيِّن شيئًا من عقوبات العُصاة، ثم تُبيِّن حال مَن مات من الأطفال، وفي هذا راحة للمحزون، وتبريد لأكباد مَن فقدوا أولادهم صِغارًا.

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد وصف رَبّنا – تبارك وتعالى – أولياء الله بصفات.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ﴿لَهُمُ البُشْرَى فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ﴾. قَالَ: «هِىَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).

(٢) صحيح بمجموع طرقه: أورده ابن كثير من عدّة طرق.

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: وأمَّا بُشراهم في الآخرة فكما قال تَعَالى: ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقال تَعَالى: ﴿يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالـمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]. ا.هـ[(١)].

وللحديث بقيّة، إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٦).

الخطبة العشرون بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة أُم حرام بنت ملحان

[ب] الرؤى والأحلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث - إن شاء الله تَعَالَى - عن **الرؤى والأحلام**، والفرق بينهما.

والله الموفّق لما يُحبُّ ويَرضى.

عباد الله...

أما رُؤيا المؤمن، فقد وردت أحاديث تُبيِّن درجاتها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا**

الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ» (١).

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**» (٢).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**» (٣).

قَالَ القرطبيّ في «المفهم» عقب هَذِهِ الأحاديث:

قوله: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ**»، قيل في اقتراب الزمان قولان:

أحدهما: تقارب الليل والنهار في الاعتدال، وهو الزمان الذي تتفتق فيه الأزهار، وتينع فيه الثمار، وموجب صدق الرؤيا في ذلك الزمان اعتدال الأمزجة فيه؛ فلا يكون في المنام أضغاث الأحلام، فإنَّ من موجبات التخليط فيها غلبة بعض الأخلاط على صاحبها.

وثانيهما: أن المراد بذلك: آخر الزمان المقارب للقيامة. وقد روي عن النبي ﷺ من طريق معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**فِي آخِرِ الزَّمَانِ لاَ تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ**» (٤).

قلت: ويعني - والله أعلم - بآخر الزمان المذكور في هذا الحديث: زمان الطائفة الباقية مع عيسى عليه السلام بعد قتله الدجال المذكور في حديث عبد الله بن عمرو الذي قال فيه: «**فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٦٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٦٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٢٩١).

يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ، فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ» (١)، فكان أهل هذا الزمان أحسن هذه الأمَّة بعد الصدر المتقدِّم حالاً، وأصدقهم أقوالاً، وكانت رؤياهم لا تكذب، كما قال ﷺ: «أَصْدَقُكُم رُؤْيا أَصْدَقُكُم حَدِيثًا»، وكما قال: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ».

وقوله: «لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ»؛ أي: لم تقارب الكذب.

وقوله: «أَصْدَقُكُم رُؤْيا أَصْدَقُكُم حَدِيثًا»؛ إنما كان ذلك لأنَّ: من كثر صدقه تنوَّر قلبه، وتقوي إدراكه، فانتقشت فيه المعاني على وجه الصِّحة والاستقامة، وأيضًا فإن من كان غالبُ حاله الصدق في يقظته استصحب ذلك في نومه، فلا يرى إلا صادقًا. وعكس ذلك: الكاذب والمُخلِّط يَفسد قلبه، ويُظلم، فلا يرى إلا تخليطًا وأضغاثًا، هذا غالب حال كل واحد من الفريقين، وقد يندرُ فيرى الصادقُ ما لا يصح، ويرى الكاذب ما يصح، لكن ذلك قليل، والأصل ما ذكرناه.

وقوله: «وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»، وفي حديث عبادة: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»، وفي رواية عن أبي هريرة: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»، وفي أخرى عنه: «الرُّؤيا الصَّالِحَة»، وفي رواية: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وفي حديث ابن عمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وفي غير كتاب مسلم عن ابن عباس: «جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ» (٢). وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «جُزْءٌ مِن سَبعة وأَرْبَعِين» (٣). وفي حديث العباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: «مِنْ خَمْسِين» (٤)، وعن أنس ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: «مِن سِتَّة وعِشْرين» (٥)، وعن عبادة بن الصامت ـ رَضِيَ الله

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٣٤٥٦).

(٣) انظر ما قبله.

(٤) انظر ما قبله.

(٥) انظر ما قبله.

عَنْهُ ـ: «مِنْ أَرْبَعة وأَرْبَعِين» (١).

قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصحُ عند أهل الحديث: «مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ». وحُكي عن بعض الناس: أَنَّهُ نزل هذا الحديث بهذه الرواية على مدة الوحي للنبي ﷺ، وذلك أنه ﷺ أقام يوحى إليه ثلاثًا وعشرين سنة، منها ستة أشهر يوحى إليه في نومه، وذلك في أول أمره. وقد اعترض عليه بأن هذه المدة لم يصحَّ نقل تحديدها، ولا هو معروف، فتقديره تحكُّم.

قلت: القدرُ الذي اختلف الرواة فيه من هذا الحديث أمران:

أحدهما: من أضيفت الرؤيا إليه، فتارة سُكِت عنه، وأخرى قيل فيه: المسلم، وفي أخرى: المؤمن، وفي أخرى: الصالح. وهذا الأمر: الخلاف فيه أهون من الخلاف في الأمر الثاني، وذلك: أنه حيث سكت عنه لم يضر السكوت عنه، مع العلم بأن الرؤيا مضافة إلى راءٍ ما، فإذا صرح به في موضع آخر فهو المعنى، وأما حيث نطق به فالمراد به واحد وإن اختلفت الألفاظ. وذلك أن الرؤيا لا تكون من أجزاء النبوة إلا إذا وقعت من مسلم صادق صالح، وهو الذي يناسب حاله حال النبي ﷺ فكرم بنوع مما أكرم به الأنبياء عليهم السلام، وهو الاطلاع على شيء من علم الغيب، كما قال ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ» (٢)، فإنَّ الكافر، والكاذب، والمخلِّط صدقت وإن رؤياهم في بعض الأوقات، لا تكون من الوحي، ولا من النبي ﷺ؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة. وقد قدَّمنا: أن الكاهن يخبر بكلمة الحق، وكذلك المنجم قد يحدِس (٣) فيصدق، لكن على الندور والقلَّة. وكذلك: الكافر، والفاسق، والكاذب. وقد يرى المنام الحق، ويكون ذلك المنام سببًا في شرٍّ يلحقه، أو أمرٍ يناله. إلى غير ذلك من الوجوه المعتبرة المقصودة به. وقد وقعت لبعض الكفار منامات صحيحة صادقة؛ كمنام الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ومنام عاتكة عمَّة رسول الله ﷺ وهي كافرة، ونحوه

---

(١) انظر ما قبله.
(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).
(٣) أي: يخمِّن.

كثير، لكن ذلك قليل بالنسبة إلى مناماتهم المخلطة والفاسدة، فهذا هو الأمر الأول.

وأما الأمر الثاني: وهو اختلاف عدد أجزاء النبوة التي جعلت رؤيا الرجل الصالح واحدًا منها: فاختلفت الرواية فيه من ستة وعشرين إلى سبعين، كما قد ذكرناه، وأكثرها في الصحيحين، وكلها مشهور فلا سبيل إلى أخذ أحدها، وطرح الباقي، كما قد فعل أبو عبدالله المازري، فإنَّه قد يكون بعض ما ترك أولى مما قبل إذا بحثنا عن رجال أسانيدها، ولما ترجَّح عند غيره غير ما اختاره هو، فإذًا: الوجه الذي يتعيَّن المصير إليه أن يقال: إن هذه الأحاديث - وإن اختلفت ألفاظها - متفقة على أن الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من أجزاء النبوة. فهذه شهادة صحيحة من النبي ﷺ لها بأنها وحي من الله تعالى، وأنها صادقة لا كذب فيها. ولذلك قال مالك وقد قيل له: أيفسر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أيلعب بالوحي؟!. وإذا كانت هكذا فتعيَّن على الرائي أن يعتني بها، ويسعى في تفهُّمها، ومعرفة تأويلها، فإنَّها إما مبشرة له بخير، أو محذرة له من شر، فإنَّ أدرك تأويلها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهليَّة ذلك، وهو اللبيب الحبيب. ولذلك كان النبي ﷺ يقول إذا أصبح: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ**». فكانوا يقصُّون عليه، ويَعْبُرُ. وقد سلك أصحابه ذلك المسلك في حياته، وبعد وفاته، وقد كان يقتبس الأحكام من منامات أصحابه، كما فعل في رؤيا الأذان، وفي رؤيا ليلة القدر(١). وكل ذلك بناءً على أنها وحي صحيح. وإذا تقرَّر هذا فلا يضرنا الاضطراب الذي وقع في عدد تلك الأجزاء مع حصول المقصود من الخير؛ غير أن علماءنا قد راموا إزالة ذلك الاضطراب، وتأوَّلوه تأويلات، فلنذكرها، وننبه على الأقرب منها؛ وهي أربع:

الأول: ما صار إليه أبو عبد الله. وقد ذكرناه، وما ورد عليه.

والثاني: أن المراد بهذا الحديث: أن المنام الصادق خصَّلة من خصال النبوة. كما جاء في الحديث الآخر: «**التُّؤَدَةُ وَحُسْنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»(٢)؛ أي: النبوة مجموع خصال مبلغ أجزائها ستة وعشرون، هذه الثلاثة الأشياء جزء واحدٌ منها، وعلى مقتضى هذه التجزئة: كل جزء من الستة والعشرين ثلاثة أشياء في نفسه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).

(٢) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠١٠) بلفظ: «**جزء من أربعة وعشرين**».

فإذا ضربنا ثلاثة في ستة وعشرين صحَّ لنا أن عدد خصال النبوة من حيث آحادها ثمانية وسبعون. ويصحُّ أن يسمَّى كل اثنين من الثمانية والسبعين جزءًا وخصلة، فيكون جميعها بهذا الاعتبار تسعة وثلاثين جزءًا، ويصحُّ أن يسمَّى كل أربعة منها جزءًا، فيكون مجموع أجزائها بهذا الاعتبار تسعة عشر جزءًا ونصف جزء، فتختلف أسماء العدد المجزَّأ بحسب اختلاف اعتبار الأجزاء، وعلى هذا: فلا يكون اختلاف أعداد أجزاء النبوَّة في أحاديث الرؤيا المذكورة اضطرابًا؛ وإنَّما هو اختلاف اعتبار مقادير تلك الأجزاء المذكورة. والله تعالى أعلم.

الثالث: ما أشار إليه الطبري، وهو: أن هذا الاختلاف راجعٌ إلى اختلاف حال الرائي. فالمؤمن الصَّالح تكون نسبة رؤياه من ستة وأربعين، وغيرُ الصالح من سبعين، ولهذا لم يشترط في رواية السَّبعين في وصف الرائي ما اشترطه في وصفه في رواية: «**سِتَّة وأَرْبعِين**»، فإنَّه شرط فيها الصَّلاح في الرائي، وسكت عن اشتراطه في رواية السبعين.

قلت: وهذا فيه بُعدٌ؛ لما قدَّمناه من صحَّة احتمال حمل مطلق الرِّوايات على مقيدها، وبما قد روي عن ابن عباس: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ أربعين**» [(١)]. وسكت فيه عن ذكر وصف الرائي. وكذلك حديث عبدالله بن عمرو حين ذكر سبعة وأربعين. وحديث العبَّاس حين ذكر خمسين.

الرابع: قيل: يحتمل أن تكون هذه التجزئة في طرق الوحي؛ إذ منه ما سُمِع من الله تعالى دون واسطة، كما قال تعالى: ﴿ **مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ومنه بواسطة الملك، كما قال: ﴿ **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ﴾ [الشورى: ٥١]، ومنه ما يُلقى في القلب، كما قال: ﴿ **إِلَّا وَحْيًا** ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: إلهامًا، ثمَّ منه ما يأتيه الملك على صورته، ومنه ما يأتيه على صورة آدمي يعرفه، ومنه ما يتلقاه منه وهو لا يعرفه، ومنه ما يأتيه في مثل صلصلة الجُرس، ومنه ما يسمعه من المَلَكِ قولاً مُفصَّلاً، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانت تختلف على النبي ﷺ في الوحي وحالاته المختلفة، فتكون تلك الحالات إذا عُدِّدت غايتها انتهت إلى سبعين.

---

(١) **صحيح**: من حديث رَزِين عند الترمذي، وانظر (٣٤٥٦).

قُلتُ: ولا يخفى ما في هذا الوجه من البُعد والتساهل؛ فإنَّ تلك الأعداد كلها إنما هي أجزاء النبوَّة وأكثر هذه الأحوال التي ذكرت هنا ليست من النبوة في شيء؛ ككونه يعرف الملك، أو لا يعرفه، أو يأتيه على صورته، أو على غير صورته، ثمَّ مع هذا التكلف العظيم لم يقدر أن يبلغ عدد ما ذكر إلى ثلاثين.

قلت: وأشبه ما ذكر في ذلك: الوجه الثاني؛ مع أنَّه لم تَثْلَجُ النفسُ به، ولا طاب لها. وقد ظهر لي وجة خامس - وأنا أستخير الله في ذكره - وهو: أن النبوَّة معناها: أن يُطلع الله من يشاء من خلقه على ما يشاء من أحكامه ووحيه: إما بالمشافهة، وإما بواسطة ملك، أو بإلقاء في القلب، لكن هذا المعنى المسمَّى بالنبوَّة لا يخلق الله به إلا من خصَّه بصفات كمال نوعه من المعارف، والعلوم، والفضائل، والآداب، ونزهه عن نقائص ذلك. ولذلك قال سبحانه: ﴿ اللَّـهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى لَـمَّا ذكر الأنبياء: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فقد حصل من هذا: أن النبوَّة لم يخلق الله بها إلا أكمل خلقه، وأبعدهم عن النقائص. ثم: إنه لما شرفهم بالنبوَّة حصلت لهم بذلك على جميع نوعهم الخصوصية، فلما كانت النبوَّة لا يخلق الله بها إلا من حصلت له خصال الكمال أطلق على تلك الخصال: نبوة، كما قال ﷺ: «التُّؤَدَةُ وَحُسْنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»؛ أي: من خصال الأنبياء، لكن الأنبياء في هذه الخصال متفاضلون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فتفاضلهم بحسب ما وُهِبَ لكلِّ واحد منهم من تلك الصفات، وشرِّف به من تلك الحالات، وكل منهم الصدق أعظم صفته في نومه ويقظته، وكانوا تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، فنائمهم يقظان، ووحيهم في النوم واليقظة سيَّان؛ فمن ناسبَهُم في الصِّدق حصل من رؤياه على الحق؛ غير أنه لما كان الأنبياء في مقاماتهم وأحوالهم متفاضلين، وكان كذلك أتباعهم من الصَّادقين، وكان أقل خصال كمال الأنبياء ما إذا اعتُبر كان ستًّا وعشرين جزءًا، وأكثر ما يكون ذلك سبعين، وبين العددين مراتب مختلفة بحسب ما اختلفت ألفاظ تلك الأحاديث.

وعلى هذا: فمن كان من غير الأنبياء في صلاحه وصدقه على رتبة تناسب كمال نبيٍّ من الأنبياء، كانت رؤياه جزءًا من نبوة ذلك النبي، وكمالاتهم متفاضلة كما قرَّرناه، فنسبة أجزاء منامات الصَّادقين متفاوتة على ما فصلناه. وبهذا الذي أظهر لنا يرتفع الاضطراب. والله تعالى الموفق للصَّواب.

وقوله: «**وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ**»؛ أي: مُبشرة بخير، ومحذرة عن شرٍّ، فإن التحذير عن الشرِّ خيرٌ، فتتضمَّنه البشرى. وإنَّما قلنا ذلك هنا لأنَّه قد قال في حديث الترمذي المتقدِّم: «**وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ**» مكان: «**بُشْرَى مِنَ اللَّهِ**»، فأراد بذلك - والله أعلم - الرؤيا الصادقة المبشِّرة والمحذِّرة.

وقوله: «**وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ**»؛ ويلحق بالرؤيا المحزنة المفزعات، والمهوِّلات، وأضغاث الأحلام؛ إذ كل ذلك مذموم؛ لأنها من آثار الشيطان، وكل ما ينسب إليه مذموم.

وقوله: «**وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ**»؛ يدخل فيه ما يلازمه المرء في يقظته من الأعمال، والعلوم، والأقوال، وما يقوله الأطباء: من أن الرؤيا تكون عن خلطٍ غالب على الرائي، فيرى في نومه ما يناسب ذلك الخلط؛ فمن يغلب عليه البلغم رأى الشباحة في الماء وما أشبهه، لمناسبة الماء طبيعة البلغم. ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود في الارتفاع؛ لمناسبة النَّار في الطبيعة طبيعة الصفراء. وهكذا يقولون في بقية الأخلاط، ونحن ننازعهم في موضعين:

أحدهما: في أصل تأثير الطبيعة؛ فإنَّ قالوا: إن الطبيعة سببٌ عادي، والله تعالى هو الفاعل بالحقيقة. وهو مذهب المسلمين؛ فهو الحق. وإن قالوا: إن الطبيعة تفعل ذلك بذاتها؛ حكمنا بتكفيرهم، وانتقل الكلام إلى علم الكلام.

والثاني: أن من أراد منهم أن الرؤيا لا تكون إلا عن الأخلاط؛ فهو باطل بما قد ثبت عن الصادق فيما ذكرناه من الأحاديث: أن الرؤيا منها ما يكون من الله، وهي المبشرة، والمحذرة. وهذا من باب الخير، وليس في قوة الطبيعة أن تطلع على الغيب بالإخبار عن أمور مستقبلة تقع في المستقبل على نحو ما اقتضته الرؤيا بالاتفاق بين العقلاء. ومن أراد منهم: أن الأخلاط قد تكون سببًا لبعض المنامات، فقد يسلم ذلك على ما قرَّرناه، ثمَّ يبقى نظر آخر، وهو أنه لو كان ما قالوه صحيحًا للزم عليه ألا يرى

من غلب عليه خلط من تلك الأخلاط إلا ما يناسبه، ونحن نشاهد خلافه، فيرى البلغمي النيران، والصعود في الارتفاعات، وعكس ذلك في الصفراوي، فبطل ما قالوه بالمشاهدة، والله وليُّ المعاضدة. ا.هـ[1].

عباد الله...

وهناك فرق بين الرؤيا الصادقة مِن الله، والحُلم الذي هو من الشيطان، والفَرق سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قوله: «**الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ...**» الحديث[2]؛ الرؤيا: مصدر رأى في المنام رؤيا، على وزن فعلى، وألفه للتأنيث؛ ولذلك لم ينصرف. والرؤية: مصدر رأى بعينه في اليقظة رؤية. هذا المعروف من لسان العرب، وقال بعض العلماء: إن الرؤيا قد تجيء بمعنى الرؤية؛ وحمل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: إنما يعني بها رؤية النبي ﷺ في الإسراء لما أراه الله من عجائب السموات والملكوت، وكان الإسراء من أوله إلى آخره في اليقظة. وقد ذكرنا هذا في باب الاسراء من كتاب: الإيمان.

والحُلْم - بضم الحاء، وسكون اللام - مصدر حَلَم- بفتح الحاء واللام -؛ إذا رأى في منامه رؤيا، ويُجمع على أحلام في القلَّة، وفي الكثرة حلوم؛ وإنَّما جمع وإن كان مصدرًا لاختلاف أنواعه، وهو في الأصل عبارة عما يراه الرائي في منامه حسنًا كان أو مكروهًا. وأراد به النبي ﷺ هنا ما يكره، وما لا ينتظم، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) «المفهم» (٦ - ٨ / ١٥).

(٢) رواه مسلم.

فأمَّا الحِلم - بكسر الحاء -، فهو مصدر حَلُمَ - بضم اللام- يَحْلُمُ: إذا صفح وتجاوز حتى صار له ذلك كالغريزة. وتحلَّم: تكثف الحلم. والحَلَم - بفتح الحاء - هو فساد الإهاب من الدباغ، وتثقيبه فيه. يقال منه: حَلِم الأديم- بكسر اللام - يحلم - بفتحها -: إذا صار كذلك.

وقد اختلف الناس في حقيقة الرؤيا قديمًا وحديثًا، فقال غير المتشرعين(١) أقوالاً مختلفة، وصاروا فيها إلى مذاهب مضطربة قد عَرِيت عن البرهان فأشبهت الهذيان. وسبب ذلك التخليط العظيم: الإعراض عما جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم.

ولبيان ذلك: أن حقيقة الرؤيا إنما هي من إدراكات النفس، وقد غُيِّب عنا علم حقيقتها. وإذا لم يعلم ذلك لعدم الطريق الموصل إليه؛ كان أحرى، وأولى ألا نعلم ما غيب عنا من إدراكاتها، بل نقول: إنا لا نعلم حقيقة كثير مِمَّا قَدْ انْكَشف لنا جملته من إدراكاتها، كحس السمع، والعين، والأذن، وغير ذلك، فإنا إنما نعلم منها أمورًا جملية، لا تفصيلية، وأوصافًا لازمة، أو عرضية، لا حقيقيَّة، وسبيل العاقل: ألا يطمع في معرفة ما لم يُنْصَب له عليه دليلٌ عقليٌّ، ولا حِسيٌّ، ولا مركبٌ منهما؛ إلا أن يخبر بذلك صادق، وهو الذي دلَّ الدليل القطعي على صدقه، وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإنَّهم دلت على صدقهم دلائلُ المعجزات(٢). وإذا كان كذلك: فسبيلنا أن نُعْرِض عن أحوال المعرضين، ونتشاغل بالبحث عن ذلك في كلام الشارع والمتشرعين.

قال الإمام أبو عبد الله(٣): المذهبُ الصحيحُ ما عليه أهل السُّنَّة؛ وهو: أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان. وهو تبارك اسمه يفعل ما يشاء، وما يمنعه من فعله نوم، ولا يقظة، وكأنه سبحانه جعل هذه الاعتقادات علمًا على أمور أخر يخلقها في ثاني حال، أو كان قد خلقها.

وقال غيره: إنَّ الله تَعَالَى مَلكًا مُوكَّلاً يعرِضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرك من النائم، فيمثِل له صُورًا محسوسة؛ فَتَارةً تكون تِلك الصُّورُ أمثلةً موافقةً لما يقع في الوجود،

(١) أي: من لا شريعة لهم.
(٢) دلائل صدق الأنبياء لا تنحصر في المعجزات، بل إن قرائن أحوالهم أيضًا تدل عَلَى صدقهم.
(٣) هو الإمام المازري -رَحِمَهُ الله- .

وتارةً تكون أمثلة لمعاني معقولةٍ غير محسوسةٍ. وفي الحالتين تكون مبشّرةً ومنذرةً.

قلتُ: وهذا مثل الأول في المعنى؛ غير أنه زاد فيه قضية المَلَك، ويحتاجُ في ذلك إلى توقيف من الشرع؛ إذ يجوز أن يخلق الله تعالى تلك التمثيلات من غير مَلَك.

وقيل: إن الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله إعلامًا على ما كان، أو يكون؛ وهو أشبهها.

فإنَّ قيل: كيف يقال: إن الرؤيا إدراك مع أن النوم ضد الإدراك؛ فإنه من الأضداد العامة، كالموت، فلا يجتمع معه إدراك؛ **فالجواب**: أن الجزء المدرك من النائم لم يحلَّه النوم، فلم يجتمع معه، فقد تكون العين نائمة، والقلب يقظان؛ كما قاله النبي ﷺ: «**إنَّ عَيْنيَّ تَنَامَان، ولا يَنَام قَلْبِي**»[(١)].

وإنما قال: منضبطة التخيل؛ لأنَّ الرائي لا يرى في منامه إلا من نوع ما أدركه في اليقظة بحسِّه، غير أنه قد تركب المتخيَّلات في النوم تركيبًا يحصل من مجموعها صورة لم يوجد لها مثال في الخارج، تكون علمًا على أمر نادر؛ كمن يرى في نومه موجودًا رأسه رأس الإنسان وجسده جسد الفرس مثلاً، وله جناحان، إلى غير ذلك مما يمكن من التركيبات التي لا يوجد مثلها في الوجود، وإن كانت آحادُ أجزائها في الوجود الخارجي. وإنَّما قال: جعلها الله إعلامًا على ما كان، أو يكون؛ لأنَّه يعني به: الرؤيا الصحيحة المنتظمة الواقعة على شروطها على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

ثم: إن النبي ﷺ قد ذكر أنواع الرؤيا هنا. وفيما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ فَرُؤْيَا حَقٌّ وَرُؤْيَا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ...**». وذكر الحديث. فرؤيا الحق: هي المنتظمة التي لا تخليط فيها، وقد سَمَّاها في رواية أخرى: «**الصَّادِقَة**». وفي أخرى: «**الصَّالِحَة**»، وهي التي يحصل بها التنبيه على أمر في اليقظة صحيح، وهي - التي إذا صدرت من الإنسان الصالح - جزء من أجزاء النبوة؛ أي: خصلة من خصال الأنبياء التي بها يعلمون الوحي من الله تعالى. وأما الثانية: فهي التي تكون عن أحاديث نفس متوالية، وشهواتٍ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

الخطبة الحادية والعشرون بعد المائة:

[١] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشْر الحافي

فَضلُ الورع... وأضرار الذنوب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

- فَيَقُول مُحَمَّدُ الجَوهَرِيُّ: سَمِعْتُ بِشْرًا[١] يَوْمَ مَاتَتْ أُخْتُهُ يَقُولُ: إنَّ العَبْدَ إذَا قَصَّرَ فِي طَاعَةِ الله تَعَالى سَلَبَهُ مَنْ يُؤنِسُهُ.
- وعَن بِشرٍ -رَحِمَهُ الله تَعَالى- قال: تعَلَّمتُ الوَرَعَ مِن أُختِي فإنَّهَا كَانَت تَجتَهِدُ أَلَّا

(١) يعني بشر الحافي -رَحِمَهُ الله-.

تأكُل مَا للمَخلُوقِ فيهِ صُنْعٌ - يَعنِي أنَّهَا كانَت تأكُلُ مِنَ النَّباتِ المُباحِ الذي لَمْ يَتَمَلَّكهُ إنسَانٌ ولَمْ يَزرعهُ ولم يَجلُبهُ.

- وقالَ عَبدُ الله بنُ أحمَدَ بن حَنْبلٍ: كُنْتُ مع أبي فَدَقَّ داقٌ البَابَ فإذا امرأةٌ، فَقالت لي، استأذِن لي عَلَى أبِي عَبْد الله، فَقَالَ: أدخِلْهَا، فَدَخلَت، فسَلَّمت وقَالت: أنا امرَأةٌ أغزِلُ باللَّيل في السِّراج ورُبَّمَا طُفِئ فأغزِلُ فِي القَمَر، فَعَلَيَّ أن أُبيِّن غَزلَ القَمَرِ مِنْ غَزلِ السِّراجِ؟ فَقَالَ: إن كَانَ عِندكِ بَيْنَهُما فَرقٌ، فَعَليكِ أن تُبيِّنِي ذَلِكَ.

قَالت: أنِينُ المَريضِ شَكْوَى؟ قَالَ: أرْجُو ألَّا يَكُون شَكْوَى، ولكِن اشتكي إلى الله.

قَالَ: فوَدَّعَتهُ وخَرَجت، فَقالَ: يا بُنَيَّ، مَا سَمِعْتُ إنْسَانًا قَطُّ سَألَ عَنْ مِثل هذا، اتْبَع هذِه المرأة، فانظُر أيْنَ تَدْخُلُ؟ فاتَّبَعْتُهَا، فإذا قَدْ دَخلَت إلى بَيْتِ بِشرٍ، وإذا هِي أُخْتُهُ، فَرَجَعتُ لَهُ، فَقُلت لَهُ، فَقَال: مُحالٌ أن تَكُون مِثلُ هذِهِ إلَّا أُختَ بِشرٍ.

- وعَنْهُ قَالَ: جَاءت مُـخَّةُ أُختُ بِشرٍ إلى أبي، فَقَالت لَهُ: إنِّي امرَأةٌ رأسُ مَالي دَانِقانِ، أشتري القُطنَ فأغزِلَهُ فأبِيعُهُ بنِصفِ دِرهم، فأتَقَوَّتُ بدانِقٍ مِنَ الجُمُعة إلى الجُمُعة، فمَرَّ ابنُ طَاهِرٍ الطَّائِفُ ومَعَهُ مَشْعَلٌ، فَغَزَلتُ طَاقَاتٍ، ثُمَّ غَابَ عَنِّي المَشعَلُ فَعَلِمتُ أنَّ لله فِي مُطالَبَةً، فَخَلِّصنِي خَلَّصَكَ الله، فَقال لها: تُخرِجِين الدَّانِقِينِ ثُمَّ تَبْقِينَ بِلَا رأسِ مالٍ حَتَّى يُعوِّضِك الله خيرًا مِنْهُ.

قَال: فَقُلتُ: يَا أبَتِ لو قُلتَ لها: لَو أخْرَجتِ المَغزَلَ الذي أدْرَجتِ فيه الطَّاقَاتِ؟ فَقَال: يَا بُنيَّ سُؤالُهَا لا يَحتَمِلُ التَّأويلَ، ثُمَّ قال: مَنْ هَذِهِ؟ قُلتُ: مُخَّةُ أخْتُ بِشرٍ الحَافِي، فَقَال: مِن هَهُنا أُتِيت - يَعني مِن نِسْبَتِهَا إلى بِشرٍ دَخَلَ عَليهَا هَذَا التَّحرُّجُ والتَّشديُد[١].

عباد الله...

إن الورع خُلُق كريم، يدلُّ عَلَى صدق معدن مَن تحلَّى به، وسادة أهل الورع: الأنبياء والصِّدّيقون.

والورع كما ذكرنا في غير هذا الموضع، ليس بلبس الغليظ، ولا بهجر طَيِّب الطعام،

---

(١) «أحاسن المحاسن» (٣٨٨، ٣٨٩).

وإنَّما هو صدقٌ في النِّيَّات، وطلبٌ لرفيع الدرجات، ورفضٌ لخوارم المُراءات، وطلبٌ للباقيات الصالحات.

عباد الله...

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كِخْ كِخْ ارْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»(١).

وتأمَّلوا معي أيضًا هذا الورع العجيب، فهاهُو ﷺ يُخبر عن نفسه يقول: «**إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي فَأَرْفَعُهَا لآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيَهَا**»(٢).

ذاك هو سيِّد الورعين ﷺ، وعلى دَربِه سار أصحابُه الأطهار رضي الله عنهم.

- فهذا مَيمُون النَّقيبة، وأفضل الأُمّة بعد نبيِّها ﷺ، الصِّدِّيق أبو بكر رَضِيَ الله عَنْهُ، تحكي لنا ابنته أُم المؤمنين عائِشة رَضِيَ الله عَنْهَا أعجُوبة من ورعه رَضِيَ الله عَنْهُ، قالت: كَانَ لأَبِي بَكْرٍ غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: تَدْرِي مَا هَذَا؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلاَّ أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ.

فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ(٣).

عباد الله...

ولقد سار الصَّالِحُون عَلَى هذا الطَّريق فكانوا - رَحِمَهُم الله - مشاعل تُضيء للسالكين، وشموع تتراءى للمُبصرين.

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري.

- وهذا هو الخَليفة الزَّاهد الصَّالح عُمر بن عَبد العزيز - رَحِمَهُ الله - كان نادرة في الورع، أمر مرة غلامه أن يُسخّن له ماء، فانطلق الغلام وسخَّن الماء في مطبخ العامّة، فأمره عُمر أن يأخذ بدرهم حطبًا يضعه في المطبخ.
- وكان - رَحِمَهُ الله - يُسْرَجُ عليه الشمعة من بيت المال، إذا كان في حوائج المسلمين، فَإِذَا فرغَ من حوائجهم أطفأها، ثم أُسْرِجَ عليه سراجه.

وإليكم - أَيُّهَا المسلمون - هَذِهِ النادرة من ورع إبراهيم بن أدهم - رَحِمَهُ الله -:

- جاء عنه أَنَّهُ استأجر دابة إلى عمان، فبينما هو يسير إذا سقط سوطُه، فنزل عن الدَّاة وربطها، وذهب راجلًا، فأخذ السّوط. فقيل له: لو حَوَّلت رأس دابتك فأخذتَ السَّوط؟ فقال: إنَّما استأجرتُها لتذهب ولم أستأجرها لِتَرجع.

أين هَذِهِ الأخلاق في الدُّنْيَا اليوم؟!

كِدنا لا نسمع عنها إلا في كتاب أو تحت تراب، ولله نشكو ظُلم نفوسنا.

ومن عَجيب ما قرأت: ما ذكره أهلُ السِّير عن «كَهْمَس» - رَحِمَهُ الله - أَنَّهُ سقط منه ديناران ففتَّش فلقيه فلم يأخُذه، وقال: لعلَّه غَيْره.

عباد الله...

ومن كلام زُبدةَ أُخت بِشر الحافي رحمهما الله: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأخَفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرأ أثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، سيأتي بعضه بعد قليل، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فإن الذنب ثقيل عَلَى المؤمن، خفيف عَلَى المنافق.

عَن ابن مسعود رَضِي الله عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا**».. قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ[(١)].

قال الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ الله -: قال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منوَّر فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عَظُمَ الأَمْرُ عليه والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة.

وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوّة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها وهذا شأن المسلم أنَّهُ دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السَّيئ.

قوله: «**وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ**» في رواية أبي الربيع الزهراني عن أبي شهاب عند الإسماعيلي «**يَرَى ذُنُوبه كأنَّها ذُبَابٌ مَرّ على أنفه**» أي ذنبه سهل عنده لا يعتقد انه يحصل له بسببه كبير ضرر كما ان ضرر الذباب عنده سهل وكذا دفعه عنه.

والذباب جمع ذبابة وهي الطير المعروف.

قوله: «فَقَالَ بِهِ هَكَذَا» أي نحاه بيده أو دفعه، هو من إطلاق القول على الفعل قالوا

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨).

وهو أبلغ.

قوله: «قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ» هو تفسير منه لقوله: «فَقَالَ بِهِ هَكَذَا».

قال المُحبّ الطبري: إنما كانت هذه صفة المؤمن لِشدّة خوفه من الله ومن عقوبته، لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة والفاجر قليل المعرفة بالله فلذلك قلّ خوفه واستهان بالمعصية.

وقال ابن أبي جمرة: السبب في ذَلِكَ أن قلب الفَاجرُ مُظلم، فوقوع الذَّنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول هذا سهل.

قال: **ويستفاد من الحديث**: أن قلة خوف المؤمن ذنوبه وخِفّته عليه يدل على فجوره.

قال: والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذُّباب كون الذباب أخف الطير وأحقره وهو مِمَّا يُعَاين ويدفع بأقل الأشياء.

قال: وفي ذكر الأنف مبالغة في اعتقاده خفة الذنب عنده، لأن الذباب قلَّما ينزل على الأنف وإنما يقصد غالبا العين.

قال: وفي إشارته بيده تأكيد للخفة أيضًا لأنه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره.

قال: وفي الحديث ضرب المثل بما يمكن وارشاد إلى الحض على محاسبة النفس واعتبار العلامات الدالة على بقاء نعمة الإيمان(١).

وفيه: أن الفجور أمر قلبي كالإيمان وفيه دليل لأهل السنة لأنهم لا يكفرون بالذنوب ورد على الخوارج وغيرهم ممن يكَفّر بالذنوب.

وقال ابن بَطَّال: يؤخذ منه أنه ينبغي ان يكون المؤمن عظيم الخوف من الله تعالى من كل ذنب صغيرًا كان أو كبيرًا لأن الله تعالى قَدْ يُعذِب على القليل فإنه لا يُسأل عمَّا يَفْعَل سُبْحَانَهُ وتَعَالى. ا.هـ(٢).

---

(١) الإيمان أصله في القلب، وفروعه عَلَى الجوارح.
(٢) «فتح الباري» (١١/١٠٨، ١٠٩).

عباد الله...

إنَّ شُؤم الذُّنوب يَطَال العُصَاة في الدنيا والآخرة.

قال تَعَالى عن سبب هلاك الأُمم السَّابقة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال تَعَالى عَن قوم صالح: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

وللحديث بقيّة إن شاء الله.



الخطبة الثانية والعشرون بعد المائة:

[٢] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

[أ] عقوباتُ المعاصي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فتقول العابدةُ الزَّاهِدة «زُبْدَة» أخت إمام أهل الورع «بشر الحافي» رحمهما الله تَعَالَى: أثقلُ شيءٍ عَلَى العبد: الذُّنوبُ، وأخَفُّه عليه: التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرَأ[1] أثقل شيءٍ بأخَفّ شيء؟!»[2].

(١) يدرأ: يدفع.

(٢) «أحاسن المحاسن» (٣٨٩).

وهذا من أحسن الكلام وأجمله.

فالذُّنوب أثقل شيء عَلَى المؤمن، وقَدْ تقدَّم الحديث الدَّال عَلَى ذَلِكَ[1]، فهي تُعرِّض الإنسان إلى خسارة الدَّارين.

ومِن فضل الله تَعَالى ورحمته بعباده: أن جعل التوبة ماحية للذنوب، قَالَ تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

وقال تَعَالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وروى الطَّبريّ بإسنادٍ حسن عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قال: «مَنْ أَحْسَنَ فيما بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، ومَنْ أَسَاءَ فِيما بَقِيَ أُخِذَ بما مَضَى ومَا بَقِيَ».

عباد الله...

ومِن عقوبات الذُّنوب والمعاصي وشؤمها؛ يَقُول الإمام الهُمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- في كتابه «الداء والدواء» ما مختصره: «مِمَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الذُّنوب والمعَاصِي تَضُر ولابدَّ، وأنَّ ضَرَرَها في القَلبِ كضررِ السُّمومِ في الأبدان، عَلَى اختلافِ درجاتِها في الضَّرر، وهل في الدُّنْيَا والآخرة إِلَّا سببهُ الذُّنوب والمعاصي؟

فَمَا الَّذِي أخرجَ الأبوين من الجَنَّة، دارِ اللَّذةِ والبهجةِ والسُّرور إلى دارِ الآلام والأحزانِ والمصائبِ؟

ومَا الَّذِي أَخْرجَ إبليسَ مِن مَلكُوتِ السَّماء وطردَهُ ولعنَهُ، ومَسَخَ ظاهِرَهُ وباطنَهُ فجعلَ صورتَهُ أقْبَحَ صورةٍ وأشنَعهَا، وباطنَهُ أقبح مِن صورتهِ وأشْنعَ.

ومَا الَّذِي غرَّقَ أهلَ الأرضِ كُلَّهم حَتَّى عَلا الماءُ فوقَ رُءوسِ الجبال؟

ومَا الَّذِي سلَّط الرِّيح عَلَى قومِ عادٍ حَتَّى ألقتهُم موتَى عَلَى وجهِ الأرضِ كأنَّهم

---

(١) في الخطبة الماضية.

أعجازُ نخلٍ خَاويةٍ، ودمَّرت ما مرَّت عليه من ديارِهم وحُروثِهم وزروعِهم ودوابِّهم، حَتَّى صارُوا عِبرةً للأممِ إلى يومِ القِيامةِ؟

ومَا الَّذِي أرسلَ عَلَى قومِ ثمودَ الصَّيحة حَتَّى قطَّعت قلوبَهم في أجوافِهم وماتُوا عن آخرِهم؟

وما الَّذِي رفعَ قُرى اللوطيَّة حَتَّى سمعتِ الملائكةُ نبيحَ كلابهم، ثُمَّ قَلَبَها عليهم، فجعل عاليَها سافلَها، فأهلكَهم جميعًا، ثُمَّ أتبعَهُم حِجارةً مِنْ السَّماءِ أمْطَرَهَا عليْهِم، فجمعَ عليهم مِنَ العُقوبةِ مَا لم يجمعَه عَلَى أُمَّةٍ غيرهم، ولإخوانِهم أمثالُها، وما هي مِنَ الظَّالمينَ ببعيدٍ.

ومَا الَّذِي أرسلَ عَلَى قوم شُعيبٍ سَحَابَ العذابِ كالظُّلل، فلَمَّا صارَ فوقَ رءوسهم أمطرَ عليهم نَارًا تلظَّى؟

ومَا الَّذِي أغرَق فِرعون وقومَه في البحر، ثم نُقِلَت أرواحُهم إلى جهنَّم، فالأجسادُ للغرقِ، والأرواحُ للحرقِ؟

وما الَّذِي خسفَ بِقَارُون ودارِهِ ومالِهِ وأهلِهِ؟

وما الَّذِي أهلَكَ القُرون من بعد نوحٍ بأنواعِ العقوبات ودمَّرها تدميرًا؟

وما الَّذِي أهلَك قومَ صاحبِ يس بالصَّيحةِ حَتَّى خمدُوا عن آخرِهم؟

وما الَّذِي بعثَ عَلَى بني إسرائيل قومًا أُولي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خِلال الدِّيار، وقتلُوا الرِّجال، وسبُوا الذريَّة والنِّساء، وأحرقُوا الدِّيار ونهبُوا الأمْوالَ، ثم بعثُهم عليهم مرةً ثانيةً فأهلكُوا ما قدرُوا عليه وتبَّروا ما عَلوا تتبيرًا؟

وما الَّذِي سلَّط عليهم أنواع العُقُوباتِ، مرةً بالقتلِ والسَّبي وخرابِ البلادِ، ومرَّةً بجورِ الملوكِ، ومرَّة بمسخِهم قردةً وخنازير، وآخرَ ذَلِكَ أقسمَ الرَّبُّ تبارك وتعالى: ﴿ **لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قال: سَمعتُ أبَا البَخْتَرِيِّ يقولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**» (١).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٣٤٤٧).

وعَنْ ثَوْبَانَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ**». قُلْنَا: وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»(١).

وذكَرَ الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ جَرِيرٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ**»(٢).

وفي صحيح البُخاري عَنْ أنسِ بن مالكٍ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّهُ قال: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ المُوبِقَاتِ.

وفي الصحيحين من حديثِ عبد الله بن عُمرَ أنَّ رَسُول الله ﷺ «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**».

وها هُنا نُكتةٌ دقيقَةٌ يغلطُ فيها النَّاسُ في أمر الذَّنب، وهي أنَّهم لا يرونَ تأثيرَهُ في الحالِ، وقَدْ يتأخَّرُ تأثيرُه فيُنْسَى، ويظنُّ العبدُ أَنَّهُ لا يُغَبِّر بعد ذَلِكَ، وأنَّ الأمرَ كما قال القائلُ:

إذا لم يُغَبِّـــر حـــائِطٌ في وُقـــوعِهِ ... فَلَـــيسَ لَـــهُ بعـــدَ الوُقـــوعِ غُـــبَارُ

وسُبحان الله، كم أهلكت هذهِ النكتةُ مِن الخلقِ، وكم أزالت من نعمةٍ، وكم جلبت من نقمةٍ، وما أكثرَ المغترِّين بها، ولم يعلم المغترُّ أنَّ الذَّنب ينقُضُ ولو بعد حينٍ، كما ينقُضُ السُّمُّ وكما ينقُض الجرحُ المندَمِل عَلَى الغِشِّ والدَّغَل(٣).

وقال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازِي: عجبتُ مِن ذِي عقلٍ يقولُ في دُعائِهِ: «اللَّهُمَّ لا تشمِّت بِي الأعداء»، ثُمَّ هو يُشمِّتُ بنفسِه كلَّ عدوٍّ لَهُ. قِيل: وكيفَ ذَلِكَ؟

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٩٥٨).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٣٦٤، ٣٦٦)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩)، وصححه الألباني.

(٣) **الدَّغل**: أصل الدغل الشجر الملتف الَّذِي يكمن أهل الفساد فيه.

قال: يَعصِي الله ويشمتُ به في القيامةِ كلَّ عدوٍّ. ا.هـ.

عباد الله...

وبالجملة: فإن للمعاصي آثارٌ وخيمة عَلَى مُرتكبها وعلى أسرته أو مجتمعه أو عَلَى أمته، وعلى الأرض والسماء والدَّواب وغيرها، قَالَ تَعَالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١].

وللحديث بقية، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويُواصل الإمامُ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- حديثه عن عقوبات المعاصي فيقول:

وللمعاصي مِنْ الآثارِ القَبيحَةِ المذمومةِ، المضرَّةِ بالقلبِ والبدنِ في الدُّنْيَا والآخرة ما لا يَعلمُه إلَّا الله.

فمنها: حرمانُ العلم؛ فإنَّ العلمَ نُورٌ يَقْذفُه الله في القَلْبِ، والمعصيةُ تُطفِئ ذَلِكَ النُّورَ.

ومِنْها: حِرْمَانُ الرِّزْق؛ فكما أنَّ تقوى الله مَجلبةٌ للرّزقِ، فتركُ التَّقوى مَجلبةٌ للفقْرِ، فما استجلِبَ رزقٌ بمثل تَركِ المَعاصِي.

ومِنْها: وَحْشةٌ يجُدها العَاصِي في قَلْبِه بينه وبين الله تعالى؛ لا تُوازنُها ولا تقارنُها لذَّةٌ أصلًا، ولو اجتمعت له لذَّاتُ الدُّنْيَا بأسرِها لم تفِ بتلك الوحشة.

وهذا أَمْر لا يحسّ به إلاّ مَنْ في قَلْبه حَيَاةٌ، وما لجرح بميِّتٍ إيلامُ، فَلو لم تُترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تِلك الوحشةِ، لكانَ العَاقِلُ حريًّا بتركِها.

ومنها: الوحشةُ التي تَحْصُل بينه وبين النَّاس، ولا سِيّما أَهْل الخير منهم؛ فإنَّهُ يجد وحشةً بينه وبينهم، وكلَّما قويت تِلك الوحشةُ بعُدَ منهم ومِن مُجالستِهم، وحُرِمَ بركةَ

الانتفاع بهم، وقَرُب من حزبِ الشيطانِ بقدرِ مَا بَعُدَ مِن حِزبِ الرَّحمن، وتقوى هذهِ الوحشةُ حَتَّى تَستحكِم، فتقعَ بينَه وبين امرأتِه وولدِه وأقارِبه، وبينَه وبين نفسِه، فتراهُ مستوحِشًا مِن نفسِه.

قال بعضُ السّلف: «إني لأعْصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابَّتي وَزَوْجَتي!».

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يَتوجّه لأمرٍ إلَّا يَجِدُه مُغلقًا دُونه أو متعسّرًا عليه، وهذا كما أنَّ مَنِ اتَّقى الله جَعَلَ لَهُ مِن أَمْرِه يُسرًا، فَمَنْ عَطّل التَّقوى جُعِلَ لَهُ مِنْ أَمْرِه عُسْرًا. ويا لله العجبُ، كيف يَجِدُ العبدُ أبوابَ الخَيرِ والمصالِح مسدودَةً عَنْهُ وطُرقَها مُعْسرةً عليه، وهُو لا يعلمَ مِن أين أُتِي؟

ومنها: ظُلْمة يَجِدُها في قَلبِه حَقيقةً، يَحِسُّ بها كما يحِسُّ بِظُلْمة اللّيل البهيم إذا ادْلَهَمّ[1]؛ فتصيرُ ظلمةُ المعصيةِ لقلبِهِ كالظلمَةِ الحسيَّةِ لبصرِه، فإنَّ الطاعة نُورٌ، والمعصية ظُلمةٌ. وكلَّما قويتِ الظُّلمةُ ازدادت حيرتُه، حَتَّى يقعَ في البدع والضَّلالاتِ والأمورِ المهلكةِ وهو لا يشعرُ.

قَالَ عبدُ الله بن عبَّاسٍ: إنَّ للحسنةِ ضياءً في الوجهِ ونورًا في القلبِ وسعةً في الرزقِ وقوةً في البدنِ ومحبَّةً في قلوبِ الخلقِ، وإنَّ للسيئةِ سوادًا في الوجهِ، وظلمةً في القلبِ، ووَهنًا في البدنِ، ونقصًا في الرِّزقِ، وبغضةً في قُلوبِ الخَلقِ. ا.هـ.

عباد الله...

وهذا الَّذِي قاله ابن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا صحيحٌ، تشهد له الأدلة من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

فمن القرآن:

١ - قال الله تَعَالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم: ٩٦]. أي: محبَّة في قلوب الخَلق.

---

(١) ادلهم: كَثُفَ واسوَدَّ.

٢- وقال تَعَالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

٣- وقال تَعَالى عَلَى لسان هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

أما الأدلة من السُّنَّة، فقد تقدَّم ما يدل عَلَى شيء من ذَلِكَ، وسيأتي المزيد في الخُطبة القادمة إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللِّقاء.



الخطبة الثالثة والعشرون بعد المائة:

[٣] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

[ب] عقوبات المعاصي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا في الخطبة الماضية بعض عقوبات المعاصي، ونواصل اليوم - إن شاء الله تَعَالى - الحديث عن بعضها، والله المُستعان.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالى -: **ومِن عُقوبات المعاصي:**

أَنَّ المعاصي تُوهِنُ القَلْب والبَدَنَ؛ أمّا وَهَنُها للقلبِ فأمْرٌ ظَاهِرٌ، بل لا تزالُ تُوهِنهُ

حَتَّى تُزِيلَ حياتَهُ بالكليَّةِ.

وأمّا وَهَنُها للبَدَنِ فإنَّ المؤمن قُوّته في قَلبِه، كُلّما قَوِي قَلْبُه قَوِي بَدنُه. وأمَّا الفَاجِر فإنَّهُ وإن كان قويَّ البدنِ فهُو أضعفُ شيء عند الحاجةِ، فتخونُه قُوَّتُه أحوجَ ما يكونُ إلى نفسِهِ.

وتأمّل قوّة أَبَدانِ فَارِس والروم كيف خَانتهم أَحْوجَ مَا كَانُوا إليها، وقَهرَهُم أهلُ الإيمانِ بقوَّةِ أبدانِهم وقلوبِهم.

ومنها: حِرْمانُ الطاعة: فلولم يَكُن للذَّنبِ عقوبةٌ إلا أن يُصدَّ عن طَاعةٍ تكونُ بدلَهُ، وتقطعُ طريقَ طاعةٍ أُخرَى، فينقطعُ عليه بالذَّنبِ طريقٌ ثالثَةٌ، ثُمَّ رابعَةٌ وهلمَّ جَرًّا، فينقطعُ عَنْهُ بالذنبِ طَاعَاتٌ كثيرةٌ، كُلُّ واحدةٍ مِنْهَا خيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وما عَليهَا، وهذا كرجُلٍ أكلَ أكْلَةً أوْجَبت له مرضَةً طويلةً، منعَتْه من عِدَّةِ أكلاتٍ أطيبَ مِنْهَا، والله المُستعانُ.

ومنها: أنَّ المعاصي تقصّر العُمر وتَمْحَق بَركته ولابُدّ؛ فإن البرّ كما يَزِيدُ في العُمر، فالفجورُ يقصّرُ العُمر.

وسرُّ المسألةِ أنَّ عُمرَ الإنسانِ مُدَّةُ حياتهِ، ولا حياةَ لَهُ إلا بإقبالِهِ عَلَى ربه، والتنعُّم بحبِّه وذكرِه، وإيثارِ مرضاتِه.

ومنها: أنَّ المعاصي تَزرعُ أمثالها، ويولِّد بعضُها بعضًا، حَتَّى يعزَّ على العَبد مُفارقَتُها والخُروجُ مِنْها؛ كما قَالَ بعضُ السَّلف: إنَّ من عُقوبةِ السيِّئةِ السيِّئةَ بعدَهَا، وإنَّ مِن ثَوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها.

ولا يزال العبد يُعاني الطَّاعة ويألفُها ويحبُّها ويؤثرُها حَتَّى يُرسِلَ الله سُبْحَانَهُ وتعالى برحمتِه عليه الملائكة تَؤزُّه أزًّا، وتُحرضه عليها، وتُزعِجُه عن فِراشهِ ومجلسِهِ إليْهَا.

ولا يزال العبد يألفُ المعاصي ويحبّها ويؤثرُها حَتَّى يُرسِلَ الله عليه الشَّياطين فتؤزُّه إليها أَزًّا.

فالأوَّلُ قوَّى جُندَ الطَّاعةِ بالمدَدِ، فصارُوا من أكبرِ أعوانِهِ، وهذا قوَّى جُندَ المعصيةِ بالمدَدِ فكَانُوا أعوَانًا عَلَيه.

ومنها - **وهو من أخوفِها عَلَى العبد - أنها تُضعفُ القَلبَ عن إرادته**؛ فتقوَى إرادةُ المعصية وتضعفُ إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادةُ التوبة بَالكُليّة، فَلو مَاتَ نِصْفُه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفارِ وتوبةِ الكذَّابين باللِّسانِ بشيءٍ، وقلبُه معقودٌ بالمعصيّة مصرٌّ عليها عازمٌ عَلَى مواقعتِها متى أمكنَه، وهذا مِن أعظمِ الأمراضِ وأقربِها إلى الهلاك.

ومنها: **أنَّهُ يَنسلخُ مِن القلب استقباحُها، فتصيرُ له عادةً**؛ فلا يستقبحُ من نفسهِ رؤيةَ النَّاس له، ولا كلامهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غَايةُ التّهتُّك وتمام اللَّذَّة، حَتَّى يفتخرَ أحدُهم بالمعصية، وَيُحدّث بها مَن لم يعلم أنَّهُ عَمِلَها، فَيُقول: يا فلان عَمِلتُ كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسدّ عليهم طريق التوبة، وتغلق أبوابها عنهم في الغالب. كما قال النبيُّ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتي مُعَافى إلاّ المجَاهرين، وإنَّ مِن الإجْهَار: أن يَسْتَرَ اللهُ العَبْدَ ثم يُصْبح يَفْضَح نَفْسَه ويقول: يا فلان عَمِلتُ كذا وكذا وكذا، فهتك نَفْسَه، وَقَدْ بَاتَ يَسْتره رَبُّهُ**»[(١)].

ومنها: **أن كل معصية من المعاصي فهي ميراثٌ عن أُمَّة مِنَ الأُمَم التي أهلكها الله ﷻ**؛ فاللوطيةُ: ميراث عن قوم لوط.

وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب.

والعلوّ في الأرض بالفساد: ميراث عن قوم فرعون.

والتكبّر والتجبّر: ميراث عن قوم هود.

فالعاصي لابسٌ ثياب بعضِ هذه الأُمم، وهُم أعداءُ الله.

ومنها: **أن المعصية سببٌ لهوانِ العبد على رَبِّه وسقوطِهِ مِنْ عَيْنه**.

---

(١) البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

قال الحسن البصري: هانُوا عليه فعصوه، ولو عَزّوا عليه لَعصَمَهم.

وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨]. وإن عظَّمهُم النَّاس في الظَّاهِر لحاجتِه إليهم أو خوفًا من شرِّهم، فهُم في قلوبِهم أحقرُ شيءٍ وأهونُه.

ومنها: أن العبدَ لا يزالُ يرتكبُ الذنبَ حَتَّى يهونَ عليه ويصغرَ في قلبه، وذَلِكَ علامةُ الهلاكِ، فإنَّ الذنب كُلَّما صَغُر في عينِ العبدِ عَظُمَ عِند الله.

وقَدْ ذكر البُخاريُّ في «صحيحه» عن ابنِ مَسعودٍ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ قَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ»(١).

ومنها: أن غيرهُ مِن النَّاس والدوابِّ يعودُ عليهِ شُؤمُ ذنوبهِ، فيحترقُ هو وغيره بشؤمِ الذنوب والظلم.

وقال مجاهدٌ: إنَّ البَهائِم تلعنُ عُصاةَ بني آدم، إذا اشتدَّت السَّنَةُ وأمسكَ المطرُ، وتقولُ: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

ومنها: أن المعصية تُورِثُ الذُّل ولابُدَّ؛ فإنَّ العزَّ كُلَّ العزِّ في طاعةِ الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: فليطبها بطاعةِ الله، فإنه لا يجدُها إلَّا في طاعتهِ.

وكانَ مِن دعاءِ بعضِ السَّلف: اللَّهُمَّ أعزَّني بطاعَتِك، ولا تُذلَّني بمعصيتك.

وقال الحسنُ البصريُّ: «إنَّهم وإن طقطقت(٢) بهم البِغالُ، وَهَمْلَجَتْ(٣) بهم البَرَاذِينُ(٤) إنَّ ذُلَّ المعصية لا يُفارق قُلوبَهم، أَبَى اللهُ إلاّ أن يُذلّ مَن عصاهُ».

---

(١) البخاري (٦٣٠٨).

(٢) **الطقطقة**: صوت قوائم الخيل عَلَى الأرض الصلبة.

(٣) **الهملجة**: حسن سير الدابة في سرعة.

(٤) **البراذين**: جمع برذون، وهو الخيل والبغال غير العربية (الأجنبية).

وقال عبدُ الله بن المباركِ:

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ وقَدْ يُورثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذُّنوبِ حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسِكَ عِصيانُهَا
وهل أفسَدَ الدِّين إلا المُلُوكُ وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها

ومِنها: أنَّ المعاصي تُفسِدُ العَقل؛ فإنَّ للعقلِ نُورًا والمعصيَّةُ تُطفئ نُورَ العَقلِ ولابُدَّ. وإذا طُفئ نُورُه ضَعُف ونَقُصَ.

وقال بعض السَّلف: ما عصى الله أحدٌ حَتَّى يغيبَ عقلُه.

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طُبع على قَلْب صَاحِبها، فكان من الغافلين؛ كما قال بعضُ السَّلف في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذّنب على الذّنب.

ومنها: أن الذّنوب تُدْخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ؛ فإنه لَعَن على معاصي والتي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللّعنة.

فَلَعن: الواشمة[١] والمستوشمة[٢]، والواصِلة[٣] والمستوصلة[٤]، والنامصة[٥] والمتنمّصة[٦]. والواشِرة[٧] والمستوشرة[٨].

وَلَعَنَ: آكلَ الرِّبا ومؤكله، وكاتبه، وشاهده[٩].

---

(١) الوشم: أن يغرز الجلد بإبرة ثم يحشى بكحل أَوْ نيل، فيزرق أثره أَوْ يخضر. الواشمة هي الفاعلة.
(٢) المستوشمة: هي التي يُفعل بها ذَلِكَ.
(٣) الواصلة: هي التي تصل شعرها بشعر آخر، زور.
(٤) المستوصلة: التي يُفعل بها.
(٥) النامصة: هي التي تنتف شعر الحاجب لترققه ولتغير شكله.
(٦) المتنمصة: التي يُفعل بها.
(٧) الواشرة: هي التي تحدد أسنانها وترقق أطرافها.
(٨) المستوشرة: هي التي يُفعل بها ذَلِكَ.
(٩) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥)، من حديث ابن مسعود، ولم يذكر «الواصلة =

ولَعَنَ: المحلِّل والمحلَّل له[١].

وَلَعَنَ السَّارق[٢].

ومنها: حرمانُ دعوةِ رَسُولِ الله ﷺ ودعوة الملائكةِ، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ أمر نبيَّه أن يستغفِر للمؤمنين والمؤمناتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧- ٩].

فهذا دُعاءُ الملائكةِ للمؤمنين التَّائبين المتَّبعين لكتابِهِ وسُنَّة رسولهِ ﷺ، الذين لا سبيل لهم غيرُهما، فلا يطمعُ غيرُ هؤلاءِ بإجابةِ هذه الدعوةِ إذ لا يتَّصفُ بصفاتِ المدعوِّ لَهُ بِها. والله المستعان. ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- حديثه عن عقوبات المعاصي فيقول:

ومن آثارِ الذُّنوب والمعاصي: أنَّها تُحدِثُ في الأرض أنواعًا من الفساد؛ في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

= والمستوصلة» في هذا الحديث، ولكن ذكراها في حديث ابن عمر عند البخاري (٥٩٤٧)، ومسلم (٢١٢٤).

(١) مسلم (١٥٩٧).

(٢) أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٨٣).

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحلُّ بها من الخَسفِ والزَّلازِلِ، ويمحقُ بركتها، وقَدْ مرَّ رَسُول الله ﷺ عَلَى ديارِ ثمود[١]، فمنعهُم من دخولِ ديارِهم إلا وهُم باكُونَ، ومِن شربِ مياهِهِم، ومن الاستسقاء من آبارِهم، حَتَّى أمرَ أن يُعلفَ العجينُ الذي عُجنَ بمياهِهم للنَّواضحِ، لتأثيرِ شؤمِ المعصية في الماءِ، وكذلك شُؤمُ الذنوب في نقصِ الثِّمار وما تَرى به مِن الآفات.

ومنها: أنها تطفئ من القلب نَار الغَيْرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغَيْرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث والصّفات المذمومة، كما يخرج الكِيرُ[٢] خَبَثَ الذّهبِ والفضّة والحديد، وأشرفُ النَّاس وأعلاهُم هِمَّة أشدُّهم غيرةً عَلَى نفسِهِ وخاصَّتِهِ وعُمومِ النَّاس.

وفي الصَّحيح: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ**»[٣].

ومن عقوباتها: أنها تذهب الحياء الذي هو مادة حياة القلب؛ وهو أصلُ كلّ خير، وذهابهُ ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الحياءُ خيرٌ كُلُّه»[٤].

وقال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٨)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) الكير: الزِّق الَّذِي ينفخ به النار.

(٣) رواه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٤) رواه مسلم (٣٧).

(٥) رواه البخاري (٣٤٨٣).

والمقصود: أنَّ الذنوب تُضعِفُ الحياءَ من العبد، حَتَّى ربما انسلخ منه بالكليّة، حَتَّى إنه ربما لا يتأثَّرُ بعلمِ النَّاس بسُوء حالِهِ ولا باطِّلاعِهم عليه، بل كثيرٌ منهم يُخبرُ عن حالِهِ وقبحِ ما يفعلُ، والحامِلُ له عَلَى ذَلِكَ انسلاخُه من الحياء، وإذا وصَلَ العبدُ إلى هَذِهِ الحال لم يبق في صَلاحِه مطمعٌ. انتهى ملخصًا.

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللِّقاء.

الخطبة الرابعة والعشرون بعد المائة:

[٤] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي

[جـ] عقوبات المعاصي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره. واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد سبق أن ذكرنا: أن زُبدة أُخت بِشر الحافي رَحِمها الله، قالت: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأخفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرأ أثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وجرَّنا هذا القولُ المبارك إلى الحديث عن «**عُقوبات المعاصي**»، وذكرنا فيما سبق شيئًا من هَذِهِ العقوبات.

اليوم نُواصل - إن شاء الله - الحديث عن بعض عقوباتها، والله المُستعانُ.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - في كتابه «الداء والدواء» ما مختصره:

ومن عقوبات الذُّنوب: أَنَّها تُضعفُ في القلب تعظيم الرَّب جَلَّ جَلَاله وتُضعِفُ وَقَارَهُ في قلب العبد ولابُدَّ، شَاء أم أبى، ولو تَمَكَّن وقار الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيهِ.

ومِن بَعْضِ عُقوبةِ هذا: أَنْ يَرفع الله عَزَّ وَجَلَّ مَهَابتَه[١] **مِن قُلوب الخَلقِ ويَهونُ عليهم، ويَستخِفُّون به**، كما هَانَ عليه أمرُه واستخفَّ به، فعلى قَدرِ محبَّةِ العَبد لله يُحِبُّه النَّاس، وعلى قَدرِ خَوفِه مِن الله يَخَافُه النَّاس، وعلى قَدرِ تَعظيمِه الله وحُرُماته يُعظِّم النَّاسُ حُرمَاتِه، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّـهُ فَمَا لَـهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

ومن عُقُوباتها: أَنَّها تَستدعي نِسيانَ الله لِعَبده وتَركَه وتَخليتَه بينه وبين نَفسِه وشيطانه، وهناكَ الهلاكُ الذي لا يُرجَى معه نَجاةٌ، قال الله تَعَالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

ومن عقوباتها: أَنَّها تُخرجُ العبد مِن دائرةِ الإحسانِ، وتمنعُه مِن ثوابَ المحسنينَ.

فإن أراد الله به خَيرًا أقرّه فى دائرة عُموم المؤمنين، فإن عَصاهُ بالمعاصي التى تُخرجُه مِن دائرة الإيمان كما قال النَّبيّ ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ**»[٢]. فإيَّاكم إيَّاكم، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ.

ومن عقوبتها: أَنَّها تُضعفُ سيرَ القلب الى الله والدَّار الآخرة، فالذَّنب إما يُميتَ القَلب أو يُمرضَه مَرضًا مخوفًا أو يُضعف قُوَّته ولابُدَّ حَتَّى يَنْتَهِي ضعفُه إلى الأشياء الثَّمانية التي إستعاذَ مِنْهَا النَّبيّ ﷺ، وهي: **الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ**

---

(١) أي: مهابة صاحب المعصية.

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ. وكلُّ اثنين منها قَرينانِ.

والمقصود: أنَّ الذُّنوب مِن أقوى الأسْبَابِ الجالبةِ لهذه الثَّمانية، كما أنَّها مِن أقوى الأسباب الجالبةِ لجهدِ البلاء ودَرك الشَّقاءِ وسُوءِ القَضاءِ وشَماتةِ الأعداءِ، ومِن أقوى الأسباب الجالبة لِزَوال نِعَم الله تعالى وتحوِّل عَافيته وفجأة نقمتِه وجَميعِ سَخطِه.

ومِن عُقوبات الذُّنوب: أنَّها تُزيلُ النِّعم وتحلُّ النِّقَمَ.

وقَدْ قال تَعَالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تَعَالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال تَعَالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

ولقد أحسن القائلُ:

إذا كُنتَ في نِعمةٍ فارْعَهَا ... فإنَّ المعاصي تُزيلُ النِّعَم
وَحُطْها بطاعةِ رَبِّ العباد ... فَرَبُّ العِبَادِ سَريعُ النِّقم
وإيّاك والظّلم مهما استطعتَ ... فَظُلْم العِبَادِ شَديد الوَخَم(١)
وسافر بقلبك بين الوَرَى ... لِتُبْصِر آثار مَن قَدْ ظَلَم
فتلك مَساكنُهُم بَعدَهُم ... شُهود عليهم ولا تَتَّهِم
ومَا كانَ شَيءٌ عليهم أضرَّ ... مِنَ الظُّلم، وهو الذي قَدْ قَصَم
فَكَم تَركُوا من جِنانٍ ومِن ... قُصُورٍ وأخرَى عليهم أُطُم(٢)
صُلوا بالجحيم وفاتَ النَّعيمُ ... وكانَ الذي نَالهُم كالحلُم

(١) الوخم: الثقل.
(٢) الأطم: بناء مرتفع.

ومِن عقوباتها: ما يُلقيه الله سُبْحَانَهُ مِن الرُّعب والخوف في قلبِ العاصي، فَلا تَرَاهُ إلَّا خائِفًا مَرْعُوبًا، فإنَّ الطاعة حِصنُ الله الأعظم الذي مَن دَخَلَه كان مِن الآمنين مِن عقوبةِ الدُّنْيَا والآخرة.

ومن عقوباتها: أنَّها تُوقِعُ الوحشةَ العظيمة في القَلب.

كَمَا قِيل:

فإن كُنتَ قَدْ أوحَشَتْكَ الذنوبُ ... فَدَعها إذا شِئتَ واستأنسِ

وسِرُّ المسألة: أنَّ الطَّاعة توجبُ القربَ مِن الرَّب سُبْحَانَهُ، فكلَّما اشتدَّ القُربُ قَوِيَ الأنسُ، والمعصيةُ تُوجبُ البُعدَ مِنَ الرَّبِّ، وكلَّما ازداد البعدُ قويتِ الوحشةُ.

والوحشةُ سببُها الحجابُ، وكلَّما غلُظَ الحجابُ زادتِ الوحشةُ، فالغفلةُ توجبُ الوحشةَ، وأشدُّ مِنْها وحشةُ المعصية، وأشدُّ منها وحشةُ الشِّركِ والكفرِ، ولا تجدُ أحدًا ملابسًا شيئًا من ذَلِكَ إلَّا ويعلُوه مِن الوحشةِ بحسبِ ما لابسهُ مِنه، فتعلُو الوحشةُ وجهَهُ وقلبَهُ، فَيستَوحشُ ويُستوحَشُ مِنهُ.

ومِن عقوباتها: أنَّها تَصرفُ القَلبَ عَنْ صحَّتِهِ واستقامتِه إلى مَرضِهِ وانْحِرافِه؛ وقَدْ أجمع السَّائرون الى الله أنَّ القُلوبَ لا تُعْطَي مُنَاها حَتَّى تَصِلَ إلى مَوْلَاها، ولا تَصلُ إلى مولاهَا حَتَّى تَكُون صحيحةً سليمةً، ولا تَكونَ صحيحةً سليمةً حَتَّى يَنْقلبُ دَاؤُها فَيصيرُ نفس دوائها، ولا يصحُّ لها ذَلِكَ إلَّا بِمُخالفة هَواهَا، فَهَواها مَرضُها، وشِفَاؤُها مُخالفتهُ، فإن استحكَم المرضُ قتلَ أو كَادَ.

إذا كان هذا فِعْلَ عَبدٍ بنفسهِ ... فمَن ذا له مِن بعد ذَلِكَ يُكرمُ؟

يَقُول الله تَعَالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

ومن عقوباتها أنَّها تَعمِي بصيرة القَلب، وتطمسُ نُورَه، وتسدُّ طُرقَ العِلمِ وتَحجبُ موارِدَ الهداية.

ولايزال هذا النُّورُ يَضعفُ ويَضمحلُّ، وظلامُ المعصية يَقوى حَتَّى يَصِيرَ القلبُ في مثل اللَّيْلِ البَهيم.

كَمَا قال النَّبيّ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا

بِصَلَاتِي عَلَيْهَا»[(١)].

ومن عقوباتها أنَّها تصغِّر النَّفْس وتقمعَها،، وتدسِّيها وتحقِّرها حَتَّى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أنَّ الطَّاعة تُنميِّها وتُزَكِّيها وتُكبِّرُها، قال تَعَالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

ومن عقوباتها: أنَّ العاصي دائمًا في أسرِ شيطانِه وسجن شَهَواتِهِ، وإذا قُيِّد القلب طرقته الآفاتُ من كلِّ جَانبٍ بِحسبِ قيُودِهِ، ومَثَلُ القَلبِ مِثلُ الطَّائر، كُلَّما عَلَا بَعُدَ عن الآفات، وكُلَّما نَزَلَ استوحشته الآفات.

وأصل هذا كُلِّه: أنَّ القلب كُلَّما كَانَ أبعد مِن الله كَانتِ الآفات إليه أسرعَ، وكلَّما قربَ مِن الله بَعدت عنه الآفات.

والبعدُ مِن الله مَراتبٌ، بَعضُها أشدُّ من بعض، فَالغفلةُ تُبعدُ العَبدَ عن الله، وبُعدُ المعصيةِ أعظمُ مِن بُعدِ الغَفلةِ، وبُعْدُ البِدعةِ أعْظمُ مِن بُعدِ المعصيةِ، وبُعْدُ النِّفاقِ والشِّركِ أعظم مِن ذَلِكَ كُلِّه.

ومن عقوباتها: سُقوطُ الجاهِ والمنزلَةِ والكَرَامَةِ عند الله وعِنْدَ خَلقِه، فإنَّ أكرم الخَلقِ عند الله أتْقَاهُم، وأقرَبَهم مِنهُ مَنزلةً أطْوَعهُم لَهُ، وعلى قَدرِ طَاعةِ العَبْدِ تَكُونُ منزلته عِنْده، فإذا عَصَاهُ وخَالَفَ أمْرهُ سَقَطَ مِنْ عَينِهِ، فأسقطَهُ مِنْ قُلوب عباده.

ومِن أعظم نِعم الله علي العبد: أنْ يَرفعَ له بَين العالمين ذِكرَه ويُعلي قَدْرَه، ولهذا خصَّ أنبياءه ورُسلَه مِنْ ذَلِكَ بما ليس لِغَيرهم، كما قال تَعَالى: ﴿**واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]. أي خَصصنَاهُم بِخَصيصَةٍ، وهُوَ الذِّكرُ الجميلُ الذي يُذكرُونَ به في هذِهِ الدَّار، وهو لِسَانُ الصِّدق الذي سَألَه إبراهيمُ الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام، حَيْثُ قال: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وقال سُبْحَانَهُ وتَعَالى عَنْهُ وعن بَنيه: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٠]. وقال لنَبيِّه ﷺ: ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ [الشرح: ٤].

---

(١) رواه مسلم (٩٥٦).

فأتباعُ الرُّسل لهم نَصيبٌ مِن ذَلِكَ بِحَسب مِيراثهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكلُّ مِن خَالفَهُم فاتَهُ مِن ذَلِكَ بِحَسب مُخالفتهم ومَعصيتِهم.

ومن عقوباتها: أنَّها تَسلبُ صَاحِبَهَا أسماءَ المدح والشَّرفِ وتَكسوهُ أسماءَ الذَّمِّ والصَّغارِ، فَتسلبُه اسم المؤمن، والبَرِّ، والمُحسنِ، والمتَّقِي، والمطيع، والمنيبِ، والوليِّ، والورعِ، والصَّالح، والعابدِ، والخائفِ، والأوَّابِ، والطَّيِّب، والمرضيِّ ونحوها.

وتَكسوهُ اسم الفَاجِرِ، والعَاصِي، والمُخالِف، والمُسِيء، والمُفسدِ، والخبيثِ، والمسخُوطِ، والزَّاني، والسَّارق، والقاتِل، والكَاذِبِ، والخائنِ، واللُّوطِيِّ، وقَاطِع الرَّحمِ، والغَادِر، وأمثالها.

فهذه أسماءُ الفسوقِ و﴿ **بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ** ﴾ [الحجرات: ١١]. التي تُوجِبُ غَضَبَ الدَّيَّان ودُخولَ النِّيرانِ وعَيْشَ الخِزْيِ والهَوَانِ.

ومن عقوباتها: أنَّها تُؤثِّر بالخاصة في نُقصانِ العقل، فَلا تَجِد عَاقلَين أحدُهما مُطيعٌ لله والآخر عَاصٍ، إلَّا وعقلُ المُطيعِ مِنْهُما أوفرُ وأكْملُ، وفكرُه أصحُّ ورأيُه أسدُّ، والصَّوابُ قَرينُه.

ولهذا تَجِدُ خِطابَ القُرآنَ إنَّما هو مَعَ أُولِي الألبَابِ والعُقولِ، كَقَوله: ﴿ **وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ونظائرُ ذَلِكَ كَثيرةٌ. ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- حديثه عن عقوبات المعاصي فيقول:

ومن أعظم عقوبات المعاصي: أنَّها تُوجبُ القَطيعةَ بين العبد وبين ربِّه تبارك وتعالى، وإذا وقعتِ القطيعةُ انقطعت عنه أسبابُ الخيرِ، واتصلت به أسبابُ الشرِّ.

قال بعض السَّلف: رأيتُ العبدَ مُلقًى بين الله سُبْحَانَهُ وبين الشيطانِ، فإنْ أعرَضَ الله عنه تَوَلَّاهُ الشَّيطان، وإن تَوَلَّاهُ الله لم يَقدر عليه الشيطان، وقَدْ قال تَعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ [الكهف: ٥٠].

ومن عقوباتها: أنَّها تمحقُ بركةَ العُمرِ وبركةَ الرِّزقِ وبركة العِلم وبركة العَملِ وبَرَكَةَ الطَّاعة.

وبالجملة: تمحق بركة الدِّين والدُّنْيَا فَلا تَجِد أقلّ بَركةٍ في عُمرهِ ودِينهِ ودنياهُ ممن عصِي الله، وما مُحِقتِ البركة مِن الأرض إلَّا بِمَعاصى الخَلق. قال الله تعالي: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وفي الحديث: «**إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ في رَوعي: أنَّهُ لن تموتَ نفسٌ حَتَّى تستكمل رزقَها، فاتَّقوا الله وأجمِلوا في الطَّلَبِ، فإنه لا يُنالُ ما عِندَ الله إلَّا بطاعتِهِ**» (١).

وليست سعةُ الرِّزقِ والعمل بكثرتِه، ولا طولُ العُمرِ بكثرةِ الشُّهورِ والأعوامِ، ولكن سِعةُ الرِّزقِ والعُمرِ بالبَركة فِيه.

ومن عقوباتها: أنَّها تجعلُ صاحِبَها مِن السَّفلةِ بعد أن كَانَ مُهيئًا لأن يَكُون مِن العِلية،

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» وصححه الألباني كما في «المشكاة» (٥٣٠٠).

فإنَّ الله خَلقَ خَلْقَهُ قِسمين: عِليَةً وسَفْلَةً، وجَعَلَ عِلِّيين مُستقرَّ العليةَ، وأسفلَ سَافلينَ مُستقرَّ السَّفْلَةِ.

وكُلّما عمل العبد معصيةً نَزَلَ الى أسفلِ درجةٍ، ولا يَزالُ في نزول حَتَّى يَكُون مِن الأسفلين، وكلما عمل طَاعة ارْتَفع بها دَرَجةً، ولا يزال في ارتفاع حَتَّى يَكُون مِن الأعلَين. ا.هـ.

عباد الله...

هذه بعض عقوبات المعاصي، وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى. فإلى اللِّقاء.



الخطبة الخامسة والعشرون بعد المائة:

[٥] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي

[د] عقوبات المعاصي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إِلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا قَبْلُ: أنَّ مِن أقوال الصَّالحات: قول زُبدة أُخت بِشر الحافي: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأخَفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرأ أثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وكان هذا القول المبارك مفتاحًا للحديث عن «**عقوبات المعاصي**» وأضرارها عَلَى العبد دنيا وآخرة.

وقَدْ تكلَّمنا عن بعض عقوبات المعاصي، ولأهمية الحديث عن هَذِهِ العقوبات نواصل الحديث عنها، والله الموفَّق لِما يُحبُّ ويرضى.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم – رَحِمَهُ الله – في كتابه القيِّم «الداء والدواء» ما مختصره:

ومن عقوباتها: أنَّها تجترِّئُ على العَبْدِ مَا لم يَكُن يتجرَّأُ عليه مِن أَصْنَاف المخلُوقات.

قال بعض السَّلف: «إني لأعْصي الله فأرى ذلك في خُلُق امرأتي ودابَّتي».

وكذلك يجترئُ عليه أولياءُ الأمرِ بالعقوبةِ التي إن عَدلُوا فيها أقامُوا عليه حُدودَ الله، وتَجترئ عليه نَفْسُه فتتأسَّدُ عليه وتِصعِب عليه، فلو أرادَها لخيرٍ لم تُطاوعهُ ولم تَنْقَد له وتَسُوقُه إلى ما فيه هَلاكُه، شاءَ أم أبى.

وذلك لأنَّ الطاعةَ حِصنُ الرَّبِّ تبارك وتعالى الذى مَن دَخَلَهُ كان مِن الآمنين.

ومن عقوباتها: أنَّها تخونُ العبد أحوجَ ما يكون إلى نفسه، فَإنَّ كلَّ أحدٍ يحتاجُ إلى معرفةِ ما ينفعُه وما يضرُّه في مَعاشِه ومَعَادِه، وأعلمُ النَّاس أعرفُهم بِذَلك على التَّفصِيلِ.

والمعاصي تَخُونُ العبد أحوجَ مَا كان الى نفسِه في تَحصيل هذا العِلمِ، وإيثارُ الحظِّ الاشرفِ العالي الدَّائمِ على الحظِّ الخسِيس الأدنَى المُنقطعِ، فَتحجُبُه الذُّنوبُ عَنْ كمالِ هذا العِلم، وعن الاشتغال بَما هُو أَوْلى بِه وأنفَعُ لَهُ في الدَّارينِ.

ومن عقوباتها: أنَّها تَعمي القلب، فإنْ لم تَعمِه أضعفَت بَصِيرتَهُ ولا بُدَّ، فإذا عَمِي القَلبُ وضعُفَ فاتَهُ مِن معرفَةِ الهدَى وقُوَّته على تنفيذِه في نفسِه وفي غيره بِحسبِ ضعفِ بَصِيرَته وقُوَّتِه.

فإنَّ الكَمَال الإنْسَاني مَدارُه في أصلينِ: مَعرفةِ الحقِّ مِنَ البَاطِلِ، وإيثَارِه عليه.

وما تَفَاوتَت منازِلُ الخلقِ عند الله تَعَالى في الدُّنْيَا والآخرة إلَّا بِقَدرِ تفاوتِ مَنازِهِم في هَذِين الأمرين، وهُمَا اللَّذانِ أثْنَى الله بهما سُبْحَانَهُ عَلَى أنبيائه عليهم الصَّلاة والسَّلام في قوله تَعَالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** ﴾ [ص: ٤٥].

فـ ﴿ **الأَيْدِي** ﴾ القويُّ في تنفيذِ الحقِّ، و﴿**الأَبْصَارِ**﴾ البصائرُ في الدِّين، فوصفَهم بكمالِ إدراكِ الحقِّ وكمالِ تنفيذِه.

وانقسمَ النَّاس في هذا المَقام أربعة أقسامٍ، فهؤلاءِ أشرفُ الأقسامِ مِنَ الخلقِ وأكرمُهم عند الله تَعَالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاءِ، مَن لا بَصيرةَ لَهُ في الدِّين ولا قُوَّةَ على تَنْفيذِ الحقِّ، وهم أكثر هذا الخلقِ الذين رُؤْيتُهم قذي للعيونِ وحُمَّي الأرواحِ، وسقمِ القُلوبِ، يضيِّقونَ الدِّيارَ، ويُغلُّون الأسعار، ولا يُستفادُ بِصُحبتِهم إلَّا العارُ والشنارُ.

القسم الثالث: مَن له بَصيرةٌ بالحقِّ ومعرفةٌ بهِ، لكنه ضعيفٌ لا قُوَّةَ له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المُؤمن الضَّعيفِ، والمؤمنُ القَويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله مِنْهُ.

القسم الرابع: مَن له قُوَّةٌ وهِمَّةٌ وعزيمةٌ لكنَّهُ ضعيفُ البصيرةِ في الدِّين لا يكادُ يميِّزُ بين أولياءِ الرَّحمنِ وأولياءِ الشَّيطان، بل يحسبُ كُل سَوداءَ تمرةً، وكُلَّ بيضاءَ شَحمةً، يحسبُ الوَرَمَ شَحْمًا والدَّواءَ النَّافِع سُمًّا.

وليس في هؤلاء مَن يُصلُح للإمَامةِ في الدِّين ولا هُو مَوضِعٌ لها سِوي القسمِ الأوَّل.

قال الله تَعَالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَـمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبرَ سُبْحَانَهُ أنَّ بِالصَبرِ واليقينِ نَالُوا الإمَامةَ في الدِّينِ، وهؤلاء هُمُ الذين استثناهُمُ الله سُبْحَانَهُ مِن جُملةِ الخَاسِرينَ، وأقسمَ بالعصرِ - الَّذي هو زَمنُ سَعْى الخاسرينَ والرَّابحين على أنَّ مَن عدَاهم فَهُو مِن الخاسرينَ، فقال تَعَالى: ﴿ **وَالـعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالـحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [وَالعصر: ١ - ٣].

فَلم يَكْتفِ مِنْهُم بِمَعرفةِ الحقِّ والصَّبرِ عليه حَتَّى يُوصيَ بعضُهم بعضًا ويرشدَه إليه ويحضَّه عليه.

ومن عقوباتها: أنَّها مددٌ من الإنسان يُمدُّ به عدوَّه عليه.

والمقصودُ: أنَّ الذُّنوب والمعاصيَ سلاحٌ ومددٌ يمدُّ بها العبدُ أعداءَه ويُعينُهم بها عَلَى نفسِه، فيقاتلونَه بسلاحِه، ويكونُ معَهم عَلَى نفسِه، وهذا غايةُ الجَهلِ.

مـا يَـبلُغُ الأعـداءُ مِـن جاهـلٍ ... مـا يَـبْلُغُ الجَاهِـلُ مِـنْ نَفْـسِهِ

ومن عقوباتها: أنَّها تُزيلُ النِّعمَ الحاضرةَ، وتقطعُ النِّعمَ الواصلةَ، فتُزيلُ الحاصِلَ، وتقطعُ الواصلَ، فإنَّ نِعمَ الله ما حُفظَ موجودُها بمثلِ طاعتِهِ، ولا استُجلبَ مفقودُها بمثلِ طاعتِه، فإنَّ ما عنده لا يُنال إلَّا بطاعتِه.

ومن عقوباتها: أَنَّها تُبَاعِدُ عن العبدِ وليَّه وأنفعَ الخلقِ لَه وأنصحَهم له، ومَن سعادتُه في قربِهِ مِنْه، وهُو الملكُ الموكَّلُ بِهِ، وتُدنِي منه عدوَّه وأَغَشَّ الخلقِ له وأعظَمَهم ضَررًا له وهو الشَّيطانُ، فإنَّ العبدَ إذا عصَى الله تباعدَ مِنه الملكُ بقدرِ تلك المعصيَة، حَتَّى إنه ليتباعَدُ عنه بالكذبَةِ الواحدةِ مسافةً بعيدةً.

ومن عقوباتها: أنَّها تستجلبُ موادَّ هلاكِ العبدِ في دُنياه وآخرتِهِ، فإنَّها الذُّنوب هي أمراضٌ، متى استحكمت قتلت ولابُدَّ، وكما أنَّ البدنَ لا يكونُ صحيحًا إلَّا بغذاءٍ يحفَظُ قُوَّته، واستفراغٍ يستفرغُ الموادَّ الفاسِدَةَ والأخْلاط الرديئةَ التي مَتى غلبَت عليه أفسدَته، وحِميةٍ يمتنِعُ بِها مِن تَناوُلِ ما يُؤذِيهِ ويخْشَى ضررَهُ، فكذلكَ القلبُ لا تتمُّ حياتُه إلَّا بغذاءٍ مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ تحفظُ قوَّته، واستفراغٍ بالتوبةِ النَّصوحِ تُستخرَج بِها الموادُّ الفاسدةُ والأخلاطُ الرديئةُ منه، وحِميةٍ تُجِب له حِفظَ الصِّحةِ وتجنُّب ما يضادُّها، وهي عبارَةٌ عن تركِ استعمالِ ما يُضادُّ الصحَّة. ا.هـ.

عباد الله...

هذه بعض عقوبات المعاصي، وفيها كما سمعتم مُزدجَر، ولكن قَدْ يسمع العاصي هذه العقوبات، ولا يجد لها تأثيرًا في قلبه، فما دواء هذا النوع؟

يجيب الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- عن هذا السؤال فيقول:

فإنْ لم تَرُعكَ هذه العُقوباتُ ولم تجد لها تأثيرًا في قَلبِك، فأحضرِ العُقوباتِ الشرعيّة التي شرعَها الله ورسولُه على الجرائمِ، كَمَا قطعَ اليدَ في سِرقة ثلاثة دراهم، وقطعَ اليدَ والرِّجل على قطعِ الطَّريق على معصومِ المال والنفسِ، وشقَّ الجلد بالسَّوطِ على كلمةٍ قَذَفَ بها المحصَنَ، أو قَطرةِ خَمْرٍ يُدخلُها جَوْفَه، وقتَلَ بالحجَارة أشنعَ قِتلةٍ في إيلاج الحشفةِ في فرجٍ حَرامٍ، وخفَّف هذه العُقوبةَ عمَّن لم تَتمَّ عليه نعمةُ الإحصانِ بمائة جلدة، وبِنَفْيِ سنةٍ عن وطنه وبلده إلى بلادِ الغربةِ، وفرَّق بين رأس العبدِ وبدنه إذا وقع على ذاتِ رحم محرَّمٍ مِنه، أو ترك الصَّلاة المفرُوضةَ، أو تكلَّم بكلمة كُفرٍ، وأمرَ بقتلِ من وطئ ذَكَرًا مِثلَه، وأمر بقتلِ مَن أتي بهيمةً، وقتل البهيمة معهُ، وعزمَ على تحريق بيوتِ المتخلِّفين عن الصَّلاة في الجماعةِ، وغير ذلك مِن العُقُوبات التي رتَّبها الله على الجرائمِ، وجعلها بحكمتهِ علي حسب الدَّواعي إلى تلك الجرائم، وحسبِ الوَازع عَنْها.

فما كان الوازعُ عنها طَبعيًّا وما ليس في الطِّباع داعٍ إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزيرِ، ولم يُرتِّب عليه حدًّا، كأكلِ الرَّجيع، وشُربِ الدَّم، وأكلِ الميتةِ، وما كان في الطِّباعِ داعٍ إليه رتَّب عليه مِن العُقوبةِ بِقَدرِ مَفسَدتِه وبِقَدر دَاعِ الطَّبْعِ إليه.

فعقوباتُ الشَّارعِ جاءت على أتمِّ الوُجوه وأوفَقِها للعقلِ وأقوَمِها بالمصلحةِ.

والمقصود: أنَّ الذنوبَ إنَّما تترتَّب عليها العُقُوباتُ الشرعيّة والقدريَّةُ، أو يجمعُهما الله للعبدِ، وقَدْ يرفعهما عمَّن تَابَ وأحسنَ. ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمامُ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- الحديث عن عقوبات المعاصي والتي فيها ردع للعصَاة، فيقول:

فاستحضِر بعض العُقُوبات التى رَتَّبها الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى عَلَى الذُّنوب، وجوِّز وُصول بعضِهَا إليك واجْعَل ذَلِكَ داعيًا للنفسِ إلى هجرانِها، وأنا أسوقُ إليك مِنْهَا طَرفًا يَكْفِي العاقلَ مع التصديق ببعضُه:

فمِنْها: الختمُ على القلوب والأسماع والغشاوة على الإبصار، والإقفالُ على القلوبِ، وجعل الأكنَّةِ عليها، والرينُ عليها والطَّبعُ عليها، وتقلُّبُ الأفئدةِ والأبصارِ، والحيلولةُ بين المرءِ وقلبِه، وإغفالُ القَلبِ عن ذِكرِ الربِّ، وإنساءُ العَبد نَفْسَهُ، وتركُ إرادةِ الله تطهيرَ القلب، وجعلُ الصدرِ ضيِّقًا حَرِجًا كأنما يصعَّد في السَّماء، وصرفُ القلوبِ عن الحقِّ، وزيادتُها مَرضًا على مَرضِها وإرْكَاسُها[1] ونكسُها[2] بحيث تبقَى

(١) الركس: هو قلب الشيء عَلَى رأسه، أَوْ ردّ أوّله عَلَى آخره.
(٢) النكس: هو القلب عَلَى الرأس.

منكوسة.

ومنها: التثبيطُ عن الطاعةِ والابتعادُ عنها.

ومنها: جَعلُ القلب أصمَّ لا يسمعُ الحقَّ، أبكمَ لا ينطقُ به، أعمى لا يراه، فتصيرُ النسبةُ بين القلب وبين الحقِّ الذى لا يَنْفعُه غيره كالنسبةِ بين أُذنِ الأصمِّ والأصواتِ، وعين الأعمى والألوانِ، ولِسانِ الأخرسِ والكلام، وبهذا يُعْلَم أنَّ العمَى والصَمَمَ والبكمَ للقلبِ بالذاتِ والحقيقةِ، وللجوارحِ بالعرضِ والتبعيَّةِ، ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

ومنها: الخسفُ بالقلب كما يخسفُ بالمكانِ وما فيه، فيخسفُ به إلى أسفلِ السافلينَ، وصاحبُه لا يشعُر، وعلامةُ الخسفِ به أنَّهُ لا يزالُ جَوَّالًا حَوْلَ السفليَّاتِ والقَاذُوراتِ والرَّذائلِ، كما أنَّ القلب الذى رفعه الله وقرَّبه إليه لا يَزَالُ جَوَّالًا حَول العرشِ.

ومنها: البعدُ عن البرِّ والخيرِ ومعالي الأعمال والأقوالِ والأخلاقِ. قال بعض السَّلف: إنَّ هذه القلوب جَوَّالةٌ، فمنها ما يجولُ حولَ العرشِ، ومنها ما يجولُ حول الحُشِّ(١).

ومنها: مسخُ القلبِ، فيُمسخُ كما تمسخُ الصُّورةُ، فيصيرُ القلبُ عَلَى قلبِ الحيوانِ الذي شابَهه في أخلاقِه وأعمالِه وطبيعتِه، فمِن القُلوب ما يُمسخُ على قلب خِنزيرٍ لِشدَّةِ شَبه صاحبه به، ومنها ما يُمسخُ على خُلُقِ قَلبِ كَلبٍ، أو حمارٍ، أو حيَّةٍ أو عقربٍ، وغير ذَلِك، وهذا تأويلُ سُفيانَ بن عُيينةَ فى قوله تَعَالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومنها: مكرُ الله بالماكِر، ومخادعتُه للمخادعِ، واستهزاؤُه بالمستهزئ، وإزاغتُه لقلبِ الزَّائغِ عن الحق.

ومنها: نَكسُ القلب حَتَّى يَرى الباطل حقًّا، والحقَّ بَاطلًا، والمعروف مُنكرًا، والمُنكر معروفًا، ويُفسدُ ويَرى أَنَّهُ يُصلحُ، ويَصدُّ عن سبيل الله وهو يَرى أَنَّهُ يَدعُو إليها، ويَشتري الضَّلالةِ بِالهُدى وهو يرى أَنَّهُ على الهُدى، ويتَّبعُ هواه وهو يَزعُم أَنَّهُ

---

(١) الحُش: واحدة الحشُوش، وهي الكُنُف ومواضع قضاء الحاجة.

مُطيع لِمَولاهُ، وكلُّ هذا مِن عُقُوباتِ الذُّنوب الجارية علي القلوب.

ومنها: حِجابُ القلب عَن الرَّبِّ فِى الدُّنْيَا، والحجابُ الأكبر يَوْمَ القيامة، كما قال تَعَالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥]. فمنعتهُم الذُّنوب أن يقطعُوا المسافة بينهم وبين قُلوبِهم فيصِلوا إليها فَيرُوا ما يُصلحُها ويُزكِيها، وما يُفسِدُها ويشقِيها، وأن يقطعُوا المسافة بين قلوبهم وبين ربِّهم فتصلَ القُلوب إليه فَتَفُوز بِقُربِه وكرامتِه، وتقرَّ به عَينًا وتَطيبَ به نفسًا، بل كانتِ الذُّنوب حِجابًا بينهم وبين قلوبهم، وحجابًا بينهم وبين ربِّهم وخالِقهم.

ومنها: المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنْيَا وفي البرزخ والعذابُ فى الآخرةِ، قال تعالي: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَـهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤].

ولا تقرُّ العينُ ولا يَهدأ القَلب ولا تَطمئنُّ النَّفْس إلَّا بإلهها ومَعبُودها الذى هو حَقٌّ، وكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، فمن قَرَّت عينه بالله قَرَّت به كُلُّ عينٍ، ومن لم تقرَّ عينُه بالله تَقطَّعت نفسه علي الدُّنْيَا حَسَراتٍ، والله تَعَالى إنما جَعَلَ الحياة الطَّيِّبة لمن آمن بالله وعَمِل صَالحًا كما قال تَعَالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ففاز المتَّقون الُمحسِنونَ بِنَعيمِ الدُّنْيَا والآخرة، وحَصلُوا علي الحياة الطَّيِّبة فى الدَّارين، فإنَّ طيبَ النَّفْس وسُرورَ القَلبِ وفَرحهُ ولذَّتهُ وابتهاجَه وطمأنينتَه وانْشِراحَهُ ونورَه وسعتَه وعَافيتَه، في تَركِ الشَّهوات المحرَّمة والشُّبهاتِ البَاطِلة، وهو النَّعيمُ علي الحقيقةِ، ولا نسبةَ لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض مَن ذاقَ هذه اللَّذة: لو عَلِمَ الُملوكُ وأبْنَاءُ الُملوكِ مَا نَحْنُ فيه لجَالَدُونا عليه بالسُّيوفِ.

وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ فيها: إنَّ أهل الجَنَّة فى مثل هذا؟! إنَّهم لَفِى عيشٍ طَيِّبٍ.

ولا تظنَّ أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الـفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مختصٌّ بيوم المعادِ فقط، بل هؤلاءِ في نعيم في دورِهمُ الثَّلاثةِ، وهؤلاءِ في جَحيمٍ في دورهمُ الثَّلاثة، وأيُّ لذَّةٍ ونعيمٍ في الدُّنْيَا أَطيبُ من بِرِّ القلبِ،

وسلامةِ الصَّدرِ، ومعرفةِ الربِّ تَعَالى ومحبَّتِهِ، والعملِ عَلَى موافقتِه؟!

وهل العيشُ في الحقيقةِ إلا عيشُ القلب السَّليم؟ وقَدْ أثنى الله تَعَالى عَلَى خليلِهِ عَلَيْهِ السَّلام بسلامةِ قلبِهِ فقال: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

ولا تتمُّ له سلامتُه مُطلقًا حَتَّى يسلَم من خَمسةِ أشْيَاء: مِن شركٍ يُناقضُ التوحيد، وبدعةٍ تُخالفُ السُّنَّة، وشهوةٍ تُخالِفُ الأمرَ، وغفلةٍ تُناقِضُ الذِّكرَ، وهوًى يُناقِض التجريدَ والإخلاص.

وهذه الخمسةُ حجبٌ عن الله، وتحتَ كُلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ، تتضمَّنُ أفرادًا لا تنحصِرُ.

ولذلك اشتدت حاجةُ العبدِ، بل ضرورتُه إلى أن يسأل الله أن يهديَهُ الصِّراطَ المستقيمَ، فليس العَبدُ أحوجَ مِنه إلى هذه الدعوةِ، وليس شيءٌ أنفعَ له مِنها.

فمِن أعظمِ عقوبَاتِ الذُّنوبِ الخروجُ عن الصِّراطِ المستقيمِ في الدُّنْيَا والآخرة. ا.هـ.



الخطبة السادسة والعشرون بعد المائة:

[٦] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي

أسرار التوبة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذُكر قَبلُ: أن من أقوال الصَّالحات - التي تُكتب بماء الذَّهب - قول زُبدة أُخت بِشر الحافي رَحِمها الله: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأَخَفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرأ أَثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وتحدَّثنا بفضل الله تَعَالى فيما سبق عن عقوبات المعاصي، وبقي الحديث عن التَّوبة.

فالتَّوبة تَجُبُّ ما قَبلها، ويدرأ الإنسان بها ثِقَل الذُّنوب. قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كُلُّ مَنْ تاب إليَّ تُبْتُ عليه من أيِّ ذنب كان، حتى إنه تَعَالى تاب على من عَبَدَ العِجل من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عمَّا كان فيه مِن كُفرٍ أو شِركٍ، أو نفاقٍ أو معصية.

وقوله: ﴿وَآمَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ عن ابن عباس: أيّ: ثُمَّ لم يُشَكِّك.

وقال سعيد بن جبير: أي: استقام على السُّنة والجماعة. وقال قتادة: أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: أي: علم أن لهذا ثوابًا.

و﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]. ا.هـ[(١)].

عباد الله...

ولأهمية التَّوبة، نفرد لها حديثًا خاصًّا، والله المُستعانُ، وعليه التُكلان، ولا حول ولا قوَّة إلا به.

ولقد وقعت عَيْنَاي عَلَى كَلام طَيِّب للإمام المُبارك ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - عن «**مقام التوبة**»، أفاد فيه وأجاد[(٢)]، ولأهميته أذكره لكم بعد اختصاره، وأسأل الله التوفيق.

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «ومنزل التَّوبة أوَّل المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يُفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى المات، وإن ارتحل إلى منزلٍ آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك وقد قال الله تَعَالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وهذه الآية في سورة مدنيّة خَاطَبَ الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي إيذانًا

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٤).

(٢) انظر «مدارج السَّالكين»، «مقام التوبة».

بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم.

قال تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، قسَّم العباد إلى تائبٌ وظالمٌ، وما ثَمَّ قسمٌ ثالث ألبتة، وأوقع اسم الظالم على مَن لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «... إنِّي لأستغفر الله في اليَوم مائة مَرَّةً»[(١)].

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ إنَّك أنت التَّواب الغَفُور» مائة مرة[(٢)]، وما صلى صلاة قطّ بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١]، إلى آخرها إلا قال فيها: «سُبْحَانك اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمدك اللَّهُمَّ اغْفِر لي»[(٣)]، وصح عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ منه وفَضل»[(٤)].

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

عباد الله...

وشرائط التوبة ثلاثة:

الندم، والإقلاع، والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يُعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

---

(١) رواه أحمد في «المسند»، ومسلم وغيرهما.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢٢)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وغيرهم.

(٣) رواه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (١٠٦٦)، وغيرهما.

(٤) رواه مسلم (٦٩٧٣).

وَلَـمَّا كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأمَّا النَّدم: فإنَّهُ لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه وفي «المسند»: «**الندم توبة**»(١).

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الإعتذار: أراد بالإعتذار: إظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدوّ، وقوَّة سُلطان النَّفْس، وأنَّهُ لم يكن منِّي ما كان عن استهانة بحقِّك، ولا جَهلًا به، ولا إنكارًا لإطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان مِن غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك واتِّكالًا على عفوك وحُسن ظنٍ بك، ورجاء لكرمك وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك، وغرَّني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي عليَّ، وأعانني جَهلي، ولا سبيل إلى الإعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للإستعطاف والتذلل والإفتقار والإعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل والله يحب من عبده أن يتملق له.

وفي الصحيح: «**لا أحد أحبُّ إليه العُذر من الله**»(٢)، وإن كان معنى ذلك الإعذار كما قال في آخر الحديث: «**مِن أجل ذَلِكَ أرسَلَ الرُّسل مُبشرِين ومُنذرِين**» وقال تَعَالى: ﴿ **فَالْـمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** ﴾ [المرسلات: ٥، ٦]، فإنَّهُ مِن تمام عَدلِه وإحسانه: أن أعذر إلى عبادِهِ وأنْ لا يُؤاخِذ ظَالمهم إلَّا بعد كمال الأعذار وإقامة الحجة عليه، فهو أيضًا يُحب مِن عبده أن يعتذر إليه ويتنصّل إليه من ذنبه.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مِمَّا كان قبلها.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣٥٦٨)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٩ :١٥١).

ومنها: أَنَّهُ لايزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]. فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوعٍ، ولا رياضة، ولا حب مجرّد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرَّب كسرةً تامّة قَدْ أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربّه طريحًا ذَليلًا خاشعًا كحال عبدٍ جان آبق مِن سيِّده، فأُخذ فَأُحضر بين يديه ولم يجد من يُنجيه مِن سطوته ولم يَجِد منه بُدًّا ولا عنه غناء ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته هذا مع حبه لسيِّده وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقُوّة سيِّده وذُله وعِزّ سيِّده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقر به بها من سيده فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والإستسلام له.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليَتّهِم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى، وما عالج الصادق بشيء أشقّ عليه من التوبة الخالصة الصَّادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله» ا.هـ.

عباد الله...

واعلموا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وتعالى يُحِبُّ توبة التائب، ويفرح بها، مَعَ غِناه عنَّا، وحاجتنا إليه.

اسمعُوا إلى هذا الحديث الجليل:

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ

عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ» [١].

وفي الحديث من قواعد العلم: أنَّ اللَّفظ الذي يجري على لسان العبد خطأً مِن فرح شديد أو غيظ شديد، ونحوه لا يؤاخذ به، ولهذا لم يكن هذا كافرًا بقوله: «أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»

ومعلومٌ أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال أو أعظم منها فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام ولا يقع طلاقه بذلك ولا ردته، وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق في قوله ﷺ: «**لا طلاق في إغلاق**» [٢]، بأنه الغضب، وفسَّره به غير واحد من الأئمة وفسروه بالإكراه والجنون.

قال شيخنا: وهو يعم هذا كله وهو من الغلق لانغلاق قصد المتكلم عليه، فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعز جلاله.

وقد كان الأولى بنا طِي الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم، ونهاية أقدامهم من المعرفة وضعف عقولهم عن احتماله.

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها، ومن هو عارف بقدرها، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفًا بها، فَرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فاعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختصّ نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله

---

(١) رواه مسلم (٦٨٢٦).

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٦/ ٢٧٦)، وأبو داود (٢١٩٣)، وغيرهما.

وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصّه مِن معرفته ومحبّته وقربه، وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخَّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حَتَّى ملائكته الذين هم أهل قُربه استخدمهم له وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه وأرسله وأرسل إليه وخاطبه وكلمه منه إليه، واتّخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره ومحل حكمته وموضع حبه، وخلق لهم الجَنَّة والنار، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهي وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين واتخذه عدوًّا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البريّة على الإطلاق، وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه وليتواتر إحسانه إليه، وليخصّه من كرامته وفضله، بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة، العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتَّخذه محبوبًا له وأعدَّ له أفضل ما يعدّه مُحب غني قادر جوَّاد لمحبوبه، إذا قَدِمَ عليه وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقرّبه إليه ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له دون وليّهم ومعبودهم الحقّ، واستقطع عباده واتَّخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربّهم وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ويسبونه ويكذبونه ويفتنون أولياءه ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرَّفه بهذا العدوّ وطرائقهم وأعمالهم وما هم، وحذَّره مُوالاتهم والدُّخول في زُمْرَتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أَنَّهُ أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الرَّاحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأَنَّهُ قَدْ أفاض على خلقه النّعمة وكتب على نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده والخير كله منه، والجود كله له، وأحبّ ما إليه أن يَجُود على عباده ويوسعهم فَضلًا ويغمرهم إحسانًا وجودًا، ويتم عليهم نعمته، ويضاعف لديهم منته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجوَّاد لذاته، وجود كل جوَّاد خلقه الله، ويخلقه أبدًا: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجوَّاد على الإطلاق إلا هُو وجود كل جَوَّاد، فمن جُوده ومَحبَّته للجود والإعطاء والإحسان والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه، ويأخذه أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطيّة والنَّفع بها فما الظن بفرح المعطي، ففرح المعطي سُبْحَانَهُ بَعَطائه أشدّ وأعظم مِن فرح هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلى، إذ هذا شأن الجوَّاد مِن الخلق فإِنَّهُ يحصل له مِن الفرح والسرور والإبتهاج واللَّذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه عن لذة المعطي وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه والتعرّض لذل الاستعانة بنظيره، ومن هو دونه ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدَّس وتنزَّه عن ذلك كله، ولو أن أهل سماواته وأرضه وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد ما سأله ما نقص ذَلِكَ مِمَّا عِنده مثقال ذرة.

وهو الجوَّاد لذاته كما أنه الحيّ لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام، والرَّحمة أحبُّ إليه مِن العقوبة، والفضل أحبُّ إليه مِن العدل، والعطاء أحبُّ إليه مِن المنع.

فإذا تعرَّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه وأعدَّ له أنواع كرامته وفضله على

غيره وجعله محل معرفته وأنزل إليه كتابه وأرسل إليه رسوله واعتنى بأمره ولم يهمله ولم يتركه سُدًى، فتعرض لغضبه وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالى عدوّه وظاهره عليه، وتحيّز إليه، وقطع طريق نعمهِ وإحسانهِ إليه التي هي أحبُّ شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام، فقد استدعى مِن الجوَّاد الكريم خِلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه وانتقامه، وعقوبته في موضع كرمه، وبرّه وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سِواه أحبّ إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرّب المخصوص بالكرامة، إذا انقلب آبقًا شاردًا رادًّا لكرامته مائلًا عنه إلى عدوه مع شدّة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدوّ في طاعته وخدمته ناسيًا لسيِّده منهمكًا في موافقة عدوه، قد استدعى من سيِّده خلاف ما هو أهله، إذ عرضت له فكرة فتذكَّر برّ سيِّده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أَنَّهُ لا بد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه وأَنَّهُ إن لم يقدم عليه بنفسه قَدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيِّده مِن بلد عدوّه وجد في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه وتوسّد ثرى أعتابه متذللًا مُتضرعًا خَاشعًا بَاكِيًا آسِفًا يتملق سيِّده ويسترحمه ويستعطِفه ويعتذرَ إليه، قَدْ ألقى بيده إليه واستسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيِّده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضًا عنه، ومكان الشِّدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيِّده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيِّده به وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختيارًا، وراجع ما يحبه سيِّده منه برضاه وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيِّده مِن طريق الغضب والانتقام والعقوبة.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أَنَّهُ حصل له شُرود وإباق من سيِّده، فرأى في بعض السكك بابًا قَدْ فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأُمّه خلفه تطرده حَتَّى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم

وقف مفكرًا فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يُؤيه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مرتجا فتوسّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أُمّه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه والتزمته تُقبله وتبكي وتقول: يا ولدي أين تذهب عنِّي ومَن يُؤيك سواي؟ ألم أقل لك لا تخالفني؟ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمل قوله ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[(١)]. وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأوْلى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سِرّ فَرَحَ الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة وتدق عن إدراكه الأذهان.

هذا إذا نظرت إلى تعلّق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودًا فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه وإنما يشهده خواص المحبين، فإن الله سُبْحَانَهُ إنما خلق لعبادته الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر، ونفيه كما يقول أعداؤه هو الباطل، والعبث الذي نزَّه الله نفسه عنه، وهو السدى الذي نزَّه نفسه عنه أن يترك الإنسان عليه، وهو سُبْحَانَهُ يُحبّ أن يُعبد ويُطاع ولا يَعبأ بِخلقه شيئًا لولا محبتهم له وطاعتهم له ودعاؤهم له.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وقَدْ أنكر على مَن زعم أنَّهُ خلقهم لغير ذَلِكَ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثًا وبَاطلًا وسُدًى، وذلك مِمَّا يَتعَالى عنه أحكم الحاكمين والإله الحقّ، فإذا خرج العبد عما خُلق له مِن الطاعة والعبودية، فقد خَرَجَ عن أحبّ الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خُلقت الخليقة وصار كأنه خلق عبثًا لغير شيء، إذ لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها بل قلبته شَوكًا ودغلًا، فإذا راجع ما خُلق له وأوجد لأجله، فقد رجع إلى الغاية التي هي أحبّ الأشياء إلى خالقه وفاطره ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل، فاشتدت محبّة الرَّب له، فإنَّ الله يُحبُّ التَّوابين ويُحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النَّبيّ ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده، وهذا كشدة محبّته لتوبة التائب المحبّ إذا اشتدت محبّته للشيء وغاب عنه، ثُمَّ وجده وصار طَوع يَده فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حُبًّا شَديدًا أسره عدوّك وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أنَّ العدو سَيَسُومه سُوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أوْلى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوّه ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويستعينك ويمرغ خديه عَلَى تُراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه؟

هذا، ولست الذي أوجدته وخلقته وأسبغت عليه نعمك، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وكوّنه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يُحب أن يُتمّها عليه فيصير مظهرًا لنعمه قابلًا لها شاكرًا لها، مُحبًّا لوليها، مُطيعًا له، عابدًا له، مُعاديًا لعدوّه، مُبغضًا له، عاصيًا له، والله تعالى يُحبّ مِن عبده معاداة عدوّه ومعصيته ومخالفته، كما يُحب أن يُوالى الله مولاه سُبْحَانَهُ ويطيعه ويعبده، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوّه ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبَّة منه سُبْحَانَهُ مع حُصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح.

فيضحك سُبْحَانَهُ فرحًا ورضًا، كما يضحك مِن عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته يتلو آياته ويتملّقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدوّ فأقبل إليه وباع نفسه لله، ولقاهم نحره حَتَّى قُتل في محبّته ورِضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرًّا حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه، فهذا الضحك منه حُبًّا له وفرحًا به، وكذلك الشَّهيد حين يلقاه يوم القيامة فيضحك إليه فرحًا به وبقدومه عليه.

وليس في إثبات هذه الصفات محذور ألبتة، فإنه «فرح» ليس كَمِثله شيء، وضحك ليس كمثله شيء، وحُكمِه حُكم رِضاه ومحبّته وإرادته وسائر صفاته، فالباب بابٌ واحد، لا تمثيل ولا تعطيل». ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة: مَن تابَ إلى الله توبة نَصوحًا، تَابَ الله عليه برحمته وكرمه، وهذا ما يغيظ الشيطان الرجيم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِي الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**قَالَ إِبْلِيسُ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِى عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَـهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى**» [(١)].

۞۞۞۞۞

---

(١) حسن: رواه أحمد والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» (١٦٥٠).

الخطبة السابعة والعشرون بعد المائة:

[٧] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

أحكام تتعلّق بالتوبة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «**التوبة**»...

ونتكلَّم في هذه الخُطبة إن شاء الله تَعَالى عن أحكام تتعلق بالتوبة، تشتد الحاجة إليها، ولا يَليق بالعبد جهلها.

والله المستعان وعليه التكلان.

عباد الله...

من هذه الأحكام:

أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مِمَّا يعلم من ذنوبه ومِمَّا لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله، إذا كان متمكنًا من العلم فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشدّ.

وفي «صحيح ابن حبان»: أن النَّبيّ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ**»[(١)].

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد، وفي الصحيح عنه ﷺ: أَنَّهُ كان يدعو في صلاتِهِ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَايَ وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**»[(٢)]. «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْت أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[(٣)].

وفي الحديث الآخر: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وعَلاَنِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ**

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، من حديث أبي موسى الأشعري، قال: خطبنا رَسُولُ الله ﷺ ذات يوم فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ».

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٩)، وأحمد (٤/ ٤١٧).

(٣) رواه مسلم (١٧٨١)، وأحمد (١/ ٩٤ - ١٣٠)، وغيرهما.

وَآخِرَهُ»[(١)].

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

عباد الله...

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد رَضِيَ الله عَنْهُ ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها، كالنووي وغيره.

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره، لقوته ونفاذه وحصوله تبعًا بإسلام الأبوين أو أحدهما للطفل، وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه أو بموت أحد أبويه في أحد القولين، وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلمًا في أحد القولين أيضًا، وذلك لقوته وتشوف الشرع إليه حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية.

واحتج الآخرون بأن التوبة: هي الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته، وأي رجوع لمن تاب من ذنب واحد وأصر على ألف ذنب.

قالوا: والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته وتاب توبة نصوحًا، والمصر على مثل ما تاب منه أو أعظم، لم يراجع الطاعة ولم يتب توبة نصوحًا.

قالوا: ولأن التائب إذا تاب إلى الله فقد زال عنه اسم العاصي، كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم الكافر، فأما إذا أصر على غير الذنب الذي تاب منه فاسم المعصية لا يفارقه فلا تصح توبته.

وسر المسألة أن التوبة: هل تتبعض كالمعصية فيكون تائبًا من وجه دون وجه كالإيمان والإسلام؟

والراجح: تبعضها، فإنها كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضًا آخر، لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله فهكذا إذا

(١) رواه مسلم (١٠٦٥)، وأبو داود (٨٧٨)، دون قوله: «خطأه وعمده».

تاب من ذنب وأصر على آخر؛ لأن التوبة فرض من الذنبين فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر فلا يكون ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد معناه الإقلاع عما يكرهه الله والندم عليه والرجوع إلى طاعته، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة إذ هي عبادة واحدة، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون: كل ذنب له توبة تخصه، وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

والذي عندي في هذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه: فتصح، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلًا، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس إما لأن وزرها أخف وإما لغلبة دواعي الطبع إليها وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة لا يحتاج إلى استدعائها بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه فلا يدعونه يتوب منها وله بينهم حظوة بها، وجاه فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، كما قال أبو نواس لأبي العتاهية وقد لامه على تهتكه في المعاصي:

أتراني يا عتاهي تاركًا تلك الملاهي؟
أتراني مفسدًا بالنـ ـك عند القوم جاهي؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس وسرقة أموال المعصومين وأكل أموال اليتامى ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة: صحّت توبته مما تاب منه ولم يؤاخذ به، وبقي مؤاخذًا بما هو مُصر عليه، والله أعلم.

عباد الله...

وللتوبة أحكام: فمن أحكام التوبة:

هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبدًا أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض النَّاس عدم معاودة الذنب وقال: متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها ثم تاب منها توبة نصوحًا خالصة: عادت إليه حسناته ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها، بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير فإن الحسنات التى فعلها فى الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره: مِن عتاقة وصدقة وصلة، وقد قال حَكِيم بْنِ حِزَام: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أُمُوراً كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِى الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عَتَاقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ، هَلْ لِىَ فِيهَا أَجْرٌ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**»(١).

وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة وصارت كأنها لم تكن فتلاقت الطاعتان واجتمعتا، والله أعلم.

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية وعجز عنها، بحيث

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٠)، ومسلم (٣١٦)، وأحمد (٣/ ٤٠٢).

يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا جب، والسارق إذا أتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

ففي هذا قولان للناس: فقالت طائفة: لا تصح توبته؛ لأن التوبة إنما تكون ممَّن يمكنه الفعل والترك، فالتوبة من الممكن لا من المستحيل ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها وتنشيف البحار والطيران إلى السماء ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك المحمول عليه قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم: أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة ولا يحمدون عليها، بل يسمونها توبة إفلاس وتوبة جائحة.

قَالَ الشاعر:

ورحـــت عـــن تـــوبة ســـائلاً وجـــــدتها تـــــوبة إفـــــلاس

قالوا: ويدلُّ على هذا أيضًا: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلَّت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع، لأنها توبة ضرورة لا اختيار، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّـهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَـهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

والجهالة ههنا: جهالة العمل وإن كان عالما بالتحريم، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السّدىّ والكلبىّ: أن يتوب فى صحته قبل مرض موته، وفي «المسند» وغيره عن ابن عمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا عن النَّبيّ

ﷺ قال: «**إنَّ الله يَقبَلَ تَوبة العَبْد مَا لم يُغَرْغِر**»(١).

فهذا شأن التائب من قريب، وأما إذا وقع في السياق فقال: ﴿ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ لم تقبل توبته، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة: هي كفّ النَّفْس عن الفعل الذى هو متعلّق النَّهي، والكفّ إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال: فلا يعقل كفّ النَّفْس عنه، ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب وهذا لا يتصور منه الإيقاع حَتَّى يتأتى منه الإقلاع.

قالوا: ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور، والتوبة منه: عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال، والترك في حق هذا ضروري، لا عزم غير مقدور، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال وغير ذلك.

والقول الثاني: - وهو الصواب- أن توبته صحيحة ممكنة - بل واقعة - فإن أركان التوبة مجتمعة فيه، والمقدور له منها الندم، وفي المسند مرفوعًا «**الندم توبة**»(٢) فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه، فهذه توبة، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا، والفعل مقدورًا له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته، كقوله في الحديث الصحيح: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»(٣)، وفي الصحيح أيضًا عنه: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»، قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»(٤) وله نظائر في

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد (٢: ١٣٢)، وغيرهما.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٧٦)، وأبو يعلى (٤٩٦٩)، وغيرهما.

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٦)، وأحمد (٤/ ٤١٠).

(٤) رواه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (٤٨٤٩).

الحديث، فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهرًا - مع نيته تركها اختيارًا لو أمكنه- منزلة التارك المختار أولى.

يوضحه: أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلاً وعزمًا، والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضًا فإن هذا تعذر منه الفعل ما تعذر منه التمني والوداد، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته: أنه لو كان سليمًا لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن على فوته، فإن الإصرار متصور في حقه قطعًا، فيتصور في حقه ضده، وهو التوبة بل هي أولى بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعاين، ومن ورد القيامة: أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصور منه عن التمني والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله. والله أعلم». ا.هـ.

وللحديث بقية ستأتي بعد قليل إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن أحكام التوبة:

أنَّ من توغل في ذنب وعزم على التوبة منه ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه، كمن أولج في فرج حرام ثم عزم على التوبة قبل النزع الذي هو جزء الوطء، وكمن توسط أرضا مغصوبة ثم عزم على التوبة، ولا يمكنه إلا بالخروج الذى هو مشى فيها وتصرف، فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله، وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام؟

فهذا مِمَّا أشكل على بعض النَّاس، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه في هذا الفعل الذي يتخلص به من الحرام.

قال: لأنه لا يمكن أن يكون مأمورًا به وهو حرام، وقَدْ تعين في حقّه طريقًا للخلاص من الحرام لا يمكنه التخلص بدونه، فلا حكم في هذا الفعل ألبتة وهو بمنزلة العفو الذي لا يدخل تحت التكليف.

وقالت طائفة: بل هو حرامٌ واجبٌ فهو ذو وجهين: مأمور به من أحدهما، منهيٌّ عنه من الآخر. فيؤمر به من حيث تعينه طريقًا للخلاص من الحرام، وهو من هذا الوجه واجب، وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام، وهو من هذا الوجه محرم، فيستحق عليه الثواب والعقاب.

قالوا: ولا يمتنع كون الفعل في الشرع ذا وجهين مختلفين، كالاشتغال عن الحرام بمباح، فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته مع قطع النظر عن ترك الحرام، قضينا بإباحته وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركًا للحرام كان واجبًا.

نعم، غايته: أَنَّهُ لا يتعين مباح دون مباح فيكون واجبًا مخيرًا.

قالوا: وكذلك الصلاة في الدَّار المغصوبة هي حرام، وهي واجبة، وستر العورة بثوب الحرير كذلك: حرام واجب من وجهين مختلفين.

والصواب: أن هذا النزع والخروج من الأرض: توبة ليس بحرام، إذ هو مأمور به، ومحال أن يؤمر بالحرام، وإنما كان النزع الذي هو جزء الوطء حرامًا بقصد التلَذّذ به وتكميل الوطء، وأما النزع الذي يقصد به مفارقة الحرام وقطع لذّة المعصية فلا دليل على تحريمه لا من نص ولا إجماع ولا قياس صحيح، يستوي فيه الأصل والفرع في علة الحكم.

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها، وحكمه فيها: الأمر بالنزع قطعًا وإلا كانت الاستدامة مباحة، وذلك عين المحال، وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة: مأمور به وإنما تكون الحركة والتصرف في ملك الغير حرامًا إذا كان على وجه الانتفاع بها المتضمن لإضرار مالكها، أما إذا كان القصد ترك الانتفاع وإزالة الضرر عن المالك فلم يحرم الله ولا رسوله ذَلِكَ، ولا دل على تحريمه نظر صحيح ولا قياس صحيح.

وقياسه على مشي مستديم الغصب، وقياس نزع التائب على نزع المستديم: من أفسد القياس وأبينه بطلانًا، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان، ولكن إذا تحقق النهي عنه والأمر به: أمكن اعتبار وجهيه فإن الشارع أمر بستر العورة ونهى عن لبس الحرير، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين فصار فعله ذا وجهين.

وأما محل النزاع: فلم يتحقق فيه النهي عن النزع والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع ألبتة لا بقوله ولا بمعقول قوله إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر بينهما أشد تباين وأعظم فرق في الحس والعقل والفطرة والشرع.

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو: فإن أريد به أنه: معفو له عن المؤاخذة به فصحيح، وإن أريد أنه لا حكم لله فيه بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم والناسي والمجنون: فباطل إذ هؤلاء غير مخاطبين، وهذا مخاطب بالنزع والخروج، فظهر الفرق، والله الموفق للصواب.

فإن قيل: هذا يتأتَّى لكم فيما إذا لم يكن فى المفارقة بنزع أو خروج مفسدة، فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة، مثل مفسدة الإقامة كمن توسط جماعة جرحى لسلبهم فطرح نفسه على واحد إن أقام عليه قتله بثقله، وإن انتقل عنه لم يجد بُدًّا من انتقاله إلى مثله، يقتله بثقله وقد عزم على التوبة فكيف تكون توبته؟

قيل: توبة مثل هذا: بالتزام أخف المفسدتين من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه، فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه، فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها، وهو الندم والعزم الجازم على ترك المعاودة، وأما الإقلاع: فقد تعذر في حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته.

فقيل: إنه لا حكم لله في هذه الحادثة لاستحالة ثبوت شيء من الأحكام الخمسة فيها، إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله، فلا يؤمر بها ولا هو مأذون له فيها، وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر فلا يؤمر بالانتقال ولا يؤذن له فيه فيتعذر الحكم في هذه الحادثة، وعلى هذا فتتعذر التوبة منها.

والصواب: أن التوبة غير متعذرة، فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم، علمه من علمه وجهله من جهله.

فيقال: حكم الله في هذه الواقعة: كحكمه في الملجأ، فإنه قد أُلجئ قدرًا إلى إتلاف أحد النفسين ولابدَّ، والملجأ ليس له فعل يضاف إليه بل هو آلة، فإذا صار هذا كالملجأ فحكمه: أن لا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار، فلا يعدل من واحد إلى واحد بل يتخلى عن الحركة والاختيار، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى إذ لا قدرة له على حركة مأذون له فيها ألبتة، فحكمه الفناء عن الحركة والاختيار وشهود نفسه كالحجر الملقى على هذا الجريح، ولا سيما إن كان قد ألقى عليه بغير اختياره فليس له أن يلقي نفسه على جاره لينجيه بقتله والقدر ألقاه على الأول، فهو معذور به، فإذا انتقل إلى الثاني انتقل بالاختيار والإرادة، فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء.

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط، لا بالإقلاع، والإقلاع في حقه مستحيل، فهو كمن أولج في فرج حرام ثم شد وربط في حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع ألبتة، فتوبته بالندم والعزم والتجافي بقلبه عن السكون إلى الاستدامة، وكذلك توبة الأول بذلك وبالتجافي عن الإرادة والاختيار، والله أعلم». ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللِّقاء.



الخطبة الثامنة والعشرون بعد المائة:

[٨] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

من أحكام التوبة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فأذكِّركم بأننا ما زلنا بصدد شرح قول «زُبدة» أُخت بِشر الحافي: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأخَفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدرأ أثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وقَدْ ذكرنا فيما سبق - بفضل الله تَعَالَى - عقوبات الذنوب والمعاصي، ثم جرَّنا هذا إلى الحديث عن التوبة، وما زال الحديث موصولًا عنها، نسأل الله تَعَالَى أن يرزُقنا وإيَّاكم توبةً نصوحًا، إنه وليُّ ذَلِكَ والقادر عليه.

عباد الله...

ومن أحكام التوبة:

أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، وإن كان حقًّا ماليًا أو جناية على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لاَ يَكُونُ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ**». (١)

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه قد نال من عرضه ولا يشترط تعيينه أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله تعالى من غير إعلام من قذفه واعتابه؟ على ثلاثة أقوال، وعن أحمد روايتان منصوصتان في حدِّ القذف، هل يشترط في توبة القاذف: إعلام المقذوف والتحلل منه أم لا ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل، هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه. ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه، لاسيما إذا كان من عليه الحق عارفًا بقدره، فلابد من إعلام مستحقه به، لأنه قَدْ لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عُرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور وهو قوله: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ**».

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقَّين: حقًّا لله، وحقًّا للآدمي، فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقِّه والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقِّه.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٩).

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدَّم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا، وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدَّس الله روحه.

واحتجَّ أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقًا وغمًا، وقَدْ كان مستريحًا قبل سماعه فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله وأورثته ضررًا في نفسه أو بدنه كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيك منه سماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه، فضلًا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل، فلا يصفو له أبدًا ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شرّ الغيبة والقذف، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه فلا يجوز إخفاؤها عنه فإنه محض حقه فيجب عليه أداؤه إليه بخلاف الغيبة والقذف، فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ولم تهج منه غضبًا ولا عداوة، بل ربما سرَّه ذَلِكَ وفرح به بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلًا ونهارًا من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت والله أعلم.

عباد الله...

ومن أحكام التوبة أيضًا:

أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟ اختلف في ذَلِكَ:

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته؛ لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن والمقتضي لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته فحسنته بالتوبة رقته إليها، وهذا كمن سقط في بئر وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلًا تمسّك به حَتَّى رقي منه إلى موضعه، فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح والأخ الشفيق.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدا به للترقي.

قالوا: ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيرًا واحدًا ثم عرض لأحدهما ما رده على عقبه أو أوقفه وصاحبه سائر، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته وسار بإثر صاحبه: لم يلحقه أبدًا لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى.

قالوا: والأول يسيره بقوّة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد سيرًا ازدادت قوّته وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوّة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - يحكي هذا الخلاف ثم قال: والصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيرًا مِمَّا كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه، وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مِمَّا كان له قبل الذنب عاد خيرًا مِمَّا كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد

إلى مثل حاله وإن كان دونه لم يعد إلى درجته وكان مُنحطًّا عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة ويتبيَّن هذا بمثلين مضروبين:

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن، فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى، فبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل وماء بارد ومقيل وروضة مزهرة، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها فوثب عليه منها عدوّ فأخذه وقيَّده وكتَّفه ومنعه عن السير، فعاين الهلاك وظن أنَّهُ منقطع به، وأنَّهُ رزق الوحوش والسباع، وأنَّهُ قَدْ حِيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه، فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدوّ فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد، واعلم أنك ما دمت حاذرًا منه متيّقظًا له لا يقدر عليك، فإذا غفلت وثب عليك وأنا متقدّمك إلى المنزل وفرط لك، فاتبعني على الأثر.

فإن كان هذا السائر كيِّسًا فطنًا لبيبًا حاضر الذِّهن والعقل، استقبل سيره استقبالًا آخر أقوى من الأول وأتمّ واشتد حذره، وتأهَّب لهذا العدوّ وأعدّ له عُدّته، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيرًا منه، ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوّه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوّة حذر ولا استعداد عاد كما كان، وهو معرض لما عُرِّض له أولا.

وإن أورثه ذلك توانيًا في سيره وفتورًا وتذكُّرًا لطيب مقيله، وحُسن ذَلِكَ الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكونًا بقلبه إليه: لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبدٌ في صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له حميّة وشَرِب دواء وتحفظًا من التخليط، ونقص بذلك مادة رديّة كانت منقصة لكمال قوّته وصحته، فعاد بعد المرض أقوى مِمَّا كان قبله كما قيل:

لعــل عَتــبك محمــود عواقــبه ورُبَّمــا صَــحَّت الأجــسَامُ بالعِلَــل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفًا في القوّة وتداركه بمثل ما نقص من قوّته، عاد إلى مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوّته عاد إلى دون ما كان عليه من القوة. وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

ويتبيَّن هذا بمسألة شريفة وهي أَنَّهُ: هل المطيع الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحًا أو هذا التائب أفضل منه؟

اختلف في ذلك فطائفة رجَّحت مَن لم يعص على مَن عصى وتاب توبة نصوحًا، واحتجوا بوجوه:

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله وهذا الذي لم يعص أطوع فيكون أفضل.

الثاني: أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق فتكون درجته أعلى من درجته وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه وذاك في سير آخر فأنى له بلحاقه فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب، كلما كسب أحدهما شيئا كسب الآخر مثله، فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه وأمسك عن الكسب المستأنف، والآخر مُجد فى الكسب فإذا أدركته حمية المنافسة وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئًا كثيرًا، فلا يكسب شيئًا إلا كسب صاحبه نظيره فأنى له بمساواته.

الثالث: أن غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعي من سعي من هو كاسب رابح.

الرابع: أنَّ الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدّة اشتغال هذا بالذنوب: كان حظَّه المقت، وحظّ المطيع الرضا، فالله لم يزل عنه راضيًا، ولا ريب أن هذا خير مِمَّن كان الله راضيًا عنه، ثم مقته ثم رضى عنه، فإن الرضى المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية وصحة وعافية مستمرة: خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبدًا.

السادس: أنَّ العاصي على خطر شديد فإنَّهُ دائر بين ثلاثة أشياء:

أحدها: العطب والهلاك بشرب السم.

الثاني: النقصان من القوة وضعفها إن سلم من الهلاك.

والثالث: عود قوّته إليه كما كانت أو خيرًا منها بعيد.

والأكثر: إنما هو القسمان الأولان، ولعل الثالث نادر جدًّا، فهو على يقين من ضرر السم وعلى رجاء مِن حصول العافية بخلاف مَن لم يتناول ذَلِكَ.

السابع: أنَّ المطيع قَدْ أحاط على بُستان طاعته حائطًا حصينًا لا يجد الأعداء إليه سبيلًا، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبدًا، والعاصي قَدْ فتح فيه ثغرًا، وثلم فيه ثلمة، ومكَّن منه السراق والأعداء فدخلوا فعاثوا فيه يمينًا وشمالًا: أفسدوا أغصانه وخرَّبوا حيطانه وقطعوا ثمراته وأحرقوا فى نواحيه وقطعوا ماءه ونقصوا سقيه، فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول فإذا تداركه قيمه ولم شعثه وأصلح ما فسد منه وفتح طرق مائه وعمَّر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيرًا، ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه بل في زيادة ونمو وتضاعف ثمرة وكثرة غرس.

والثامن: أنَّ طمع العدوّ في هذا العاصي إنَّما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمّى جاهلًا، قال قَتَادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، وكذلك قال الله تعالى في حق آدم: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حق غيره: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا مَن قويت عزيمته وكَمُل علمه وقويّ إيمانه: لم يطمع فيه عدوّه وكان أفضل.

التاسع: أنَّ المعصية لا بُدَّ أن تؤثر أثرًا سيِّئًا ولا بُدَّ: إمَّا هلاكا كليًّا وإما خسرانًا وعقابا يعقبه: إما عفو ودخول الجَنَّة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان، وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع فى الزيادة ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي ﷺ خاصة فإنه يعمل في زيادة الدرجات وغيره يعمل فى تكفير السَّيِّئات، وأين هذا من هذا؟

العاشر: أنَّ المقبل على الله المطيع له يسير بجمله أعماله، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة مَن سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله فسافر ثانيًا برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة أضعافه أيضًا، فسافر ثالثًا أيضًا بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك وهلم جرًّا، فإذا فتر عن السفر في آخر أمره مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه، وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله: لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله، وهو صحيح بهذا المعنى، فإنه قد فاته في مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها، وهو أزيد من الربح المتقدم، فإذا كان هذا حال من أعرض فكيف من عصى وأذنب؟ وفي هذا الوجه كفاية.

وطائفة رجَّحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه، واحتجت بوجوه:

أحدها: أن عبوديّة التوبة مِن أحبّ العبوديات الى الله وأكرمها عليه، فإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُحبُّ التوابين، ولو لم تكن التوبة أحبّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة يوضح ذَلِكَ:

الوجه الثاني: أنَّ للتوبة عنده سُبْحَانَهُ منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سُبْحَانَهُ بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مَثَّله النَّبيّ ﷺ بِفَرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدويّة المهلكة بعد ما فَقدهَا وأَيسَ مِن أسباب الحياة، ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو مِن أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية فيصير حبيبًا لله، فإنَّ الله يُحبُّ التوابين ويُحبُّ العبد المفتن التوَّاب، ويوضحه:

الوجه الثالث: أنَّ عبودية التوبة فيها من الذّل والانكسار والخضوع والتملّق لله والتذَّلل له ما هو أحبّ إليه مِن كثير مِن الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذّل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها يوضحه:

الوجه الرابع: أنَّ حصول مَراتب الذّل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قَدْ

شارك مَن لم يذنب في ذلّ الفقر والعبودية والمحبّة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سُبْحَانَهُ أقرب ما يكون الى عبده عند ذله وانكسار قلبه، ولأجل هذا كان «**أقرب ما يَكُون العبد مِن ربّه وهو سَاجِد**»[١]، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربّه.

وتأمَّل قول النَّبيّ ﷺ فيما يَروى عن ربّه عَزَّ وَجَلَّ أنَّهُ يَقُولُ يَوْمَ القِيامة: «**يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»[٢].

فقال في عيادة المريض: «**لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**»، وقال في الإطعام والإسقاء: «**لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»، ففرَّق بينهما، فإنَّ المريض مكسور القلب ولو كان من كان فلا بُدَّ أن يكسره المرض، فإذا كان مُؤمنًا قَدْ انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا، والله أعلم، هو السّرّ في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم والمسافر والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم، فإن غربة المسافر وكسرته مِمَّا يجده العبد في نفسه، وكذلك الصوم فإنه يكسر سورة النَّفْس السبعيّة الحيوانية ويذلها.

والقصد: أنَّ شمعة الجبر والفضل والعطايا، إنما تنزل في شمعدان الانكسار، وللعاصي التائب من ذلك نصيب أوفر نصيب يوضحه:

الوجه الخامس: أنَّ الذنب قَدْ يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السَّلف: قَدْ يعمل العبد الذنب فيدخل به الجَنَّة ويعمل الطاعة فيدخل بها النار. قالوا: وكيف ذَلِكَ؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى: ذكر ذنبه فيحدث له إنكسارًا، وتوبة واستغفارًا

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٤)، وأحمد (٢/ ٤٢١)، وغيرهما.

(٢) رواه مسلم (٦٤٣٤).

وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجبًا وكِبرًا ومِنّة، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذنب موجبًا لترتب طاعات وحسنات ومعاملات قلبية من خوف الله والحياء منه والإطراق بين يديه منكّسًا رأسه خجلاً باكيًا نادمًا مستقبلًا ربّه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة وكبرًا وازدراء بالناس ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله وأقرب إلى النجاة، والفوز من هذا المعجب بطاعته الصائل بها المان بها، وبحاله على الله عَزَّ وَجَلَّ وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويخضعوا له ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذَلِكَ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامنًا، ولهذا تراه عاتبًا على مَن لم يعظمه ويعرف له حقّه، متطلبًا لعيبه في قالب حمية لله وغضب له، وإذا قام بمن يعظّمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء، وأغمض عنه عينه وسمعه وكفّ لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود، وربما ظن أن ذنوب مَن يُعظّمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ألقاه في ذنب يكسره به ويعرفه قدره ويكفي به عباده شره وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال.

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وهذا مِن أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: ما رأيت النَّبيّ ﷺ فرح بشيء قطّ فرحه بهذه الآية لَـمَّا أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّـهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح: ١، ٢].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدُّنْيَا أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزّنا عفة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة عوضها صفات جميلة وأعمالا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيَّب وغيره من التَّابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتجّ أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في «جامعه» عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا».

قَالَ أبو ذرٍّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[(١)].

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب، والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به

---

(١) وهو كما قال، رواه الترمذي (٢٥٩٦).

ودقته، وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلابد إذًا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا عُلم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار، فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول، يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، وَالندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها، يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة

عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة، وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله اخبئوا عنه كبارها فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البرّ اللَّطيف، المتودّد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرَّحمن الرَّحيم». ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فكثير من الناس إنَّما يُفَسّر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع، وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه، بعض مسمى التوبة بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله - كما تتضمن ذلك - تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة التقوى التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر.

ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، وقال تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١١]، وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا، فالتائبون هم ﴿ **التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ١١٢]، فحفظ

حدود الله: جزء التوبة.

والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذًا التوبة هي حقيقة دين الإسلام والدين كله داخل في مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه فإذا التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان وتتناول جميع المقامات ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته كما تقدم وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر والتوحيد جزء منها بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها».ا.هـ.

وللحديث بقية فإلى اللِّقاء إن شاء الله.



الخطبة التاسعة والعشرون بعد المائة:

[٩] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

التوبة النصوح

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن مقام التوبة، والسُّؤال المهمّ الَّذِي يحتاج إلى إجابة شافية:

ما هي التوبة النَّصوح التي يُكَفِّر الله بها السَّيِّئات، ويدخل الجنَّات؟

ويُجيب الإمام الهُمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- عن هذا السؤال في كتابه «مدارج السالكين» فيقول ما مختصره:

قَالَ الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨].

فجعل وقاية شر السيئات - وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات - وهو حصول ما يحب العبد - منوطًا بحصول التوبة النصوح، والنصوح على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة، كالشكور والصبور.

وأصل مادة (ن ص ح) خلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها، ومرجعها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال الحسن البصري هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه وقال الكلبي أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحا، تنصحون بها أنفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش، فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل، أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷿.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة.

وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلاًّ منهما منفردًا عن الآخر، فالمقترنان كقوله تعالى: حاكيًا عن عباده المؤمنين ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، والمنفرد كقوله ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾ [محمد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد: ١٥]، وكقوله: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ونظائره.

فههنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد **بالسيئات**: الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد، ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة.

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها قوله تعالى: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾ [النساء: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ** إذا

اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»[١].

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر، كما تقدم، فقوله تعالى: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ [الزمر: ٣٥].

وإذا فهم هذا فهم السّرّ في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه**»[٢]، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تف بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع» ا.هـ.

عباد الله...

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ

---

(١) رواه مسلم (٥٤١)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٠)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٦٤٤٦)، وغيرهما.

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، أخبر سُبْحَانَهُ أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولا فاهتدوا فزادهم هدى ثانيًا، وعكسه في أهل الزيغ، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم، وهذا القدر من سِرّ اسْمَيْه «الأول والآخر»، فهو المعدُّ وهو الممدُّ، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك مِنْك**»[1]، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيِّده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

عباد الله...

ويواصل الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - حديثه عن التوبة فيقول:

والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[النساء: ٣١]، وقال تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي الصحيح عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**»[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٩٦)، وأبو داود (١٤٢٧)، وغيرهما، وانظر «صحيح سنن أبي داود» (١٢٦٥).

(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

قول الجمهور: إن اللَّمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينا بعد حين فإنه يقال: ألم بكذا إذا قاربه ولم يغشه ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمما لأنها تلم بها بعدها ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما أى حينا بعد حين فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية وليس معنى الآية والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم وهذا محال وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه فان سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء وأن الله يجزى هذا بإساءته وهذا بإحسانه ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.

ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنًا مجزيًا بإحسانه ناجيًا من عذاب الله إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش فحسن حينئذ استثناء اللمم وإن لم يدخل في الكبائر فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

ففي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**».

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثا، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** - وجلس وكان متكئًا - فقال: **ألا وقول الزور**» - فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، قال** قلت: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**».

قال: قلت: ثم أي؟

قال: **أن تزاني بحليلة جارك**»[(١)]، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ عن النَّبيّ ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه**»، قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أُمّه**»[(٣)].

وقال عبد الله بن مسعود ؓ: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار وقال كل شيء عصي الله به فهو كبيرة، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بالقدر.

وقال عبد الله بن مسعود ؓ ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]، فهو كبيرة، وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٢٥١)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٢٥٦)، وغيرهما.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٤١).

ومرادهم بالحدَّين: عقوبة الدنيا والآخرة، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة والقذف، أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك، فهو من الكبائر، وصدق ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا في قوله: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع.

عباد الله...

وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمرٌ مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يعفى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: انظر إلى موسى صَلَوَاتُ الله وسَلاَمُهُ عَلَيهِ، رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجرّ بلحية نبي مثله وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربّه ليلة الإسراء في مُحَمَّد ورفعه عليه، وربّه تعالى يحتمل له ذلك ويُحبّه ويكرمه ويدلله، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضب ربّه مرة فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى وفرَّق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد … جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد، قال تعالى عن ذي النون: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، قال له جبريل: ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك، لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له، ويسامحه مالا يسامح به المشرك، وكما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا البتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه.

عباد الله...

وإلى هنا انتهى كلام الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - وهو كلام كما سمعتم يُكتب بماء الذَّهب، لذا ذكرناه بعد اختصاره. والله الموفق لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وممَّا ينبغي أن يُعلم أن هُناك فرقًا بين الاستغفار والتوبة:

وأما الاستغفار فهو نوعان، مفرد ومقرون بالتوبة، فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠، ١١]، وكقول صالح لقومه: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦].

وكقوله تعالى ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّـهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، والمقرون كقوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَـهُ ﴾ [هود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا، ولا القبع ونحوه مع ستره، فلابد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّـهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا: فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله

إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فههنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما مرتبًا بقوله ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا: فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم» ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللِّقاء.



الخطبة الثلاثون بعد المائة:

[١٠] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي

متى يستحق العبد اسم التائب؟

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فأذكركم بأننا - بفضل الله تَعَالَى - ما زلنا بصدد شرح قول «زُبدة» أُخت بشر الحافي رحمهما الله: أثقلُ شيء عَلَى العَبد الذُّنوبُ، وأخَفُّه عليه التَّوبة، فَمَا لَهُ لا يَدْرأ أَثْقَلَ شَيءٍ بأخفِّ شيءٍ؟!

وقَدْ ذكرنا فيما سبق عقوبات المعاصي، ثم جرَّنا هذا الحديث عن التوبة، وما زال الحديث موصولًا عنها.

وأتحدَّث اليوم إن شاء الله عن: **أجناس ما يُتَابُ منه، ولا يستحق العَبد اسم التائب حَتَّى يتخلَّص منها**. وأسأل الله التوفيق.

عباد الله...

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - في كتابه «مدارج السالكين» ما مختصره:

فصلٌ: في أجناس ما يُتاب منه، ولا يستحق العبد اسم التائب حَتَّى يتخلَّص منها:

وهى اثنا عشر جنسًا مذكورة فى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ هي أجناس المحرَّمات: الكُفر، والشِّرك، والنِّفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتِّباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقَدْ يكون في الرجل أكثرها وأقلّها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك وقَدْ لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها والتحصن والتحرز من مواقعتها وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت تتبين حدودها وحقائقها، والله الموفق لما وراء ذَلِكَ، كما وفق له، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأما الكفر فنوعان: كفر أكبر وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود.

كما في قوله تعالى وكان مما يتلى فنسخ لفظه: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم» [(١)]، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**» [(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٢١٤)، وغيرهما.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣)، وغيره.

وقوله في «السنن»: «مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[(٢)].

وقوله ﷺ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[(٣)].

وهذا تأويل ابن عباس وعامَّة الصحابة في قوله تَعَالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وكذلك قال طاوس وقال عطاء: هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق.

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا له وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح فإن نفس جحوده كفر سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: مَن تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبد العزيز الكناني، وهو أيضا بعيد إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: مَن تأولها على الحكم بمخالفة النص تعمدًا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: مَن تأولها على أهل الكتاب، وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما، وهو بعيد وهو خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرًا ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانًا، لأنه مع اعترافه بأنه مستحقٌّ للعقوبة، فهذا كفر أصغر وإن اعتقد أنه غير

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» وغيره، وصححه الألباني كما في «المشكاة» (٤٥٥٩).

(٣) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٢١٩)، وغيرهما.

واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تَعَالى، فهذا كفر أكبر وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطىء له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة فالسعي: إمَّا شكر، وإمَّا كفر، وإمَّا ثالث لا من هذا ولا من هذا، والله أعلم.

عباد الله...

وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيَّد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل: ١٤]. وقال لرسوله: ﴿ **فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وإن سمّي هذا كفر تكذيب أيضًا، فصحيح إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنَّهُ لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقّاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صِدق الرَّسُول وأنَّهُ جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له، إباء واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقول الأمم لرسلهم: ﴿ **إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا** ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا** ﴾ [الشمس: ١١]، وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهو كُفر أبي طالب أيضًا فإنَّهُ صدَّقه ولم يشك في صدقِه ولكن أخذته الحميّة وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملّتهم ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه

ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة.

وأما كُفر الشّك: فإِنَّهُ لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول جملةً، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع إلتفاته إليها ونظره فيها: فإِنَّهُ لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها فإنَّ دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر.

عباد الله...

وكفر الجحود نوعان: كُفْرٌ مُطلق عام وكفر مُقَيّد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله وإرساله الرَّسُول.

والخاص المقيّد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام أو تحريم محرّم من محرّماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به عمدًا أو تقديما لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأمّا جحد ذلك جهلًا أو تأويلًا يعذر فيه صاحبه: فلا يكفَّر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح[(١)]، ومع هذا فقد غفر الله له ورحمه، لجهله إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا.

عباد الله...

وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]،

---

(١) راجع نصه في «صحيح البخاري» (٣٤٨١).

مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم، يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله.

وكثير منهم - بل أكثرهم - يحبون آلهتم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم - من المشايخ - أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث، إذا حرد، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه، ولم تتنكر له قلوبهم، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنًا له إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن مرض وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر قال الله تعالى حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتَّخذ مِن دون الله وليًّا يزعم أَنَّهُ يقرّبه إلى الله، وما أعزّ مَن يخلص من هذا بل ما أعزّ مَن لا يعادي مَن أنكره.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وهذا عين الشرك، وقَدْ أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء فإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعًا من دون الله ربّه ومولاه.

و الشفاعة التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم ويفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النَّبيّ ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»(١).

كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النَّبيّ ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

أيُّهَا المسلمون...

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليًّا أو شفيعًا: أَنَّهُ يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من ولاهم، ولم يعلموا أن الله ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿ **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلَّا التوحيد واتِّباع الرسول، وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين كما قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين؟

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشّرك مِن قلب مَن وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتِّباع رسوله، فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١].

---

(١) رواه البخاري (٩٠)، وغيره.

وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة كما في الآية الأخرى: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وكما في آية البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وترى المشرك يكذّب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله ولا نسويهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده، فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده وجردت توحيده لحقته وحشة وضيق وحرج، ورماك بنقص الإلهية التي له وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عيانًا ورَمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدُّنْيَا والآخرة، ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا وأبواب حوائجنا إلى الله، وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لَـمَّا قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقّصت المسيح وعبته، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد ومساجد تقصد وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله قالوا: تنقّصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم حَتَّى كأنهم قد تواصوا به، ﴿ مَن يَهْدِ اللَّـهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَـهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلّق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله ومعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليًّا أو شفيعًا، فهو ﴿ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت: ٤٢]. فقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَـهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَـهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَـهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا مِمَّن فيه خصلة من هذه الأربع: إمَّا مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالِكًا كان

شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا مُتنقلًا مِن الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك ومواداه لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قَدْ خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شرٌّ منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ: إنما تنقض عُرى الإسلام عُروة عُروة، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهليّة.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف: أنَّهُ هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سُنة، والسُّنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومَن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، والله المستعان» ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأما الشرك الأصغر: فـ (كيسير الرِّياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله) كما ثبت عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**» (١). وقول الرجل للرجل: «ما شاء الله وشئت»، و«هذا مِن الله ومنَّا» و«أنا بالله وبك»، و«ما لي إلا الله وأنت»، و«أنا متوكل على الله وعليك»، و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا»، وقَدْ يكون هذا شركًا أكبر بحسب قائله ومقصده، وصحّ عن النَّبيّ ﷺ أنه قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتنى لله ندًّا؟ قُل: مَا شَاءَ الله وحَده**» (٢)، وهذا اللَّفظ أخفّ من غيره من الألفاظ.

إلى هنا نكون قَدْ انتهينا من الحديث عن التوبة وشروطها.



(١) صحيح: رواه أحمد في «المسند»، وأبو داود وغيرهما.

(٢) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم.

الخطبة الحادية والثلاثون بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدويّة

عدد أوراد النهار وترتيبها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقولون: الوقت كالسَّيف، إن لم تقطعه قطعك.

والعمر رأس مال الإنسان، وتوظيف الأنفاس في طاعة الله تَعَالى، هو الطريق نحو رضا الله تَعَالى ودخول جنته.

ويقول بعض الصَّالحين: النَّفْس إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل.

عرف الصالحون والصالحات ذَلِكَ، فرأينا من أمرهم وحالهم شيئًا عجبًا، يحكي

صاحب كتاب «أحاسن المحاسن» [(١)] عن السَّيِّدة العالِمة العابدة: «**معاذة بنت عبد الله العدوية**» رحمها الله تَعَالى أنَّها: «كَانَت إذا جَاءَ النَّهارُ قَالَت: هَذَا يَومي الَّذِي أمُوتُ فِيه، فَمَا تَنَامُ حَتَّى تُمسِي، وإذَا جَاءَ اللَّيلُ قَالَت: هذهِ لَيلَتِي التي أمُوتُ فِيهَا، فَمَا تَنامُ حَتَّى تُصبِحَ.

وكَانَت تُحيي اللَّيلَ صَلاةً فإذَا غَلَبَهَا النَّومُ قَامَت فَجَالت فِي الدَّارِ وهي تَقُولُ: يَا نَفْسي، النَّومُ أمَامَكِ لو قَدِمتِ لَطَالت رَقدَتُكِ فِي القَبرِ عَلَى حَسرةٍ أو سُرُورٍ.

وكانَت تُصَلِّي فِي كُلِّ يَوم ولَيلةٍ سِتَّمائةِ رَكعةٍ، وكَانَت تَقُولُ: عَجِبتُ لِعَينٍ تَنامُ وقَدْ عَرَفَت طُولَ الرُّقَادِ فِي ظُلَمِ القُبُورِ» ا.هـ.

عباد الله...

وهكذا كان الصَّالحون يُديرون الأيام واللَّيالي بِطاعة الله تَعَالى.

ولله دَرُّ صاحب كتاب «مختصر منهاج القاصدين» حين قَالَ: «اعلم: أَنَّهُ إذا حصلت المعرفة لله سُبْحَانَهُ والتَّصديق بوعده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القِصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَـهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا** ﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

فَهَذَا ونحوه مِمَّا ذُكر من الآيات في ذلك يدلُّ على أنَّ الطريق إلى الله تَعَالى: مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدَّوام، وقال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾ [الفرقان: ٦٢]. أي: يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر».

ويواصل صاحب «المختصر» حديثه فيقول: «أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل ستة، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس، وهو

---

(١) (ص٥٣٩).

وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٨].

فينبغي للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى فيقول: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(١). روى ذلك عن النبى ﷺ مِن أفراد البخاري.

وفى أفراد مسلم، من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِى النَّارِ وَعَذَابٍ فِى القَبْرِ»(٢).

وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ المُلْكُ لِلَّهِ...» إلى آخره، ويقول: «بِسْمِ اللَّهِ الَّذِى لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(٣). «رَضِيتُ باللهِ رَبّاً، وبالإسلام دِيناً، وبمُحَمَّدٍ صلى اللهَ عليه وسلم رَسُولاً»(٤).

فإذا صلى الفجر قال وَهُوَ ثانٍ رِجْلَيهِ قَبْلَ أنْ يَتَكَلَّمَ: «لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» عَشْرَ مرَّاتٍ(٥).

ويذكر سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنبي، فاغْفِرْ لي فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ»(٦).

ويقول: «أَصْبَحْنَا على فِطْرَةِ الإِسْلامِ، وكَلِمَةِ الإِخْلاصِ، وَدِيْنِ نبيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا أنا مِنَ المُشْرِكِينَ»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٧)، والبخاري (٦٣١٢)، وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٣)، وغيره.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وغيرهما.

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٢٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٩).

(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٣٤٧٤)، و غيره.

(٦) أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، والترمذي (٣٣٩٣)، وغيرهما.

(٧) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦)، وغيره.

ويدعو: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ الَّتِي فيها مَعاشِي، وأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتي فيها مَعادي، وَاجْعَلِ الحَياةَ زيادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ راحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ» (١).

فهذه الأدعية لا يُستغنى المريد عن حفظها.

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في «صحيحه»: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيُسَلِّم على النَّبيِّ ﷺ، ثُم ليَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ».

ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعيا بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية.

فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس.

فقد روى أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ صَلَّى الفَجْرِ في جَماعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعالى حتَّى تَطْلُعَ الشَمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كانَتْ كأجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تامَّةٍ تامةٍ تامةٍ» (٢).

وليكن وظائف وقته أربعًا: الدعاء، الذكر، والقراءة، والفكر. وليأت بها أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدى وظائف يومه، وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره.

عباد الله...

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة، وهو الربع، وهذا وقت شريف، وفيه وظيفتان:

أحدهما: صلاة الضحى.

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو حضور مجلس

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٦٤).

علم، أو قضاء حاجة مسلم، وإن لم يفعل شيئًا من ذَلِكَ تشاغل بالقراءة والذكر.

الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال[(١)]، والوظيفة في هذا الوقت، الأقسام الأربعة[(٢)]، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجرًا فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا ينس ذكر الله تَعَالَى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثاني: القيلولة، فإنها مما تعين على قيام الليل، كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

واعلم: أنَّ الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهو ثمان ساعات، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله، فذا نام أكثر من ذلك في الليل فلا وجه لنومه في النهار، بل من نقص منه استوفى ما نقص في النهار.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها، فينبغي له في هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ، ثم يصلي الظهر وسنتها، ثم يتطوع بعدها بأربع[(٣)].

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، فيستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفر الشمس، وليس في هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين، ثم فرض العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة

---

(١) **الزوال**: إذا ارتفعت الشمس في منتصف السَّماء لأقصى ارتفاع لها ثم بدأت في النزول ناحية الغرب، فذلك وقت الزوال، وهو ما قبل الظهر تقريبًا.

(٢) وهم: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر.

(٣) سيأتي فضل ذَلِكَ بعد قليل إن شاء الله.

التي سبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن والتدبر والتفهم.

الورد السابع: من اصفرار الشمس إلى أن تغرب، وهو وقت شريف.

قال الحسن البصري - رَحِمَهُ الله -: كانوا أشد تعظيماً للعشي من أول النهار، فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة.

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضت من طريقه مرحلة. وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بانقضاء آحادها.

قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بَعْضُك. وليتفكر هل ساوى يومه أمسه، فإن رأى أنه قد توفر على الخير في نهاره، فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فَلْيَتُب وليعزم على تلافى ما سبق من التفريط في الليل، فإن الحسنات يُذْهِبن السّيّئات، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضي يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير»[(١)]. ا.هـ.

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لعمل الصَّالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد وردت أحاديث في فضائل سُنن الظُّهر القبليّة والبعديّة، وفي سُنة العصر القبليّة، وكذلك في بقيّة السُّنن الرواتب:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ ثَابَرَ[(٢)] عَلَى اثْنَتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِى اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ دَخَلَ الجَنَّةَ: أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ،

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٧٩ ، ٨٢).

(٢) ثابر: أي: لازم وواظف.

وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ» (١).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**» (٢).

عَن أُمِّ حَبِيبَةَ - رَضِي الله عَنْهَا - زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**» (٣).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعًا**» (٤).

عباد الله...

هذا هو وِرد المسلم بالنَّهار، أمَّا وِردُ اللَّيْل، فسيأتي بيانه في الخطبة القادمة، إن شاء الله تَعَالى.

۞۞۞۞۞

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٩).

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٨٣).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٨٦).

الخطبة الثانية والثلاثون بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية

عدد أوراد الليل وترتيبها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرت بفضل الله تَعَالى في الخطبة الماضية: عدد أوراد النَّهَار وترتيبها، وذلك في سياق حديثنا عن حياة التابعيّة الجليلة «**معاذة العدوية**» رحمها الله تَعَالى.

واليوم - إن شاء الله تَعَالى - أذكر «**عدد أوراد اللَّيْل**» سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يُعينني وإيَّاكم عَلَى ذكره، وشكره، وحُسن عِبادته.

عباد الله...

الوِردُ الأوَّل مِن أوراد اللَّيْل:

إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فقد روى أنس رضى الله عنه في قوله تعالى: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة: ١٦]، أنَّ هذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء.

الورد الثاني: من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم، يستحب أن يصلى بين الأذانين ما أمكنه، وليكن في قراءته: ﴿ **الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ** ﴾ [السجدة: ١، ٢]، و﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك: ١]. فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حَتَّى يقرأهما [(١)].

الورد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل، قالت عائشة رضى الله عنها من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أول الليل، وأوسطه، وآخره، فانتهى وتره إلى السَّحَر[(٢)]. متفق عليه، ثم ليقل بعد الوتر: «**سُبْحَان الملك القدوس**» ثلاث مرات [(٣)].

الورد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة. وقد قال معاذ رَضِيَ الله عَنْهُ: إني لأحتسب في نومتى كما أحتسب في قومتى.

فمن أدأب النوم: أن ينام على طهارة، لما روت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا أنَّ رَسُول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة [(٤)].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ الله عَنْهُمَا: إن الأرواح يعرج بها في منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سجد عند العرش، وما كان

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٠)، والترمذي (٣٤٠٤)، وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥).

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/ ١٢٣)، وأبو داود (١٤٣٠)، وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٦)، ومسلم (٣٠٥)، وغيرهما.

ليس بطاهر سجد بعيدًا عن العرش.

ومن آدابه أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غش في قلبه لمسلم، ولا ينوى ظُلْمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

ومنها: أن لا يبيت من له شيء يوصى به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأن في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ، يُوصِى فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**» [(١)].

وينبغى له أيضًا أن لا يبالغ في تمهيد الفراش متنعماً بذلك، فإنه يزيد في النوم.

وينبغى أن لا ينام حَتَّى يغلبه النوم، فقد كان السَّلف لا ينامون إلا غلبة.

ومن آدابه أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد في الأحاديث في ذلك، أن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روى أبو هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى مَا حَدَثَ بَعْدَهُ**» [(٢)].

«**وَإِذَا وَضَعَ جَنْبَهُ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِكَ أَرْفَعُهُ اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**» [(٣)].أخرجاه في «الصحيحين».

وفى «الصحيحين» أيضًا، من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وَ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ وَ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ [(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٠)، والبخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٣)، والبخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)، وغيرهم.

(٣) هو الحديث المتقدم.

(٤) أخرجه مالك (٢/ ٩٤٢)، والبخاري (٥٠١٧)، ومسلم (٢١٩٢)، وغيرهم.

وفيهما من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وإن أصبحت أَصْبَت خَيرًا»[١].

وعن عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ له ولفاطمة: «إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ، فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ». متفق عليه[٢].

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطان قَالَ له: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[٣].

وفي أفراد مُسلم أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُئْوِيَ»[٤].

فإن استيقظ للتهجد، فليدع بدعاء رَسُول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرضِ وَمَن فيهن، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْت نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ، ولكَ الحمدُ، أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقّ، ولِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمْتُ، فاغْفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ – وفي رواية: وما أنت أعلم به منّي – أَنْتَ المُقَدِّمُ وأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إلهَ إِلاَّ أَنتَ» متفق عليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٠)، والبخاري (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٤٤)، والبخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١١) تعليقًا، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٠٧، ١٠٨).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، ومسلم (٢٧١٥)، وغيرهما.

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجرى على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يدخل بمضي النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف. قال أبو ذرٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ صَلاَةِ اللَّيْلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**نِصْفُ اللَّيْلِ** - أو جوف الليل - **وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ**»[1].

وروى أن داود عليه السلام قال: يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخرة، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بى وأخلو بك، وارفع إليَّ حوائجك.

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة «آل عمران»، كما روى في «الصحيحين» أن النَّبيّ ﷺ فعل ذلك[2]، وليدع بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه، عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّى بِاللَّيْلِ فَلْيَبْدَأْ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»[3]. رواه مسلم، ثم يصلى مثنى مثنى، وأكثر ما روى عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ كان يُصلِّي مِن اللَّيل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر[4]، وأقلهن سبع[5].

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السَّحر، قال الله تعالى: ﴿ **وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٨]، وفى الحديث: «**إِنَّ قِرَاءَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَحْضُورَةٌ**»[6].

وجاء طاوس إلى رجل وقت السَّحر فقالوا: هو نائم، فقال: ما كُنْتُ أرى أن أحداً ينام وقت السَّحر.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٩)، وغيره، وله شاهد، فقد روى الجماعة إلَّا البخاري من حديث أبي هريرة قال: سئل رَسُول الله ﷺ أيُّ الصلاة أفضل، قال: «**الصلاة في جوف الليل**».

(٢) حديث صحيح.

(٣) حديث صحيح.

(٤) حديث صحيح.

(٥) حديث صحيح.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٥)، ومسلم (٧٥٥)، وغيرهما.

فإذا فرغ المريد من صلاة السَّحر، فليستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ. وروى عن ابن عمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّهُ كان يفعل ذَلِكَ(١).

عباد الله...

هَذِهِ أوراد المسلم في الليل، فاحرصوا عليها، وأديروا الليل والنهار بذكر الله تَعَالَى وعبادته، ولا تكونوا مِن الغافلين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه، والإشارة إليه: أن الأوراد تختلف باختلاف الأحوال.

قال ابن قدامة المقدسيّ -رَحِمَهُ الله -: «اعلم: أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلما، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقا بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ مشغولاً به عن غيره.

الأول: العابد: وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم في يوم ختمة، أو ختمتين، أو ثلاثاً(٢)، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنه من يكثر الصلاة، ومنه من يكثر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟

فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائمًا مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٨٣ – ٨٩).

(٢) صحّ عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قال: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفقَهه».

القلب وتطهيره، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره.

قال أبو سليمان الداراني: فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع.

الثانى: العالم: الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى، أو تدريس، أو تصنيف، أو تذكير، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة في الكتب، والتصنيف والإفادة، فان استغرق الأوقات في ذلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة الذي يرغب في الآخرة، ويعين على سلوك طريقها، والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته، لأن استغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم، صرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذلك إلا في وقت أكل، أو طهارة، أو مكتوبة، أو قيلولة، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما يقرأ عليه من تفسير، أو حديث، أو علم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول من عمل اللسان، والثاني من عمل القلب بالتفكير، والثالث في عمل العين واليد والمطالعة والنسخ، والرابع بعد العصر صفى عمل السمع لتروح العين واليد، فان المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضر بالعين.

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قمسة الشافعي رحمه الله، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء:

- الثلث الأول لكتابة العلم.
- والثاني للصلاة.
- والثالث للنوم.

فأما الصيف، فربما لا يحتمل ذلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم: فإن المتعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: توالى: مثل الإمام، والقاضى، أو المتوفى للنظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقنع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف: وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد.

السادس: المستغرق بمحبة الله سُبْحَانَهُ: فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده. وينبغى أن يداوم على الأوراد، لقول النبى ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ العَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[(١)].

وكان النبى ﷺ عمله ديمة[(٢)].

عباد الله...

إنَّ العُمر هو رأس مال الإنسان، فإن رَبِحَ[(٣)] سَعِدَ سعادة لا شقاء بعدها أبدًا.

وإن خَسِرَ، خَسِرَ الدُّنْيَا والآخرة، وذلك هو الخُسران المُبين.

ونختم خطبة اليوم بكلام قيِّم للإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله -.

قال -رَحِمَهُ الله -: «إذا أراد الله بالعبد خيرًا، أعانه بالوقت، وجَعَلَ وقته مساعدًا له،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩)، والبخاري (١٩٧٠)، ومسلم (٧٨٢)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٦)، ومسلم (٧٨٣)، وغيرهما.

(٣) **ربح الوقت:** بطاعة الله واجتناب نواهيه، مع اعتقاد صحيح.

وإذا أراد به شرًّا جَعَلَ وقْتَهُ عليه، وناكده وقته، فكلما أراد التَّأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأوَّل كُلَّما همّت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده».ا.هـ.

فاجعلوا هذا الكلام منكم عَلَى بال، وسلوا الله التوفيق.

اللَّهُمَّ اجعلنا من أحبِّ خَلقِك إليك، ومِن المقرَّبين لَدَيك.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة الثالثة والثلاثون بعد المائة:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية

الأسباب الميسّرة لقيام الليل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرت - بفضل الله تَعَالَى - في الخطبتين الماضيتين: عدد أوراد اللَّيْلِ والنهار، وترتيبها.

وذلك في معرض حديثنا عن حياة العابدة الصابرة «**معاذة العدوية**» رحمها الله تَعَالَى.

عباد الله...

وإتمامًا للفائدة، نذكر اليوم إن شاء الله تَعَالَى، فضل قيام الليل، والأسباب الميسّرة لقيامه، وأسأل الله التوفيق.

أما عن فضائل قيام الليل:

فقد وردت فيه آيات وأحاديث وآثار:

١- قَالَ تَعَالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هاتين الآيتين: «قوله تَعَالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يَعني ذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيلِ وتَركَ النَّومِ والاضْطجَاع عَلَى الفُرُشِ الوَطِيئَةِ، وقال بَعضُ العُلماءِ: هُوَ الصَّلاةُ بَيْنَ العِشَاءَين، وقِيلَ: هُوَ انتِظَارُ صَلاَةِ العَتَمةِ.

يَقُول تَعَالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي: خَوفًا مِن وَبَالِ عِقَابِهِ، وطَمَعًا في جَزِيلِ ثَوابِهِ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَيجمَعُون بين فِعلِ القُرُبَاتِ اللَّازمةِ والمُتعدِّيةِ، ومُقَدَّمُ هَؤُلاءِ وسَيِّدُهُم وفَخْرُهُم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ رَسُولُ الله ﷺ، كَما قَالَ عَبْدُ الله ابنُ رَواحَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنَ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاَتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِى وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِى، وَرَجُلٍ غَزَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَانْهَزَمَ فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِى الاِنْهِزَامِ وَمَا لَهُ فِى الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلاَئِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِى رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِى وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِى حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ»(١).

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤١٦).

سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ» ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ». ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ». فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ وَعَمُودُهُ: الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ». ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟». فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[(١)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية، أي: فَلَا يَعلَمُ أحدٌ، عَظَمَة ما أخفَى الله لَهُم في الجَنَّاتِ مِنَ النَّعيم المُقِيم، واللَّذَّاتِ التي لَم يَطَّلِع عَلَى مِثْلِها أحدٌ، لَـمَّا أَخْفُوا أعمالَهُم أَخْفَى الله لَهُم مِنَ الثَّوابِ جَزَاءً وِفَاقًا، فإنَّ الجَزَاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ.

قَالَ الحَسن البَصْرِيُّ: أَخْفَى قومٌ عَمَلهُم فأخْفَى الله لهم مَا لم تَرَ عَينٌ، ولَم يَخطُر عَلَى قَلبِ بَشَرٍ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(٢)]، قال أَبِي هُرَيْرَةَ: فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. ا.هـ.

٢- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ»[(٣)].

٣- وقال الحسنُ البصريّ - رَحِمَهُ الله -: لم أجد مِن العبادة شيئًا أشدّ من الصَّلاة

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وغيره.

في جوف اللَّيل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن النَّاس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

عباد الله...

أما الأسباب الميسّرة لقيام اللَّيل:

فيقول الإمام ابن قدامة المقدسيّ - رَحِمَهُ الله -:

اعلم: أن قيام الليل صعب إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له.

فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

ومنها: أن يتجنب الأوزار.

قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام.

قال أبو سليمان -رَحِمَهُ الله -: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وفي «صحيح مسلم» عن النَّبيّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لاَ يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ**

يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» [١].

وإحياء الليل مراتب:

أحدها: أن يحيى الليل كله[٢]، روى ذلك عن جماعة من السلف.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروى أيضاً عن جماعة من السلف وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام. ففى «الصحيحين»: «**أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»، ونوم آخر الليل حسن، لأنه يذهب آثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الآخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعى التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب.

ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.

وفى «الصحيحين» من حديث أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ مصليًا من اللَّيْل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه[٣]. وكان عمر رَضِيَ الله عَنْهُ يُصلِّي من الليل ما شاء الله، حَتَّى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٣)، ومسلم (٧٥٧)، وغيرهما.

(٢) لعلّه يقصد معظم اللَّيْل، أمَّا إحياء الليل أجمع فقد ورد عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قال: «ولكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتي فليس مني» أي: ليس عَلَى هَديي وطريقتي.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤)، والبخاري (١١٤١)، وغيرهما.

وقال الضحاك: أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة.

الطريق الثانى: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم، وانتبه،، قام الباقي. قال سفيان الثوري: إنما هو أول نومة، فإذا انتبهت لم أقلها. -يعنى: لم ينم-.

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**صلُّوا مِن اللَّيْل صلُّوا أربعًا، صلُّوا رَكْعَتَين...**» الحديث [(١)].

وفى «سنن أبي داود» قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**» [(٢)].

وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جوف اللَّيْل تحط الأوزار.

فهذه طرق قسمة الليل، فليتخير المريد لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السحر، ليكون قائماً في الطرفين. **وهذه مرتبة سابعة**» [(٣)].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فأما من صعبت عليه الطهارة في اللَّيْل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة وليذكر الله تعالى، وليدعُ مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضحى. فقد ورد ذلك في الحديث[(٤)].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه البيهقي في «الشعب» عن الحسن مرسلًا بلفظ مقارب.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٣٠٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٣١٠)، وغيرهما.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (٩٠ - ٩٥).

(٤) عن عمر رَضِي الله عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَن نَامَ عن حِزبه أَوْ عن شيء منه فقرأ فيما بين صلاة**
=

وليحذر من له عادة بقيام اللَّيْل أن يتركها، ففي «الصحيحين» أنَّ رَسُول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: «**لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**»[١].

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بقول جميل ينبغي أن يُحفظ للواعظ المؤثِّر «**يحيى بن معاذ**».

قال -رَحِمَهُ الله -: «اللَّيْل طويل، فلا تُقَصِّره بِمَنَامِك، والنَّهارُ نَقيٌّ فلا تُدَنِّسه بآثامِك».

نعم يا سيِّدي.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك التُّقَى والعَفَافَ والغِنى

آمين... آمين... آمين

⟡⟡⟡⟡⟡

= الفَجر وصلاةِ الظُّهر، كتب له كأنه قرأهُ من اللَّيْل». رواه أحمد (١/ ٣٢)، ومسلم (٧٤٧).

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)، وغيرهما.

الخطبة الرابعة والثلاثون بعد المائة:

[د] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية

مَن أشرقَت بدايتُه، أشرَقت نِهايتُه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول بعض العارفين: «مَن أشرقت بدايته، أشرقت نهايته».

وهذا صحيحٌ، فالبدايات تحكي النهايات. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله- في تفسيره لهذه الآية: «عن ابن مسعود ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر.

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تَعَالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال آخرون: لم تُنسخ ولكن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لَوْمَة لائم، ويقوموا بالقِسْط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذَلِكَ» ا.هـ[1].

عباد الله...

تزوجت «**معاذة العدوية**» أبا الصَّهباء صِلَة بن أَشَيم العدويّ - رحمهما الله تَعَالى.

وَصِلَة بن أشيم: هو الزَّاهد العابد المجاهد القدوة، له كرامات ثابتة، وكان يُصلِّي حَتَّى ما يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفًا، واستُشهد - رَحِمَهُ الله - في سجستان سنة ٦٢ هـ.

يقول صاحب كتاب «أحاسن المحاسن» في ترجمته:

- كَانَ يَمُرُّ عَليهِ شَبَابٌ يَلهُونَ ويَلعَبُونَ فَيَقُولُ لَهُم: أخبِرُوني عَن قَومٍ أَرَادُوا سَفَرًا، فَحَادُوا النَّهارَ عَن الطَّرِيقِ، ونَامُوا بِاللَّيلِ، مَتَى يَقْطَعُون سَفَرَهـم؟ فَقالَ لهُم يَومًا هَذِه المَقَالَةَ، فَقَالَ شَابٌّ مِنهُم: يَا قَومُ، إنَّهُ والله مَا يَعْنِي بِهَذَا غَيْرَنَا، نَحنُ بالنَّهارِ نَلهُو، وباللَّيلِ نَنَامُ، ثُمَّ اتَّبَعَ (صِلةً) فَلَم يَزَل يَتَعبَّدُ حَتَّى مَاتَ.
- ومرَّ فتًى يَجُرُّ ثَوبَهُ فَهَمَّ أصْحَابُ (صِلَةٍ) أنْ يَأخُذُوهُ بألسِنتِهم، فَقَالَ صِلةٌ: دَعُوني أَكْفِكُم أمْرَهُ، فَقالَ: يا ابن أخِي، إنَّ لي إليْكَ حاجَةً، قَالَ: ومَا حَاجَتُك؟ قَالَ: أن تَرْفَعَ إزَارَك. قَالَ: نَعَم، ونُعْمَى عَيْنٌ، فَرَفَعَ إزَارَهُ، فَقَالَ صِلةٌ لأصْحَابِهِ: هَذَا كَانَ أمْثَلَ مِمَّا أردتُموهُ، لو شَتَمتُمُوهُ لَشَتَمَكُم.
- ومَاتَ أخٌ لِصلةٍ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الصَّهباءِ: إنَّ أخَاكَ مَاتَ، فَقَالَ: قَدْ نُعِي

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤).

لَنَا، فَقَالَ: والله مَا سَبَقَنِي إِلَيْك أحدٌ، فَمَن نَعَاهُ؟ قَالَ: يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

- قَالَ جَعفَرُ بنُ زَيدٍ: خَرَجنا في غَزَاةٍ وفي الجَيْشِ صِلةُ بنُ أشْيَمَ، فَنَزَلَ النَّاسُ عِندَ العَتمةِ فَقُلتُ: لأرمُقَنَّ عَمَلَهُ، فَدَخَلَ غَيضةً ودَخَلتُ في أثَرِهِ، فَقَامَ يُصَلِّي، وجَاءَ أسدٌ حَتَّى دَنَا مِنْهُ، فَصَعدتُ في شَجَرةٍ، قَالَ: فَتَرَاهُ التَفَتَ؟ أو عَدَّهُ جُرَذًا؟ حَتَّى سَجَدَ، فَقُلتُ: الآنَ يَفْتَرِسُهُ، فَجَلَسَ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَالَ: أَيُّهَا السَّبُعُ، اطلُبِ الرِّزقَ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ، فَوَلَّى، وإنَّ لَه لَزَئيرًا تَصَدَّعُ الجِبَالُ مِنْهُ، فلمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبح جَلَسَ، فَحَمِدَ الله بِمحَامِدَ لم أسْمَع بِمِثلِهَا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك أن تُجيرَني مِنَ النار، ومِثلِي لا يَجتَرئُ أن يسألَكَ الجَنَّة»، ثُمَّ رجعَ، فأصْبَحَ كأنَّهُ بَاتَ عَلَى الحَشَايَا، وأصْبَحتُ وبي مِن الفَترَةِ شَيءٌ الله بِه عَليمٌ.
- قَالَ: وذَهَبَت بَغلتُهُ بِثِقلِهَا، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أُقْسِم عَلَيكَ أن تَرُدَّ عَليَّ بَغلَتِي وثِقلَهَا، فَجَاءَت حَتَّى قَامت بين يَديهِ، قَالَ: فلمَّا لَقِينَا العدُوَّ حَمَلَ هُو وهِشَامُ بنُ عَامِرٍ فَصَنَعَا طَعْنًا وضَربًا وقَتلًا، فَكُسِرَ العَدُوُّ، وقَالُوا: رَجُلانِ مِنَ العَرَب صَنَعَا بِنَا هَذَا، فَكَيفَ لَو قَاتَلُونا؟ فأعْطَوُا المُسلِمِينَ حَاجَتَهُم - يَعْنِي نَزَلُوا عَلَى حُكمِهِم.

عباد الله...

- وَلَـمَّا أُهديت مُعَاذَةُ إلى صِلةٍ أدْخَلَهُ ابنُ أخِيهِ الحَمَّامَ، ثُمَّ أدْخَلَهُ بَيْتًا مُطَيَّبًا، فَقَامَ يُصَلِّي، فَقَامَت فَصَلَّت فلَم يَزَالا يُصَلِّيَانِ حَتَّى بَرِقَ الفَجرُ، قَالَ: فأتَيْتُهُ فَقُلت أي عَمُّ، أهْدَيْتُ إلَيْكَ ابنَةَ عَمِّكَ اللَّيلةَ فَقُمت تُصَلِّي وتَرَكْتَهَا؟ قَالَ: إنَّك أدخَلْتَني بَيْتًا أذكَرتَنِي بِهِ النَّارَ، ثُمَّ أدخَلتَنِي بَيْتًا أذْكَرتَني به الجَنَّة، فَما زَالت فِكرَتِي فِيهَا حَتَّى أصْبَحتُ. (يَقصد بالبيتُ الَّذِي أذْكَرَهُ بِهِ النَّارَ هُوَ الحَمَّامُ، والبَيتُ الَّذِي أذْكَرَهُ بِهِ الجَنَّة هُو بَيتُ العَرُوسِ).
- وقال رَجُلٌ لِصِلةٍ: ادعُ لِي، فَقَالَ: رَغَّبَك الله فِيمَا يَبْقَى، وزَهَّدَكَ فِيما يَفْنَى، وَوَهبَ لك اليَقِينَ الَّذِي لا يُسكَنُ إلا إليه، ولا يُعَوَّلُ في الدِّين إلا عليه.
- وكَانَ صلةٌ فِي مَغزًى ومَعَهُ ابنٌ لَهُ، فَقالَ: أي بُنَيَّ، تَقَدَّم فَقَاتِل حَتَّى أحْتَسِبَكَ، فَحَمَلَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ تَقَدَّم صِلَةٌ فَقُتِلَ، فَاجتَمَعت النِّسَاءُ عِند مُعاذَةَ العَدويَّة،

فَقَالتَ: إنْ كُنتُنَّ جِئتُنَّ لِتُهَنِّئْنِي فَمرحبًا بِكُنَّ، وإن كُنتُنَّ جِئتُنَّ لِغَيرِ ذَلِكَ فَارْجِعنَ.

عباد الله...

هكذا كانت همم السَّلف الصَّالح، همم لا تعرف الخمود ولا الهمود، مَعَ صبرٌ جميل، رجاء ما عند الله، ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

فماذا كانت عاقبة هذا الجِهاد والصَّبر؟

هذا ما سوف نذكره بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولَـمَّا احتُضِرَت مُعَاذَةُ للمَوتِ بَكَتْ ثُمَّ ضَحِكت، فَقِيلَ لَهَا، فَقَالت: أمَّا البُكَاءُ فإنِّي ذَكَرتُ مُفَارَقَةَ الصَّلاةِ والصِّيَامِ والذِّكرِ، فكَان البُكَاءُ لِذلك، وأمَّا تَبَسُّمي فإنِّي نَظَرتُ إلى أبي الصَّهبَاءِ وقَدْ أقبَلَ عَلَيه حُلَّتَانِ خَضْرَوَانِ في نَفَرٍ مَا رأيتُ لَهُم في الدُّنْيَا شَبَهًا، فَضَحِكتُ إليهِ. أَبُو الصَّهْبَاءِ هُو بَعْلُهَا وكَانَ قَدْ ماتَ قَبلهَا، رَحِمَهُما الله تَعَالى(١).

عباد الله...

هذه ثمرة الجِهاد، ومجاهدة النَّفْس في طاعة الله، والصَّبر عند مواقع القضاء والقدر. وعند الصَّباح يحمد القوم السُّرى، وعند المهات يحمد القوم التُّقى.

فإلى مُجاهدة النَّفْس عِباد الله. وإلى الصَّبر عند حلول البلاء.

فقد بان لكم عاقبة ذَلِكَ، وصدق الله العظيم إذ يَقُول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

۞۞۞۞۞

(١) «أحاسن المحاسن» (٤٧١ - ٤٧٣).

الخطبة الخامسة والثلاثون بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: الخَنساء

أسلحة النَّصر علَى الأعداء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قَالَ الإمامُ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصَّابرين في بلائه، القائمين بطاعته». ا.هـ[1].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٢٤).

عباد الله...

ومن علامات التَّقوى، وشارات الصَّبر:

الثبات في مواطن البأس، واليقين بما أعدَّ الله تَعَالَى لأوليائه.

ومن المواقف الإيمانيّة التي تدلُّ عَلَى ذَلِكَ:

ما ذكره ابن الأثير - رَحِمَهُ الله - في كتابه «أسد الغابة» [1] عند ترجمته للصحابيّة الجليلة «**الخنساء بنت عمرو**» رَضِيَ الله عَنْهَا:

قَالَ ابن الأثير - رَحِمَهُ الله -: قدَمَت خنساء بِنْت عَمْرو على رسول الله ﷺ مع قومها فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويعجبه شِعْرُها.

وأجمع أهل العلم والشعر أنه لم تكن امْرَأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

وذكر الزُّبير بن بكَّار، عن مُحَمَّد بن الحسن المخزوميّ، عن عَبْد الرَّحْمَن بن عَبْد الله عن أبيه عن أبي وَجْزة، عن أبيه: أنَّ الخنساء شهدت القادسيّة [2] ومعها أربعة بنين لها، فقالت لهم أول الليل:

«يا بنيّ، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امْرَأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم ولا فَضَحْتُ خَالكم، ولا هَجَّنْتُ حَسَبَكم، ولا غيّرتُ نسبكم. وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثَّواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدَّار الباقية خير من الدار الفانيّة، يقول الله عَزَّ وجَلّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين.

وإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سِياقها، وجُلِّلت

(١) (٧/ ٨٤، ٨٥).

(٢) معركة القادسية، هي المعركة الشهيرة التي دارت رحاها بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص، وبين الفرس، وقَدْ تقدم ذكرها في ترجمة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ الله عَنْهُ.

ناراً على أرواقها، فتيمّموا وطيسها[١]، وجالدوا رئيسها عند احتدام خَمِيسِها[٢]، تظفروا بالغُنْم والكرامة، في دار الخُلْد والمقامة».

فخرج بنوها قابلين لنُصْحها، وتقدموا فقاتلوا وهم يرتجزون، وأبلوا بلاءً حسناً، واستُشهدوا رحمهم الله.

فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربِّي أن يجمعني بهم في جنَّته.

عباد الله...

ومن الدروس المستفادة من هذا الموقف الإيمانيّ الرائع:

الدرس الأول: أثر العفّة في النَّصر عَلَى الأعداء:

يدلُّ عَلَى ذَلِكَ: قول الخَنساء لأولادها: «إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امْرَأَة واحدة، ما خُنْتُ أباكم ولا فَضَحْتُ خَالكم، ولا هَجَّنْتُ حَسَبَكم، ولا غيّرتُ نسبكم».

الدرس الثاني: دور المرأة المسلمة في إقامة دين الله تَعَالَى، وقهر العدوّ، والفوز بالجنة:

وهذا ظاهر جدًّا في قول الخنساء وصبرها، وهكذا كانت المرأة المسلمة، قبل أن تتربّع الدُّنْيَا عَلَى قلبها، وتحلّ شهواتها بساحتها.

قَالَ الدكتور محمود مُحَمَّد عمارة - حفظه الله: «وبهذا المقياس، مقياس المسئولية واحتمال التبعة، تحمّلت المرأة المجاهدة المحتسبة هذا الموقف العصيب بكل مضاعفاته، فارتفعت فوق هواتف الضعف، وكانت عَلَى مستوى المسئولية، مسئولية الإيمان الَّذِي صاغ منها سلاحًا من أسلحة القَدَر، فكانت بصبرها وبيانها صورة التحدّي الإسلامي الَّذِي صار شوكة في حلق العدوّ.

فها هي الخنساء لا تتلفّع بفضل مئزرها، رفاهيةً، ولا تشرب في العلب، بينما الرجال يسقطون في ميدان المعركة، ولا تحوّل البيت إلى مشتجر من الآراء الفلسفية

---

(١) الوطيس: التنّور، والمراد به هنا: موضع الجِلاد.

(٢) الخميس: الجيش.

الجانبية، بينما السّيوف تتكلم هناك.

وتأمَّل معي قوّة الأعصاب، وسلامة المنطق، منطق الخنساء وهي تقول لأولادها: «وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثَّواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدَّار الباقية خير من الدار الفانيّة، يقول الله عَزَّ وجَلّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين».

وهل هناك صلاح للأمة إلا بقائد مؤمن قوي، وأُمّة تقف من ورائه في ساعة العُسرة عَلَى هذا النحو الفريد.

ألا إن أُمّة تملك هذا الإيمان، وهذا التصميم، أُمّة لن تقهر أبدًا»[١]. ا.هـ.

اللَّهُمَّ رُدّ المسلمين إلى دينك ردًّا جميلًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والدرس الثالث من الدروس المستفادة من قصة الخنساء مع أولادها: تقديم حُبّ الله ورسوله عَلَى كل حُبّ:

ولن يجد الإنسان المسلم طعم الإيمان إلَّا بهذا، قال ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٢].

---

(١) «نحو أسرة بلا مشكلات» (١٩٥ – ١٩٩) باختصار وتصرف.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

عباد الله...

ويصف الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله - حال المُحبين فيقول: «أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حيَّ عَلَى الفَلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بَذْلُهم بالرِّضا والسَّماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدوّ والرَّواح.

تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم عَلَى ما أعطاهم، وإنما يَحمد القوم السُّرَى عند الصَّباح». ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله، فإلى اللِّقاء.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك حُبَّك وحُبّ مَن أحبَّك، وحُب كل عمل يُقرِّبنا مِن حُبِّك

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين



الخطبة السادسة والثلاثون بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: الخنساء

ومن أسلحة النصر: اليقين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكِ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن حياة «الخنساء» رَضِي الله عَنْهَا.

وذكرت - بفضل الله تَعَالى - في الخطبة الماضية بعض الدروس المستفادة من قولها لأولادها ليلة القادسيّة:

«يا بنيّ، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امْرَأَة واحدة، ما خُنْتُ أباكم ولا فَضَحْتُ خَالكم، ولا هَجَّنْتُ

حَسَبَكم، ولا غيّرتُ نسبكم. وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثّواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدَّار الباقية خير من الدار الفانيّة، يقول الله عَزَّ وجَلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين.

وإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سِياقها، وجُلِّلت ناراً على أرواقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خَمِيسِها، تظفروا بالغُنْم والكرامة، في دار الخُلْد والمقامة».

فكانت النتيجة:

فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربِّي أن يجمعني بهم في جنَّته.

عباد الله...

وفي هذا الموقف الإيمانيّ دروس عظيمة:

الدرس الأول: أثر الفقه في النصر عَلَى الأعداء.

والدرس الثاني: دور المرأة في إقامة دين الله، وقهر العدوّ، والفوز بالجنة.

والدرس الثالث: تقديم حُبّ الله ورسوله عَلَى كُل حُب:

وحُبّ الله ورسوله ﷺ ليس دعوى بلا بيِّنة.

قَالَ تَعَالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قَالَ الإمامُ القرطبيّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «وفي الآية دليلٌ عَلَى وجوب حُبّ الله ورسوله، ولا خلاف في ذَلِكَ بين الأُمّة، وأن ذَلِكَ مقدّم عَلَى كل محبوب» ا.هـ[1].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ ٣٢).

وقال تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وَلَـمَّا كَثُر المدّعون للمحبّة طُولبوا بإقامة البيِّنة عَلَى صحّة الدعوى، فلو يعطى النَّاس بدعواهم لادَّعى الخَلِيُّ حُرقة الشَّجي، فتنوّع المدّعون في الشهود فقيل: لا تقبل هَذِهِ الدعوى إلَّا ببيِّنة، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ ﴾ فتأخَّر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه» ا.هـ.

عباد الله...

والدرس الرابع (من الدروس المستفادة من قصة الخنساء مع أولادها): **اليقين بما أعدَّ الله تَعَالَى لأوليائه:**

فما معنى اليقين؟

وما هي منزلته؟

وما هي علاماته؟

وما هي أنواعه؟

وما هي درجاته؟

أما معنى اليقين:

فيقول الكَفَويُّ: اليَقينُ هُوَ أن تعلَمَ الشَّيءَ ولا تَتَخَيَّل خِلافَهُ[١].

وقال في موضِعٍ آخرَ: اليَقِينُ هُوَ الاعتِقَادُ الجَازِمُ الثَّابِتُ المُطَابِقُ للواقِعِ.

وقِيلَ: هُوَ عِبَارةٌ عَن العِلمِ المُستَقِرِّ في القَلبِ لِثُبُوتِهِ مِن سَبَبٍ مُتَعَيِّنٍ لَهُ بِحيثُ لا يَقْبَلُ الانْهِدَامَ[٢].

وقال التَّهَانَويُّ: اليَقينُ هُوَ الاعتِقَادُ الجَازِمُ المُطَابِقُ الثَّابِتُ، أي الَّذي لا يَزُولُ بِتَشكِيكِ المُتَشَكِّكِ، فَبالاعتِقَادِ يَخرُجُ الشَّكُّ، وبِالجَازِمِ يَخرجُ الظَّنُّ، وبالمُطَابِقِ يَخرُجُ

---

(١) «الكليات» (٦٧).

(٢) المرجع السابق (٩٧٩).

الجَهلُ، وبالثَّابِتِ يَخرُجُ اعتِقَادُ المُقَلِّدِ[1].

عباد الله...

وعن منزلة اليقين يقول **الإمام ابن القيِّم** - رَحِمَهُ الله -: «ومِن مَنَازِلِ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥]، مَنزِلَةُ اليَقِينِ، وهُوَ مِنْ الإيمَانِ بِمَنزِلَةِ الرُّوح مِنَ الجَسَدِ، وبِهِ تَفَاضَلَ العَارِفُونَ، وفيه تَنَافَسَ المُتَنَافِسُونَ، وإليه شَمَّرَ العَامِلُونَ، وعمَلُ القَوْمِ إنَّما كَانَ عَليهِ، وإشَارَاتُهُم كلُّها إليه، وإذا تَزوَّج الصّبرُ باليَقِينِ وُلِدَ بينهما الإمامةُ في الدِّين.

قال تعالى - وبِقَولِهِ يهتدي المُهْتَدُونَ -: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخَصَّ - سُبْحَانَهُ - أهل اليَقِينِ بالانْتِفَاعِ بِالآياتِ والبَرَاهِينِ، فقال - وهُو أصْدَقُ القَائِلِينَ -: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخَصَّ أَهْلَ اليَقِين بِالهُدى والفَلَاحِ مِن بين العَالَمِين، فَقَال: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخْبَرَ عن أهلِ النَّار بِأنَّهم لم يَكُونوا مِن أهلِ اليَقِينِ، فَقَالَ تَعَالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فَاليَقِينُ: رُوحُ أعْمَالِ القُلُوبِ الَّتِي هي رَوْحُ أعْمَالِ الجَوَارِحِ، وهُوَ حَقِيقَةُ الصِّدّيقيَّة، وهو قُطْبُ هذا الشأن الَّذي عليه مَدَارُهُ.

واليَقِينُ قَرينُ التَّوَكُّل، ولِهَذَا فُسِّر التَّوكُّل بِقُوّة اليَقِينِ.

ومَتَى وصَلَ اليَقِينُ إلى القَلبِ امتلأَ نُورًا وإشرَاقًا وانْتَفَى عَنْهُ كُلُّ شَكٍّ ورَيبٍ، وهَمٍّ وغَمٍّ، فَامتلأ محَبَّةً لله، وخَوفًا مِنْهُ، ورِضًا بِه، وشُكرًا لَهُ، وتَوكُّلًا عَليه، وإنَابَةً إليهِ، فَهُو

(١) المرجع السابق (٢١٣ ، ٩٨٠).

مَادَّةُ جَمِيعِ المَقَامَاتِ والحَامِلُ لَهَا». ا.هـ[(١)].

هذا؛ واليَقِينُ يَحمِلُ عَلَى مُبَاشَرَةِ الأهْوالِ ورُكُوبِ الأخطَارِ، وهُوَ يأمُرُ بالتَّقَدُّمِ دَائمًا، فإن لَمْ يُقَارِنهُ العِلمُ حَمَلَ عَلَى المَعَاطِبِ، والعِلمُ وَحدَهُ يأمُرُ بالتَّأَخُّرِ دَائمًا وبالإحْجَامِ، فإنْ لَمْ يُصِبهُ اليَقِينُ فَقَدْ يَصُدُّ صَاحِبَهُ عَنِ المَكَاسِبِ والمغَانِمِ[(٢)].

عباد الله...

أمَّا عَن علامات اليقين:

فيقول الفَيرُوزَآبادِيُّ: ثلاثَةٌ مِن أعلامِ اليَقِينِ:

١- قِلَّةُ مُخَالطةِ النَّاس في العِشرَةِ.

٢- تَركُ المَدحِ لَهُم في العَطِيَّةِ.

٣- التَّنَزُّهُ عَن ذَمِّهِم عِندَ المَنعِ.

ومِن علامَاتِهِ أيضًا:

النَّظَرُ إلى الله في كُلِّ شَيءٍ، والرُّجُوعُ إليهِ في كُلِّ أمرٍ، والاسْتِعَانَةُ بِهِ في كُلِّ حَالٍ». ا.هـ.

هذا، وعَن أنواع اليَقِين، يَقُول أبو بكر الورَّاق - رَحِمَهُ الله -: اليَقِينُ عَلَى ثَلاثَةِ أوْجُه:

- يَقِينُ خَبَرٍ.
- ويَقِينُ دَلالةٍ.
- ويَقِينُ مُشَاهَدَةٍ.

وقَالَ ابن القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: يُرِيدُ بِيَقِينِ الخَبَرِ: سُكونَ القَلبِ إلى خَبرِ المُخْبِرِ، وَوثُوقَهُ بِه.

ويَقِينُ الدَّلالةِ: مَا هُو فَوقَهُ وهو أن يُقِيمَ لَهُ مَعَ وُثُوقِهِ بِصِدقِهِ الأدِلةِ الدَّالةِ عَلَى مَا

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٣) باختصار.

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٤٠٠).

أخبَرَ بِهِ، وهَذَا كَعَامَّةِ الأَخْبارِ بالإيمَانِ والتَّوحيدِ، وهُو في القُرآنِ، فإنَّهُ سُبْحَانَهُ مَع كَونِهِ أصدَقَ القَائِلينَ الصَّادقينَ، يُقِيمُ لِعبَادِهِ الأدِلَّة والبَرَاهين عَلَى صِدقِ أخْبَارِهِ، فَيَحمِلُ لَهُمُ اليَقِينَ مِنَ الوَجْهَينِ، مِن جِهةِ الخَبَرِ، ومِن جِهَةِ التَّدليلِ، فَيرتَفِعُونَ مِن ذَلِكَ إلى الدَّرجَةِ الثَّالثةِ: وهي **يَقِينِ المُكَاشَفَةِ** بحيثُ يَكُونُ المُخبرُ به كالمرئيِّ إلى العَينِ، وهَذَا أعلَى أنْواعِ اليَقينِ، وهِيَ الَّتي أشارَ إليهَا عَامِرُ بنُ عَبدِ القَيسِ في قَولِهِ: «لَو كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدتُ يَقِينًا»، ولَيسَ هَذَا مِن كَلَامِ رَسُول الله ﷺ ولا مِن كلامِ عليٍّ بن أبي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، كَمَا يظُنُّهُ مَن لا عِلمَ لَهُ بالمَنقُولاتِ». ا.هـ[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

أمَّا عن درجات اليقين، فيقول **الإمامُ ابن القيِّم** -رَحِمَهُ الله-:

اليقين عَلَى ثلاث درجات:

(١) **عِلْمُ اليَقِينِ**: وهُوَ مَا ظَهَرَ مِن الحقِّ، وقَبُولُ مَا غَابَ للحَقِّ، والوُقُوفُ عَلَى ما قَامَ بالحقِّ، فالَّذي ظَهَرَ مِن الحقِّ هُو أوَامِرُهُ ونَواهِيهِ، ودِينُهُ الَّذي أظهَرَهُ عَلَى ألسِنَةِ رُسُلِهِ، والَّذي غَابَ للحَقِّ: هُوَ الإيمانُ بالغَيبِ كالجَنَّة والنَّارِ، والصِّراطِ والحِسَابِ، ونَحوِ ذَلِكَ، أمَّا الوقُوفُ عَلَى مَا قَامَ بالحقِّ أي: مِن أسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وأفْعَالِهِ.

(٢) **عَينُ اليَقِينِ**: مَا اسْتَغنَى بِهِ صَاحِبهُ عَن طَلَبِ الدَّليلِ لأنَّ الدَّليلَ يُطلَبُ للعِلمِ بالمدلُولِ، فإذَا كانَ المدلُولُ مُشَاهَدًا لَهُ، فَلَا حَاجَةَ حِينئِذٍ للاستْدلالِ.

(٣) **حَقُّ اليَقِينِ**: وهَذِهِ مَنزلَةُ الرُّسُلِ عَليهُم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَقَد رَأى نَبيُّنَا ﷺ بِعَينِهِ الجَنَّة والنَّارَ، وكَلَّمَ الله تَعَالى مُوسى - عَلَيْهِ السَّلام - بِلا واسِطَةٍ، أمَّا بالنِّسبةِ لَنَا فإنَّ حَقَّ اليَقِينِ يتأخَّرُ إلى وَقْتِ اللِّقَاءِ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤١٨).

ومِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أنْ يُخبِرَكَ شَخْصٌ أنَّ عِنْدَهُ عَسَلًا وأنْتَ لا تَشُكَّ في صِدقِهِ، ثُمَّ أراكَ إيَّاهُ فَازدَدتَ يَقِينًا، ثُمَّ ذُقتَ مِنهُ، فَالأَوَّلُ عِلمُ اليَقِينِ، والثَّاني عَينُ اليَقِينِ، والثَّالثُ حَقُّ اليَقِينِ.

فَعِلمُنَا الآن بِالجَنَّةِ والنَّارِ عِلمُ اليَقِينِ، فإذَا أُزلِفَتِ الجَنَّةُ للمُتَّقِينَ، وشَاهَدَهَا الخَلائِقُ، وبُرِّزتِ الجَحيمُ للغَاوِينَ، وعَايَنَهَا الخَلائِقُ فَذَلِكَ: عَينُ اليَقِينِ، فإذَا أُدْخِلَ أهلُ الجَنَّة الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ فَذَلِكَ حِينئذٍ حَقُّ اليَقِينِ» ا.هـ[١].

عباد الله...

ومِمَّا سبق يتبيّن لنا: أنَّ اليقين يرفع المسلم نحو المعالي، نحو سعادة الدَّارين.

فاللَّهُمَّ ارزقنا مِن اليَقين مَا تُهَوِّن به علينا مَصَائِبَ الدُّنْيَا

آمين... آمين... آمين



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٠)، وانظر «نضرة النعيم» (٣٧١٨ - ٣٧٢٠).

الخطبة السابعة والثلاثون بعد المائة:

[١] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

[أ] آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيحكي الإمامُ الذهبيُّ -رَحِمَهُ الله- في «سير أعلام النبلاء» [(١)]، في ترجمته للتابعيّة الجلية «حفصة بنت سيرين» أُمّ هزيل رحمها الله، نقلًا عن إياس بن معاوية، أَنَّهُ قَالَ عنها: ما أدركت أحدًا أُفضّله عليها.

وقال: قَرَأت القرآن وهي بنت اثنتي عشرة سنة، وعاشت سبعين سنة.

(١) (٤/ ٥٠٧).

وقال مهديّ بن ميمون: مَكَثَت حفصة بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مُصَّلاها إلَّا لقائلةٍ أو قضاء حاجة.

عباد الله...

وهكذا كان سلفنا يترجمون الأقوال إلى أفعال، وهذا هو طريق السَّالكين إلى الله تَعَالَى.

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: لابُدَّ للسالك من همَّةٍ تُرقِّيه، وعلمٍ يُبصِّره ويهديه.

نعم، لابُدّ من قوّتين:

قُوّة علميّة: تبصّره بطريق الله تَعَالَى دون غبش.

وقوّة عمليّة: تحمل الإنسان عَلَى العمل بما يعلم.

أيُّهَا المسلمون...

ومن مصادر التشريع الإسلامي: القرآن الكريم.

لذا صنَّف العلماء - قديمًا وحديثًا - كُتبًا بيَّنوا فيها منزلة هذا الكتاب العزيز، وما ينبغي نحوه.

ومن هَذِهِ الكُتب: كتاب «**التبيان في آداب حملة القرآن**»، للإمام النووي رَحِمَهُ الله.

وهو من أفضل الكُتب التي صُنِّفت في هذا الشأن.

لذا نذكر لحضراتكم منه ما يَسَّر الله به، والله المستعان، وعليه التكلان.

قَالَ - رَحِمَهُ الله - ما مختصره:

أولاً: فضيلة تلاوة القرآن وحملته:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وروينا عن عُثمان بن عفَّان رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[١]. رواه أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري في

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٦)، وغيره.

«صحيحه»، الَّذِي هو أصحُّ الكتب بعد القرآن.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِى يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»[(١)]. رواه البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في «صحيحيهما».

وعن ابن عُمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**لاَ حَسَدَ**[(٢)] **إلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِى الحَقِّ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**». رواه البخاري ومسلم.

ورويناه أيضًا من رواية عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ بلفظ: «**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِى اثْنَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ**».

وعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[(٣)]. رواه أبو عيسى مُحَمَّد بن عيسى الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

عباد الله...

وقَدْ كان النَّبيّ ﷺ يقدّم قُرَّاء القُرآن عَلَى غيرهم.

ثبت عن أبي مسعود البدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى**». رواه مسلم.

عَن ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: «كَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا». رواه البخاري في «صحيحه».

واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠٦)، ومسلم (٦/ ٨٤ نووي)، وغيرهما.

(٢) الحسد هنا مجازي، وهو الغِبطة.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٠٧٥).

القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار، وقد تظاهرت الأدلة على ذَلِكَ، والله أعلم.

وقَدْ حثّ الإسلام عَلَى إكرام أهل القُرآن، ونهى عن إيذائهم:

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال الله تَعَالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّـهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال الله تَعَالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال تَعَالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعَن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ: إِكْرَامَ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**». رواه أبو داود، وهو حديث حسن.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِى ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**». فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِى اللَّحْدِ. رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**». رواه البخاري.

وثبت في الصحيحين عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِى ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَىْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِى نَارِ جَهَنَّمَ**»[١].

وعن الإمامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي - رحمهما الله تَعَالى - قالا: إن لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي.

قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر -رَحِمَهُ الله -: اعلم يا أخي - وفَّقنا الله وإيَّاك لمرضاته وجعلنا ممن يغشاه ويتقيه حق تقاته - أنَّ لحوم العلماء مسمومة، وعادة

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ١٥٨)، والترمذي (٢٢٢)، وغيرهما.

الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأنَّ مَن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

عباد الله...

ثانيًا: آداب معلِّم القرآن ومتعلمه:

وهذا بابٌ طويل جدًّا، وأشير إلى مقاصده مختصرًا - إن شاء الله.

الأدب الأول: قصد وجه الله تَعَالى أولاً:

أول ما ينبغي للمقرئ والقارئ أن يقصدا بذلك رضا الله تَعَالى، قال الله تَعَالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]. أي: الملة المستقيمة.

وفي الصحيحين عن رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى». وهذا الحديث من أصول الإسلام.

وروينا عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: إِنَّمَا يُحْفَظُ حَدِيثُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ.

وعن غيره: إنما يعطى النَّاس عَلَى قدر نيَّاتِهم.

وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري -رَحِمَهُ الله تَعَالى - قال: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب الى الله تعالى دون شيء آخر، مِن تصنّع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند النَّاس، أو محبَّة أو مدح من الخلق، أو معنى منَ المعاني سوى التقرّب إلى الله تَعَالى.

قَالَ: ويصحّ أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وعن حذيفة المرعشي -رَحِمَهُ الله تَعَالى -قال: الإخلاص استواء السّرّ والعلانية.

وعن ذي النون -رَحِمَهُ الله تَعَالى - قال: ثلاث من علامات الإخلاص:

١- استواء المدح والذم من العامّة.

٢- ونسيان رؤية العمل في الأعمال.

٣- واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة.

وعن الفضيل بن عياض رَضِي الله عَنْهُ قال: تَركُ العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وعن سهل التستري -رَحِمَهُ الله تَعَالَى - قال: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوىً ولا دنيا.

وعن السري رَضِي الله عَنْهُ قال: لا تعمل للناس شيئًا ولا تترك لهم شيئًا ولا تغط لهم شيئًا ولا تكشف لهم شيئًا.

وعن القشيري -رَحِمَهُ الله - قال: أفضل الصدق استواء السر والعلانية.

وعن الحارث المحاسبي - -رَحِمَهُ الله تَعَالَى- قال: الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج عن كل قدر له في قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره إطلاع الناس على السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصِّديقين.

وعن غيره: إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك الله مرآة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وأقاويل السلف في هذا كثيرة أشرنا إلى هذه الأحرف منها تنبيهًا على المطلوب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والأدب الثاني: الحذر من الأغراض الدنيوية:

وينبغي أن لا يقصد به توصلًا إلى غرض من أغراض الدُّنْيَا، مِن مال، أَوْ رئاسة، أَوْ وجاهة، أَوْ ارتفاع عَلَى الأقران، أَوْ ثناء عند النَّاس، أَوْ صرف وجوه النَّاس إليه، أَوْ نحو ذَلِكَ.

ولا يشين المقرئ إقراؤه بطمع في رفق، يحصل له من بعض مَن يقرأ عليه، سواء كان الرفق مالًا أَوْ خدمة، وإن قل، ولو كان عَلَى صورة هدية، التي لولا قراءته عليه لما أهداها إليه، قال تَعَالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَـهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَـهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تَعَالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَـهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِـمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» (١). يَعْنِي رِيحَهَا. رواه أبو داود بإسناد صحيح.

أيها المسلمون...

هذان أدبان مهمّان من الآداب التي ينبغي لمعلِّم القرآن ومتعلِّمه التحلِّي بها، وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالى.

❖❖❖❖❖

---

(١) إسناده صحيح كما قال المصنف.

الخطبة الثامنة والثلاثون بعد المائة:

[٢] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٢) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن «آداب حملة القرآن» والله الموفّق لما يُحب ويرضى.

وتكلمنا - بفضل الله تَعَالَى - فيما سبق عن أدبين من آداب حملة مُعلِّم القرآن ومُتعلّمه.

عباد الله...

والأدب الثالث: الاحتراز من سوء النيَّة:

وليحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه.

وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بيِّنة مِن صاحبها على سوء نيته وفساد طويته، بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذَلِكَ، بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعة بتعليمه وقد حصلت، وقد قصد بقراءته على غيري زيادة علم، فلا عتب عليه.

وقد صح عن الإمام الشافعي رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قال: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم - يعني علمه وكتبه - أن لا يُنسب إليَّ حرف منه».

الأدب الرابع: التحلِّي بالخصال الحميدة، والشِّيم المرضيّة:

وينبغي للمعلم أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، والخصال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشده الله إليها، مِنْ الزهادة في الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة، والحلم والصبر والتنزه عن دنيء المكاسب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح، وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف بإزالة الأوساخ، والشعور التي ورد الشرع بإزالتها كقص الشارب وتقليم الأظافر وتسريح اللِّحية وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره وإن كان دونه، وينبغي أن يستعمل الأحاديث الواردة في التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات، وأن يراقب الله تعالى في سره وعلانيته ويحافظ على ذَلِكَ، وأن يكون تعويله في جميع أموره على الله تعالى.

الأدب الخامس: الرفق بطالب العلم:

وينبغي له أن يرفق بمن يقرأ عليه، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله، فقد

روينا عن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري رَضِيَ الله عَنْهُ فيقول: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ(١).

وينبغي أن يبذل لهم النصيحة، فإن رسول الله ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قال الصحابة: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**». رواه مسلم.

ومن النصيحة لله تعالى ولكتابه: إكرام قارئه وطالبه، وإرشاده إلى مصلحته والرفق به ومساعدته على طلبه بما أمكن، وتأليف قلب الطالب وأن يكون سمحًا بتعليمه في رفق، متلطفًا به ومحرضًا له على التعلم.

وينبغي أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سببًا في نشاطه وزيادة في رغبته، ويُزِّهده في الدنيا ويصرفه عن الركون إليها والاغترار بها، ويُذكِّره فضيلة الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعيّة وهو طريق العارفين وعباد الله الصالحين، وأن ذلك رتبة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وينبغي أن يشفق على الطالب ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه، ويجري المتعلم مجرى ولده في الشفقة عليه، والصبر على جفائه، وسوء أدبه، ويعذره في قلة أدبه في بعض الأحيان، فإن الإنسان معرض للنقائص لا سيما إن كان صغير السن.

وينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير، وأن يكره له ما يكره لنفسه من النقص مطلقًا، فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».

وينبغي أن لا يتعاظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع معهم، فقد جاء في التواضع لآحاد الناس أشياء كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده، مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن مع ما لهم عليه من حق الصحبة وترددهم إليه.

---

(١) عن أبي سعيد عن النَّبيّ ﷺ قال: «ستأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مَرحبًا بوصيَّة رَسُول الله ﷺ واقْنُوهم» قلت للحكم - أحد رواة الحديث -: ما «اقنوهم»؟ قال: علِّموهم. رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٣).

وعن أبي أيوب السختياني رحمه الله قال: ينبغي للعَالِمِ أن يضع التراب على رأسه تواضعا لله عَزَّ وجَلَّ.

وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السُّنِّيَّة، والشِّيم المرضيّة، ورياضة نفسه بالدقائق الخفيّة، ويعوده الصيانة في جميع أموره الباطنة والجلية، ويحرضه بأقواله وأفعاله المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات، ويعرفه أن لذلك تتفتح عليه أنوار المعارف وينشرح صدره ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف، ويبارك له في علمه وحاله، ويوفق في أفعاله وأقواله.

عباد الله...

وهناك آداب مستحبّة للمعلِّم:

يُستحب للمعلِّم أن يكون حريصًا على تعليمهم مؤثرًا ذلك على مصالح نفسه الدنيوية التي ليست بضرورية، وأن يفرغ قلبه في حال جلوسه لإقرائهم من من الأسباب الشاغلة كلها، وهي كثيرة معروفة وأن يكون حريصًا على تفهيمهم، وأن يعطي كل إنسان منهم ما يليق به فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة ويأخذهم بإعادة محفوظاتهم ويثني على من ظهرت نجابته[1] ما لم يخش عليه فتنة بإعجاب أو غيره، ومن قصر عنفه تعنيفا لطيفًا في ما لم يخش عليه تنفيره ولا يحسد أحدا منه لبراعة تظهر منه ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه، فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم، فكيف للمتعلم الذي هو بمنزلة الولد ويعود من فضيلته إلى معلمه في الآخرة الثواب الجزيل وفي الدنيا الثناء الجميل والله الموفق.

هذا، ويقدم في تعليمهم إذا ازدحموا الأول، فالأول، فإن رضي الأول بتقديم غيره قدمه، وينبغي أن يظهر لهم البِشر وطلاقة الوجه، ويتفقد أحوالهم ويسأل عمن غاب منهم.

قال العلماء رضي الله عنهم: ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فقد قال سفيان وغيره طلبهم للعلم نية.

(١) النجابة - هنا: الذكاء.

وقالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

معناه: كانت عاقبته أن صار لله تعالى.

ويصون يديه في حال الإقراء عن العبث، وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة، ويقعد على طهارة مستقبل القبلة ويجلس بوقار، وتكون ثيابه بيضاء نظيفة، وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين قبل الجلوس سواء كان الموضع مسجدا أو غيره، فإن كان مسجدًا كان آكد فيه، فإنه يكره الجلوس فيه قبل أن يصلي ركعتين، ويجلس متربعًا إن شاء أو غير متربع، روى أبو بكر بن أبي داود السجستاني بإسناده عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ: كان يقرئ الناس في المسجد جاثيًا على ركبتيه.

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى بحفظه: أن لا يذل العلم فيذهب إلى مكان ينسب إلى من يتعلم منه ليتعلم منه فيه، وإن كان المتعلم خليفة فمن دونه، بل يصون العلم عن ذَلِكَ، كما صانه عنه السلف رضي الله عنهم، وحكاياتهم في هذا كثيرة مشهورة.

وينبغي أن يكون مجلسه واسعًا ليتمكّن جلساؤه فيه.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الآداب التي ينبغي أن يتحلَّى بها المعلِّم، والله الموفّق لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه:

أن تعليم المتعلمين فرض كفاية فإن لم يكن من يصلح إلا واحد تعين، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم، فإن امتنعوا كلهم أثموا وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن الباقين وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم، لكن يكره له ذلك إن لم يكن عذر.

وقَدْ حث الإسلامُ عَلَى التعلّم والتعليم في آيات وأحاديث، **فمن ذَلِكَ:**

(١) قوله تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(٢) وقال تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

(٣) وعن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهَرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[(١)].

عباد الله...

وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٤).

الخطبة التاسعة والثلاثون بعد المائة:

[٣] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٣) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله - الحديث عن «آداب حملة القرآن» وذَلِكَ فِي معرض حديثنا عن التابعية الجليلة «حفصة بنت سيرين» والتي قرأت القرآن وهي بنت اثنتى عشرة سنة.

عباد الله...

وتكلمنا فيما سبق عن «**آداب المعلِّم**»، وفي هذه الخطبة نتكلم - إن شاء الله - عن «**آداب المتعلِّم**» وأسأل الله التوفيق.

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ الله -: جميع ما ذكرناه من آداب المعلم في نفسه آداب للمتعلم، ومن آدابه:

أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل، إلا سببًا لابد منه للحاجة، وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول القرآن وحفظه واستثماره، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**».

وقد أحسن القائل بقوله: يُطيِّب القلب للعلم كما تُطيِّب الأرض للزراعة.

وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سنًّا وأقل شهرة ونسبًا وصلاحًا وغير ذَلِكَ، ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه وقد قالوا نظمًا:

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

وينبغي أن ينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويقبل قوله، كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أَوْلَى.

ولا يتعلم إلا ممن تكلمت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتهرت صيانته، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم.

وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته، فإنه أقرب إلى انتفاعه به، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللَّهُمَّ استر عيب معلمي عنِّي ولا تُذهب بركة علمه منِّي.

وقال الربيع صاحب الشافعي - رحمهما الله -: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له.

وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ قال: من حق المعلم عليك

أن تسلم على الناس عامة وتخصّه دونهم بتحية، وأن لا تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيدك ولا تغمزن بعينيك، ولا تقولن: قال فلان خلاف ما تقول، ولا تغتابن عنده أحدًا ولا تشاور جليسك في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه إذا قام، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تعرض - أي تشبع - من طول صحبته.

وينبغي أن يتأدب بهذه الخصال التي أرشد إليها عليّ رَضِيَ الله عَنْهُ، وأن يرد غيبة شيخه إن قدر، فإن تعذّر عليه ردَّها فارق ذَلِكَ المجلس.

ويدخل على الشيخ كامل الحال، متصفًا بما ذكرناه في المعلم، متطهرًا مستعملًا للسواك، فارغ القلب من الأمور الشاغلة، وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ في مكان يحتاج فيه إلى استئذان، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصّه دونهم بالتحية. وأن يسلم عليه وعليهم إذا انصرف كما جاء في الحديث: «**إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ**»(١).

ولا يتخطَّى رقاب الناس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، إلَّا أن يأذن له الشيخ في التقدّم، أو يعلم من حالهم إيثار ذَلِكَ، ولا يقيم أحدًا مِن موضعه، فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر - رضي الله عنهما - إلَّا أن يكون في تقديمه مصلحة للحاضرين أو أمره الشيخ بذلك، ولا يجلس في وسط الحلقة إلا لضرورة، ولا يجلس بين صاحبين بغير إذنهما، وإن فسحا له قعد وضم نفسه.

وينبغي أيضًا أن يتأدب مع رفقته وحاضري مجلس الشيخ، فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه، ويقعد بين يدي الشيخ قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين، ولا يرفع صوته رفعًا بليغًا من غير حاجة، ولا يضحك ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا بغيرها، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا من غير حاجة بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغيًا إلى كلامه.

ومما يتأكد الاعتناء به: أن لا يقرأ على الشيخ في حال شغل قلب الشيخ، ومله،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٨٤٩).

واستيفازه، وروعه، وغمه، وفرحه، وعطشه، ونُعاسه، وقلقه، ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط، وأن يغتنم أوقات نشاطه.

ومن آدابه: أن يتحمل جفوة الشيخ وسوء خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله وأقواله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق أو عديمه.

وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر أن الذنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له في الدنيا والآخرة وأنقى لقلب الشيخ، وقد قالوا: مَن لم يصبر على ذُلّ التعليم بقي عمره في عماية الجهالة، ومَن صبر عليه آل أمره إلى عِزّ الآخرة والدنيا، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا.

وقد أحسن من قال:

مـن لم يـذق طعـم المذلـة سـاعة ... قطـع الـزمان بأسـره مذلـولا

ومن آدابه المتأكدة: أن يكون حريصًا على التعلم مواظبا عليه في جميع الأوقات التي يتمكن منه فِيها، ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من الكثير، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة من الملل وضياع ما حصّل، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال، وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر ولازم بابه، ولا يفوّت وظيفته إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه وأنه لا يقرئ في غيره، وإذا وجد الشيخ نائما أو مشتغلا بمهم لم يستأذن عليه بل يصبر إلى استيقاظه أو فراغه، أو ينصرف والصبر أولى، كما كان ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره يفعلون، وينبغي أن يأخذ نفسه بالاجتهاد في التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة.

فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ: «تَفَقَّهُوا قبل أن تُسودُوا» معناه: اجتهدوا في كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة، فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم، وهذا معنى قول الإمام الشافعي رَضِيَ الله عَنْهُ: «تفقَّه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه».

وينبغي أن يبكر بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»(١).

وينبغي أن يحافظ على قراءة محفوظة، وينبغي أن لا يؤثر بنوبته غيره، فإن الإيثار مكروه في القرب بخلاف الإيثار بحظوظ النفس، فإنه محبوب، فإن رأى الشيخ المصلحة في الإيثار في بعض الأوقات لمعنى شرعي فأشار عليه بذلك امتثل أمره.

ومما يجب عليه ويتأكد الوصية به: ألا يحسد أحدًا مِن رفقته أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إيَّاها، وأن لا يعجب بنفسه بما خصَّه الله، وقد قدمنا إيضاح هذا في آداب الشيخ. وطريقه في نفي العجب: أن يُذكِّر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته وإنما هو فضل من الله، ولا ينبغي أن يعجب بشيء لم يخترعه بل أودعه الله تعالى فيه، وطريقه في نفي الحسد: أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة في هذا فينبغي أن لا يعترض عليها، ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى ولم يكرهها» ا.هـ.

عباد الله...

هذه آداب المتعلِّم، فلتكن منا عَلَى بال، نسأل الله تَعَالى أن يجعلنا وإيَّاكم مِمَّن يتأدَّب بها، وأن يُعلِّمنا ما جهلنا، وأن ينفعنا بما علمَّنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد بيَّن الله تَعَالى في كتابه شرف العلم وأهله، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالـمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الـحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

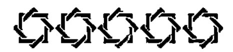
---

(١) **إسناده صحيح بشواهده**: أخرجه أحمد (٣/ ٤١٦، ٤١٧)، وأبو داود (٢٦٠٦) وغيرهما.

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قرن سُبْحَانَهُ شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْـمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ ﴾ وهذه خصوصيةٌ عظيمة للعلماء في هذا المقام» ا.هـ[1].

وقال تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

قَالَ السَّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «وفي هَذِهِ الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدّب بآدابه والعمل بمقتضاه» ا.هـ[2].



(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣٣٤).
(٢) «تفسير السعدي» (٨٤٦).

الخطبة الأربعون بعد المائة:

[٤] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٤) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن «آداب حملة القرآن» وذَلِكَ في معرض حديثنا عن حياة التابعية الجليلة «**حفصة بنت سيرين**» رحمها الله تَعَالى، والتي ذكرنا عَنْهَا: أَنَّهَا قرأت القرآن وهي بنت اثنتى عشرة سنة.

عباد الله...

وتكلمنا - بفضل الله تَعَالَى - فيما سبق عن: آداب المعلِّم والمتعلِّم، واليوم - إن شاء الله تَعَالَى - نتكلم عن «**آداب حامل القرآن**»، وأسأل الله التوفيق.

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ الله - في كتابه «التبيان»:

قد تقدم جمل منها(١) في الباب الذي قبل هذا.

ومن آدابه: أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالا للقرآن، وأن يكون مصونًا عن دنيء الاكتساب، شريف النفس، مرتفعًا على الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا، متواضعًا للصالحين وأهل الخير والمساكين، وأن يكون متخشعا ذا سكينة ووقار.

فقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قال: يا معشر القُرَّاء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالًا على الناس.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قال: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبِنَهاره إذا الناس مُفطِرون، وبُحزنه إذا الناس يَفرحون، وبِبُكائه إذا الناس يَضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبِخشوعه إذا الناس يختالون.

وعن الحسن بن علي رَضِيَ الله عَنْهُ قال: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها في النهار.

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: ينبغي لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم.

وعنه أيضا قال: حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيمًا لحق القرآن.

عباد الله...

ومن أهم ما يؤمر به: أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها، فقد

---

(١) وذكرنا هذه الجُمل فيما سبق، بفضل الله تَعَالَى.

جاء عن عبد الرحمن بن شبيل رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَلاَ تَأْكُلُوا بِهِ وَلاَ تَسْتَكْثِرُوا بِهِ وَلاَ تَجْفُوا عَنْهُ وَلاَ تَغْلُوا فِيهِ**»[(١)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُ، عن النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَابْتَغُوا بِهِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ القِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلاَ يَتَأَجَّلُونَهُ**»[(٢)]. رواه أبو داود بمعناه من رواية سهل بن سعد.

معناه: يتعجلون أجره، إما بمال وإما سمعة ونحوها.

وأما أخذ الأجرة على تعليم القرآن: فقد اختلف العلماء فيه، فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي: منع أخذ الأجرة عليه، من جماعة من العلماء منهم الزهري وأبو حنيفة.

وعن جماعة: أنه يجوز إن لم يشترطه وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين، وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة واحتج من منعها بحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أنه قَالَ: عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْقُرْآنَ وَالْكِتَابَةَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ: «**إِنْ سَرَّكَ أَنْ تُطَوَّقَ بِهَا طَوْقًا مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهَا**»[(٣)]. وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره وبآثار كثيرة عن السلف.

وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بجوابين:

أحدهما: أن في إسناده مقالًا.

والثاني: أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئًا، ثم أهدي إليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ، بخلاف من يعقد معه إجارة قبل التعليم، والله أعلم.

هذا؛ ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويُكثر منها، وكان السَّلف رضي الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه، فروى ابن أبي داود عن بعض السَّلف رضي الله عنهم: أنهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كل شهر ختمة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٧)، وأبو داود (٨٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٣٤١٦)، وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢٥٦).

وعن بعضهم: في كل عشر ليال ختمة. وعن بعضهم: في كل ثمان ليال، وعن الأكثرين: في كل سبع ليال. وعن بعضهم: في كل ست. وعن بعضهم: في كل خمس. وعن بعضهم: في كل أربع. وعن كثيرين: في كل ثلاث. وعن بعضهم: في كل ليلتين.

وختم بعضهم في كل يوم وليلة ختمة. ومنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ختمتين. ومنهم من كان يختم ثلاثًا، وختم بعضهم ثمان ختمات؛ أربعًا بالليل وأربعًا بالنهار، فمِن الذين كانوا يختمون ختمة في الليل واليوم: عثمان بن عفان رَضِيَ الله عَنْهُ، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشافعي، وآخرون[(١)].

ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات: سليم بن عمر رَضِيَ الله عَنْهُ قاضي مصر في خلافة معاوية رَضِيَ الله عَنْهُ، وروى أبو بكر بن أبي داود أنه كان يختم في الليلة ثلاثة ختمات.

والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا مَن كان مشغولًا بنشر العلم أو غيره مِن مهمات الدِّين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة، وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة ويدل عليه الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِى أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ**»[(٢)]. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، والله أعلم.

وأما وقت الابتداء والختم لمن يختم في الأسبوع: فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رَضِيَ الله عَنْهُ كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - في «الإحياء»: الأفضل أن يختم

---

(١) قال بعض العلماء: لا بأس بهذا في الأيام الفاضلة، لكن لا يداوم الإنسان عَلَى ذَلِكَ لحديث: «مَن قرأ القرآن في أقلّ من ثلاث لم يَفقهه».

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥)، والترمذي (٣١٢٠)، وغيرهما.

ختمة بالليل وأخرى بالنهار، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل أول النهار وآخره.

عباد الله...

وينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، وفي صلاة الليل أكثر.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ** ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال الله تَعَالى: ﴿ **مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وثبت في الصحيحين عن رَسُول الله ﷺ أنه قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**» (١).

فَكَانَ بَعْدُ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً.

وفي الحديثِ الآخرِ في الصحيح عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ - رضى الله عنهما - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ اللَّهِ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**» (٢).

وروى الطبراني وغيره عن سهل بن سعد رَضِيَ الله عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «**شرف المؤمن قيام اللَّيل**» (٣).

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة، وقد جاء عن أبي الأحوص الحبشي قال: إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقًا - أي يأتيه ليلًا - فيسمع لأهله دويًا كدوي النَّحل، قال: فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) **إسناده حسن**: أخرجه الحاكم (٤/ ٢٢٥)، وغيره.

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨).

وعن إبراهيم النخعي كان يقول: اقرؤوا من الليل ولو حَلْبَ شاة[١].

وعن يزيد الرقاشي قال: إذا أنا نمت ثم استيقظت ثم نمت، فلا نامت عيناي.

لماذا رُجِّحَت صَلاة اللَّيل؟

يُجيب الإمام النووي رحمه الله عن هذا السؤال فيقول:

وإنما رُجّحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء، وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلا، وحديث: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ. حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ**»[٢].

هذا، واعلموا أن فضيلة القيام بالليل والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير، وكلما كثر كان أفضل إلا أن يستوعب الليل كله، فإنه يكره الدوام عليه وإلا أن يضر بنفسه، ومما يدل على حصوله بالقليل: حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَرَأَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**»[٣]. رواه أبو داود وغيره.

عباد الله...

وقد جاء الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان:

ثبت عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**تَعَاهَدُوا هَذَا القُرْآنَ فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِى عُقُلِهَا**». رواه البخاري ومسلم.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ**

---

(١) يعني مقدار ما يأخذ حلب الشاة من الزمن، وهو بالتأكيد لا يأخذ شيئًا.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وغيرهما. وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٤٢)، وقوله ﷺ: «من المقنطرين» أي: أعطى قنطارًا من الأجر.

كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ». رواه مسلم والبخاري.

فتعاهدوا - يا أهل القرآن - كتاب ربكم، واحذروا من تعريضه للنسيان.

وفّقني الله تعالى وإياكم لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقَدْ يسأل سائل: لو نمتُ عن ورْدي، ماذا أفعل؟

ويُجيب نبيُّنا ﷺ عن هذا السؤال فيقول: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**». رواه مسلم.

وروى عن ابن أبِي الدُّنْيَا عن بعض حفاظ القرآن: أَنَّهُ نام ليلة عن حزبه، فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له:

عجبتُ مِن جِسم ومن صحّة ... ومن فتى نام إلى الفجر
والموت لا تُؤمن خطفاته ... في ظُلَم الليل إذا يسرى

عباد الله...

وللحديث عن آداب حملة القرآن بقية، فإلى اللقاء - إن شاء الله تَعَالى.

۞۞۞۞۞

الخطبة الحادية والأربعون بعد المائة:

[٥] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٥) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا اتَّقُــوا اللَّهَ حَــقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث عن «آداب حملة القرآن».

واليوم - إن شاء الله تَعَالى - نتكلّم عن «آداب القراءة»، وأسأل الله تَعَالى التوفيق.

عباد الله...

فيقول الإمام النووي في كتابه «التبيان في آداب حملة القرآن» ما مختصره:

أول آداب القراءة: أَنَّهُ يجب على القارئ الإخلاص، ومراعاة الأدب مع القرآن، فينبغي أن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالى، ويقرأ على حال من يرى الله تعالى فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه.

وينبغي إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره، والاختيار في السواك أن يكون بعود من أراك، ويجوز بسائر العيدان، وبكل ما ينظف كالخرقة الخشنة والأشنان وغير ذَلِكَ(١).

وفي حصوله بالأصبع الخشنة ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعي رحمهم الله تعالى:

أشهرها: أنه لا يحصل.

والثاني: يحصل.

الثالث: يحصل إن لم يجد غيرها ولا يحصل إن وجد.

ويستاك عرضًا مبتدئًا بالجانب الأيمن من فمه وينوي به الإتيان بالسُّنَّة.

ويُستحب أن يقرأ وهو على طهارة، فإن قرأ محدثًا جاز بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة.

قال إمام الحرمين: ولا يقال ارتكب مكروهًا، بل هو تارك للأفضل، فإن لم يجد الماء تيمم، والمستحاضة في الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم المحدث، وأما الجنب والحائض فإنه يحرم عليهما قراءة القرآن سواء كان آية أو أقل منها.

ويجوز لهما إجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به.

ويجوز لهما النظر في المصحف وإمراره على القلب، وأجمع المسلمون على جواز التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والصلاة على النبي ﷺ، وغير ذَلِكَ من الأذكار للجنب والحائض.

---

(١) يتجنب استعمال سواك الغير خشية نقل العدوى، وأباح بعض العلماء ذَلِكَ عند التأكد من خلو الشخص من الأمراض المعدية.

قال أصحابنا: وكذا إذا قال لإنسان: خذ الكتاب بقوة، وقصد به غير القرآن فهو جائز وكذا ما أشبهه، ويجوز لهما أن يقولا عند المصيبة: (إنا لله وإنا إليه راجعون) إذا لم يقصدا القرآن.

قال أصحابنا الخراسانيون: ويجوز أن يقولا عند ركوب الدابة: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾، وعند الدعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾، إذا لم يقصدا القرآن.

قال إمام الحرمين: فإذا قال الجُنُب: (بسم الله والحمد لله) فإن قصد القرآن عصى، وإن قصد الذكر أو لم يقصد شيئًا لم يأثم، ويجوز لهما قراءة ما نسخت تلاوته، كـ(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة).

عباد الله...

فإذا لم يجد الجُنُب أو الحائض ماء تيمم، ويباح له القراءة والصلاة وغيرهما، فإن أحدث حُرّمت عليه الصلاة ولم تحرّم القراءة والجلوس في المسجد وغيرهما مما لا يحرم على المحدث، كما لو اغتسل ثم أحدث وهذا مما يسأل عنه ويستغرب فيقال: جُنُب يمنع من الصلاة ولا يمنع من قراءة القرآن والجلوس في المسجد من غير ضرورة، كيف صورته؟ فهذا صورته، ثم لا فرق مما ذكرناه بين تيمم الجنب في الحضر والسفر، وذكر بعض أصحاب الشافعي: أنه إذا تيمم في الحضر استباح الصلاة ولا يقرأ بعدها ولا يجلس في المسجد والصحيح جواز ذلك كما قدمناه.

ولو تيمم ثم صلى وقرأ ثم رأى ماء يلزمه استعماله، فإنه يحرم عليه القراءة وجميع ما يحرم على الجنب حتى يغتسل.

ولو تيمم وصلى وقرأ ثم أراد التيمم لحدث أو لفريضة أخرى أو لغير ذلك فإنه لا يحرم عليه القراءة على المذهب الصحيح المختار، وفيه وجه لبعض أصحاب الشافعي: أنه لا يجوز، والمعروف الأول، أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا ترابًا فإنه لا يصلي لحرمة الوقت على حسب حاله، ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة، ويحرم عليه أن يقرأ في الصلاة ما زاد على فاتحة الكتاب.

وهل يحرم عليه قراءة الفاتحة؟

فيه وجهان: **الصحيح المختار**: أنه لا يحرم، بل يجب فإن الصلاة لا تصح إلا بها، وكلما جازت الصلاة لضرورة مع الجنابة يجوز القراءة. والثاني: لا يجوز بل يأتي بالأذكار التي يأتي بها العاجز الذي لا يحفظ شيئا من القرآن؛ لأن هذا عاجز شرعًا فصار كالعاجز حسًّا.

والصواب الأول، وهذه الفروع التي ذكرناها يحتاج إليها فلهذا أشرت إليها بأوجز العبارات وإلا فلها أدلة وتتمات كثيرة معروفة في كتب الفقه، والله أعلم.

هذا؛ ويُستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعًا للنظافة وشرف البقعة، ومحصلا لفضيلة أخرى وهي الاعتكاف، فإنه ينبغي لكل جالس في المسجد الاعتكاف سواء أكثر في جلوسه أو أقل بل ينبغي أول دخوله المسجد أن ينوي الاعتكاف، وهذا الأدب ينبغي أن يعتني به ويشاع ذكره ويعرفه الصغار والعوام فإنه مما يغفل عنه.

وأما القراءة في الحمام فقد اختلف السلف في كراهيتها.

فقال أصحابنا: لا يكره، ونقله الإمام المجمع على جلالته: أبو بكر بن المنذر في «الأشراف» عن إبراهيم النخعي ومالك، وهو قول عطاء، وذهب إلى كراهته جماعات منهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رواه عنه ابن أبي داود

وحكى ابن المنذر عن جماعة من التابعين منهم أبو وائل شقيق بن سلمة والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، ورويناه أيضا عن إبراهيم النخعي وحكاه أصحابنا عن أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين.

قال الشعبي: تكره القراءة في ثلاثة مواضع: في الحَمَّامات، والحشوش، وبيوت الرحى وهي تدور.

وعن أبي ميسرة قال: لا يذكر الله إلا في مكان طيب، والله أعلم.

وأما القراءة في الطريق: فالمختار أنها جائزة غير مكروهة إذا لم يلته صاحبها، فإن التهى عنها كرهت كما كره النبي ﷺ القراءة للناعس مخافة من الغلط.

وروى أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ الله عَنْهُ: أنه كان يقرأ في الطريق، وروى عمر ابن عبد العزيز رحمه الله أنه أذن فيه.

قال ابن أبي داود: حدثني أبو الربيع قال: أخبرنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن الرجل يصلي من آخر الليل فيخرج إلى المسجد وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، قال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق، وكره ذَلِكَ. وهذا إسناد صحيح عن مالك رحمه الله.

ويُستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة، فقد جاء في الحديث: «**خير المجالس ما استقبل به القبلة**»[(١)].

ويجلس متخشعا بسكينة ووقار مطرقًا رأسه، ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه، فهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائما أو مضطجعا أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز وله أجر، ولكن دون الأول، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وثبت في الصحيح عن عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّكِئُ فِى حَجْرِى وَأَنَا حَائِضٌ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ والبُخَارِيُّ. وفي رواية: لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُ رَأْسَهُ فِى حِجْرِى وَأَنَا حَائِضٌ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ قال: إني لأقرأ في صلاتي وأقرأ على فراشي.

عباد الله...

فإن أراد الشروع في القراءة استعاذ فقال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) هكذا قال الجمهور من العلماء.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٧٨١)، وله طرق أخرى لا تثبت، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» بنحوه، وإسناده حسن، كذا قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٥٩).

وقال بعض العلماء: يتعوذ بعد القراءة لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وتقدير الآية عند الجمهور: إذا أردت القراءة فاستعذ بالله، ثم صيغة التعوذ كما ذكرناه وكان جماعة من السلف يقولون: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» ولا بأس بهذا، ولكن الاختيار هو الأول، ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب، وهو مستحب لكل قارئ سواء كان في الصلاة أو في غيرها، ويستحب في الصلاة في كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا، وعلى الوجه الثاني إنما يستحب في الركعة الأولى فإن تركه في الأولى أتى به في الثانية.

ويستحب التعوذ في التكبيرة الأولى في صلاة الجنازة على أصح الوجهين.

وينبغي أن يحافظ على قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة سوى «براءة» فإن أكثر العلماء قالوا: إنها آية، حيث تكتب في المصحف، وقد كتبت في أوائل السور سوى «براءة»، فإذا قرأها كان متيقنًا قراءة الختمة أو السورة، فإذا أخل بالبسملة كان تاركًا لبعض القرآن عند الأكثرين، فإذا كانت القراءة في وظيفة عليها جُعل كالأسباع، والأجزاء التي عليها أوقاف وأرزاق، كان الاعتناء بالبسملة أكثر لتيقن قراءة الختمة، فإنه إذا تركها لم يستحق شيئًا مِن الوقف عند مِن يقول: البسملة آية من أول السورة، وهذه دقيقة نفيسة يتأكد الاعتناء بها وإشاعتها.

فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب.

قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩].

والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة، وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح، وقد صُعق جماعة من السَّلف عند القراءة ومات جماعات حال القراءة، وروينا عن بهز بن حكيم: أن زرارة بن أوفى التابعي الجليل رَضِيَ الله عَنْهُ أَمَّهم في صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٨، ٩] خرّ ميِّتًا.

قال بهز: وكنت فيمن حمله[1].

وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف إبراهيم الخواص رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ: دواء القلب خمسة أشياء:

١ - قراءة القرآن بالتدبر.

٢- وخلاء البطن.

٣- وقيام الليل.

٤- والتضرع عند السحر.

٥- ومجالسة الصالحين.

وقد جاء الحث على التدبّر، وبيان موقعه، وتأثر السَّلف.

فعن تميم الداري رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ أنه كرر هذه الآية حتى أصبح[2]: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وعن عبادة بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو.

ورويت هذه القصة عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

وردد ابن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وردد سعيد بن جبير: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وردد أيضًا: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١].

---

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: صحّ ذَلِكَ.

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥١).

وردد أيضًا: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦].

وكان الضَّحاك إذا تلا قوله تَعَالَى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]. رددها إلى السَّحر.

هذا؛ وقَدْ تقدَّم بيان ما يحمل عَلَى البكاء في حال القراءة، وهو صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته.

وفي رواية: أنه كان في صلاة العشاء، فتدل على تكريره منه.

وفي رواية: أنه بكى حتى سُمِع بكاءه من وراء الصفوف.

وعن أبي رجاء قال رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشِّرَاك البالي مَن الدموع.

وعن أبي صالح قال: قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ الله عَنْهُ فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ الله عَنْهُ: هكذا كنا.

وعن هشام قال: ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل وهو في الصلاة.

والآثار في هذا كثيرة لا يمكن حصرها، وفيما أشرنا إليه ونبهنا عليه كفاية والله أعلم.

قال الإمام أبو حامد الغزالي: البكاء مُستحبٌّ مع القراءة وعندها.

وطريقه في تحصيله: أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذَلِكَ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص، فليبكِ على فقد ذَلِكَ، فإنه مِن أعظم المصائب.

وينبغي أن يرتل قراءته، وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم - على استحباب الترتيل قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

وثبت عن أُمّ سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ: قراءة مفسّرة حَرفًا حَرفًا[١]. رواه أبو داود والنسائي والترمذي قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٣٠٩١)، والنسائي =

وعن معاوية بن قرّة رَضِيَ الله عَنْهُ، عن عبد الله بن مغفل رَضِيَ الله عَنْهُ قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح، يرجع في قراءته. رواه البخاري ومسلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لئِن أقرأ سورة أرتلها أحبّ إليَّ مِن أن أقرأ القرآن كله بغير ترتيل.

وعن مجاهد أنه سُئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل.

وقد نُهي عن الإفراط في الإسراع، ويسمى الهذرمة.

فثبت عن عبد الله بن مسعود أن رجلًا قال له: إني أقرأ المفصّل في ركعة واحدة، فقال عبد الله بن مسعود: هذًّا كهذِّ الشِّعر، إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع القلب فرسخ فيه نفع. رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته.

قال العلماء والترتيل مُستحب للتدبر وغيره.

قالوا: يُستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب.

ويُستحب إذا مرّ بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن العذاب، أو يقول: «اللَّهُمَّ إني أسألك العافية أو أسألك المعافاة من كل مكروه» أو نحو ذَلِكَ، وإذا مر بآية تنزيه لله تعالى نزهه فقال: «سُبحَانَهُ وتَعَالى» أو «تبارك وتعالى» أو «جلت عظمة ربنا». فقد صحّ عن حُذَيْفَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ

= (٢/ ١٨١)، وغيرهم.

بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ». رواه مسلم في «صحيحه».

وكانت سورة النساء في ذلك الوقت مقدمة على آل عمران.

قال أصحابنا رحمهم الله تعالى: ويستحب هذا السؤال والاستعاذة والتسبيح لكل قارئ سواء كان في الصلاة أو خارجًا منها.

قالوا: ويستحب ذلك في صلاة الإمام والمنفرد والمأموم لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب الفاتحة، وهذا الذي ذكرناه من استحباب السؤال والاستعاذة هو مذهب الشافعي رَضِيَ الله عَنْهُ وجماهير العلماء رحمهم الله.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: ولا يستحب ذلك بل يكره في الصلاة والصواب قول الجماهير لما قدمناه.

عباد الله...

ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين فمن ذَلِكَ: اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة إلا كلامًا يُضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وليقتد بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه، ذكره في كتاب التفسير في قوله تعالى: ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ومن ذَلِكَ: العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه.

ومن ذَلِكَ: النظر إلى ما يلهي ويبدد الذهن، وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، كالأمرد وغيره، فإن النظر إلى الأَمْرَد[1] الحسن من غير حاجة حرام، سواء كان بشهوة أو بغيرها، سواء أمن الفتنة أو لم يأمنها، هذا هو المذهب الصحيح المختار

---

(١) **الأمرد**: الشاب الَّذِي بلغ خروج لحيته، ولم تَبْدُ لحيتهُ، وله صورة جميل.

عند العلماء، وقد نصّ على تحريمه الإمام الشافعي ومَن لا يُحصى مِن العلماء، ودليله قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]، ولأنه في معنى المرأة بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير مِن النساء ويتمكن من أسباب الريبة فيه، ويتسهل من طرق الشر في حقه ما لا يتسهل في حق المرأة، فكان تحريمه أَوْلَى وأقاويل السّلف في التنفير منهم أكثر من أن تحصى، وقد سموهم «الأنتان» لكونهم مستقذرين شرعًا.

وأما النظر إليه في حال البيع والشراء والأخذ والإعطاء والتطبب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة، فجائز للضرورة، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة ولا يديم النظر من غير ضرورة، وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذي يحتاج إليه ويحرم عليهم كلهم في كل الأحوال النظرة بشهوة، ولا يختص هذا بالأمرد بل يحرم على كل مكلف النظر بشهوة إلى كل أحد رجلا كان أو امرأة محرمًا كانت المرأة أو غيرها، إلا الزوجة أو المملوكة التي يملك الاستمتاع بها، حتى قال أصحابنا يحرّم النظر بشهوة إلى محارمه كأخته وأمه، والله أعلم.

وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئًا مِن هذه المنكرات المذكورة أو غيرها أن ينهوا عنه حسب الإمكان، باليد لمن قدر[1]، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان، وإلا فلينكر بقلبه، والله أعلم» ا.هـ..

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

❊❊❊

(١) شريطة ألا يأتي بضرر أشدّ، وإلا وجب الترك.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويبرز هنا سؤالان:

الأول: هل تجوز القراءة بالعجمية؟

والثاني: ما حكم قراءة القرآن بالقراءات السبع؟

ويجيب الإمام النووي -رَحِمَهُ الله- **عن هذين السؤالين فيقول:**

لا تجوز قراءة القرآن بالعجمية سواء أحسن العربية أو لم يحسنها، سواء كان في الصلاة أم في غيرها، فإن قرأ بها في الصلاة لم تصح صلاته، هذا مذهبنا ومذهب مالك وأحمد وداود وأبو بكر بن المنذر.

وقال أبو حنيفة: يجوز ذَلِكَ، وتصح به الصلاة.

وقال أبو يوسف ومحمد: يجوز ذلك لمن لم يحسن العربية ولا يجوز لمن يحسنها.

وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع المجمع عليها، ولا يجوز بغير السبع ولا بالروايات الشاذة المنقولة عن القراء السبعة.

وقال أصحابنا وغيرهم: لو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت صلاته إن كان عالما، وإن كان جاهلا لم تبطل ولم تحسب له تلك القراءة.

وقد نقل الإمام أبو عمر بن عبد البر الحافظ إجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ وأنه لا يصلى خلف من يقرأ بها

قال العلماء: من قرأ الشاذ إن كان جاهلًا به أو بتحريمه عرف بذلك، فإن عاد إليه أو كان عالمًا به عزر تعزيرًا بليغًا إلى أن ينتهي عن ذَلِكَ، ويجب على كل متمكن من الإنكار عليه ومنعه الإنكار والمنع». ا.هـ.

وللحديث بقية – إن شاء الله – فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ اجعل القُرآن رَبيع قُلوبنا، وذَهاب هُمُومِنا، وجلاءَ أَحْزَاننا، اللَّهُمَّ ذكِّرنا منه ما نسينا، وعَلِّمنا منه ما جَهِلنا، وارزقنا تلاوته على الوجه الذي يُرْضيك عَنَّا.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين



الخطبة الثانية والأربعون بعد المائة:

[٦] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٦) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث - إن شاء الله - الحديث عن «آداب حملة القرآن» وذَلِكَ فِي معرض حديثنا عن التابعية الجليلة «حفصة بنت سيرين» رحمها الله تَعَالى، وقَدْ تقدَّم معنا أَنَّها قرأت القرآن وهي بنت اثنتى عشرة سنة.

عباد الله...

ومن آداب القراءة:

إذا ابتدأ بقراءة أحد القراء فينبغي أن يستمر على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطًا، فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة، والأَوْلَى دوامه على الأُولى في هذا المجلس.

قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، ثم ما بعدها على الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها. حتى قال بعض أصحابنا: إذا قرأ في الركعة الأولى سورة: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ يقرأ في الثانية بعد الفاتحة من (البقرة).

قال بعض أصحابنا: ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة فينبغي أن يحافظ عليها، إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى: سورة السجدة وفي الثانية: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ [الإنسان: ١]، وصلاة العيد في الأولى: (ق) وفي الثانية: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾، وركعتين سُنة الفجر في الأولى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾، وركعات الوتر في الأولى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ وفي الثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة ثم قرأ سورة قبلها، جاز، فقد جاء بذلك آثار كثيرة وقد قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ في الركعة الأولى من الصبح بالكهف وفي الثانية بيوسف، وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف.

وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف، وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قيل له: إن فلانا يقرأ القرآن منكوسًا، فقال: ذلك منكوس القلب.

وأما قراءة السور من آخرها إلى أولها فممنوع منعًا متأكدًا، فإنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات، وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل والإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذَلِكَ، وأن مالكًا كان

يعيبه ويقول: هذا عظيم.

وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن، ليس هذا من هذا الباب، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم، والله أعلم.

هذا، وقراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر القلب، لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجتمع القراءة والنظر؛ هكذا قاله القاضي حسين من أصحابنا، وأبو حامد الغزالي، وجماعات من السلف، ونقل الغزالي في «الإحياء»: أن كثيرين من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقرءون من المصحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف.

وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف، ولم أر فيه خلافًا، ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولًا حسنًا، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل» ا.هـ[١].

عباد الله...

وقَدْ يسأل سائل: وما حُكم قراءة الجماعة مجتمعين؟

ويجيب الإمام النووي - رَحِمَهُ الله - عن هذا السؤال فيقول:

اعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة.

فقد صح عن النبي ﷺ: من رواية أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنه قال: **«مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ المَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»**[٢]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) «التبيان» للنووي.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٧)، ومسلم (١٧/ ٢٢)، وغيرهما.

وعن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». رواه مسلم وأبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا يُجْلِسُكُمْ؟». قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ لِمَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ. فَقَالَ: «آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟». قَالُوا: آللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ لِتُهْمَةٍ لَكُمْ إِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ» [(١)]. رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. والأحاديث في هذا كثيرة.

وروى الدارمي بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورًا[(٢)].

وروى ابن أبي داود أن أبا الدرداء رَضِيَ الله عَنْهُ كان يدرس القرآن معه نفر يقرءون جميعًا.

وروى ابن أبي داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات من أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين.

وعن حسان بن عطية والأوزاعي أنهما قالا: أول من أحدث الدراسة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل، في قَدْمته على عبد الملك.

وأما ما روى ابن أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب: أنه أنكر هذه الدراسة وقال: ما رأيت ولا سمعت وقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ - يعني ما رأيت أحدًا فعلها.

وعن ابن وهب قال: قلت لمالك: أرأيت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعًا سورة واحدة حتى يختموها، فأنكر ذلك وعابه وقال: ليس هكذا تصنع الناس، إنما كان يقرأ

(١) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٢ - ٢٣) وغيره.
(٢) صحيح: أخرجه الدارميّ (٣٣٧٠).

الرجل على الآخر يعرضه، فهذا الإنكار منهما مخالف لما عليه السلف والخلف، ولما يقتضيه الدليل فهو متروك، والاعتماد على ما تقدم من استحبابها، لكن القراءة في حال الاجتماع لها شروط قدمناها، ينبغي أن يعتنى بها، والله أعلم.

وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة ففيها نصوص كثيرة كقوله ﷺ: «**الدال على الخير كفاعله**»[١]، وقوله ﷺ: «**لَئِن يهدي الله بك رَجُلًا واحدًا خَيرٌ لك مِن حُمُر النِّعم**»[٢].

والأحاديث فيه كثيرة مشهورة وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾ [المائدة: ٢]، ولا شك في عظم أجر الساعي في ذَلِكَ.

وأما عن الإدارة بالقرآن:

وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرًا أو جزءًا أو غير ذلك ثم يسكت، ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول، ثم يقرأ الآخر، وهذا جائزٌ حسنٌ، وقد سُئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال: لا بأس به.

وأما عن رفع الصوت بالقراءة:

فيقول النووي رحمه الله تعالى: اعلم أنه جاء أحاديث كثيرة في الصحيح وغيره دالة على استحباب رفع الصوت بالقراءة، وجاءت آثار دالة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت، وسنذكر منها طرفًا يسيرًا إشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى:

قال الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا أن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذَلِكَ، فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت أفضل، لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى غيره، والمتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه، ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٨٠٩)، وأحمد (٥/ ٣٥٧).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٢٢٣)، ومسلم (١٥/ ١٧٩).

قالوا: فمهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الآجر.

قال الغزالي: ولهذا قلنا: القراءة في المصحف أفضل، فهذا حكم المسألة.

وأما الآثار المنقولة فكثيرة وأنا أشير إلى أطراف من بعضها:

ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**». رواه البخاري ومسلم. ومعنى أذن: استمع.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**» رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**».

وعَنْ أَبِى مُوسَى الأشعري أيضًا، قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالقُرْآنِ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ**». رواه البخاري ومسلم.

وعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»[1]. رواه أبو داود، والنسائي وغيرهما.

وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة، وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وهذا كله فيمن لا يخاف رياء ولا إعجابًا ولا نحوهما من القبائح ولا يؤذي جماعة يلبس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم، وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الإخفاء لخوفهم مما ذكرناه.

فعن الأعمش قال: دخلت على إبراهيم وهو يقرأ بالمصحف، فاستأذن عليه رجل فغطاه وقال: لا يرى هذا أني كنت أقرأ كل ساعة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥)، وأبو داود والنسائي وغيرهم.

وعن أبي العالية قال: كنت جالسًا مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم فقال رجل منهم: قرأت الليلة كذا، فقالوا: هذا حظك منه.

ويستدل هؤلاء بحديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الجَاهِرُ بِالقُرْآنِ كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالمُسِرُّ بِالقُرْآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**». رواه أبو داود والترمذي والنسائي[1]، قال الترمذي: حديث حسن. قال: ومعنى هذا الحديث: أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها، لأن صدقة السّرّ أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية.

قال: وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم، لكي يأمن الرجل من العجب؛ لأن الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه من العجب كما يخاف عليه من علانيته.

قلت: وكل هذا موافق لما تقدم تقريره في أول الفصل من التفصيل، وأنه إن خاف بسبب الجهر شيئًا مما يكره لم يجهر، وإن لم يخف استحب الجهر، فإن كانت القراءة من جماعة مجتمعين تأكد استحباب الجهر لما قدمناه، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم، والله أعلم» ا.هـ.

عباد الله...

أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين؛ على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة، كحديث: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»، وحديث: «**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**».

وكحديث سعد بن أبي وقاص، وحديث أبي لُبَابَةَ رضي الله عنهما، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**»[2]. رواه أبو داود بإسنادين جيدين، وفي إسناد سعد اختلاف لا يضر.

---

(١) وإسناده صحيح.

(٢) وأخرجه البخاري (٩/ ١٨٨)، من حديث أبي هريرة.

قال جمهور العلماء: معنى (لم يتغن) لم يُحسّن صوته.

وحديث البَرَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي العِشَاءِ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ. رواه البخاري ومسلم.

قال العلماء رحمهم الله: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها ما لم يخرج عن حدّ القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفًا أو أخفاه فهو حرام.

وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله في موضع: أكرهها، وفي موضع: لا أكرهها.

قال أصحابنا: ليست على قولين بل فيه تفصيل، إن أفرط في التمطيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه، وإن لم يجاوز فهو الذي لم يكرهه.

وقال أقضى القضاة الماوردي في كتابه «الحاوي»: القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو إخراج حركات منه أو قصر ممدود أو مد مقصور، أو تمطيط يخفي به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام، يفسق به القارئ ويأثم به المستمع؛ لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج والله تعالى يقول: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال: وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحًا لأنه زاد على ألحانه في تحسينه. هذا كلام أقضى القضاة.

وهذا القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبة ابتلي بها بعض الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرؤون على الجنائز وبعض المحافل، وهذه بدعة محرّمة ظاهرة يأثم كل مستمع لها كما قاله أقضى القضاة الماوردي، ويأثم كل قادر على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذَلِكَ، وقد بذلت فيها بعض قدرتي وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لإزالتها من هو أهل لذلك وأن يجعله في عافية.

قال الشافعي في «مختصر المزني»: ويحسّن صوته بأي وجه كان.

قال: وأحب ما يقرأ حدرًا وتحزينًا.

قال أهل اللغة: يقال: حدرت بالقراءة؛ إذا أدرجتها ولم تمططها، ويقال: فلان يقرأ

بالتحزين؛ إذا رقق صوته.

وقد روى ابن أبي داود بإسناده عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قرأ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يحزنها شبه الرثاء.

وفي سنن أبي داود[1] قيل لابن أبي مليكة: أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ فقال: يحسّنه ما استطاع.

ويواصل الإمام النووي رحمه الله تعالى كلامه فيقول:

اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا وهم يستمعون، وهذا متفق على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين، وهي سُنة ثابتة عن رسول الله ﷺ. فقد صحّ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ». قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا ﴾ قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ». فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. رواه البخاري ومسلم.

والآثار في هذا كثيرة معروفة، وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة، والله أعلم.

وقد استحب العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبي ﷺ ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت ما تيسر من القرآن، ثم إنه ينبغي للقارئ في هذه المواطن أن يقرأ ما يليق بالمجلس ويناسبه، وأن تكون قراءته في آيات الرجاء والخوف والمواعظ والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والتأهيب لها، وقصر الأمل، ومكارم الأخلاق.

ينبغي للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وأن يقف على الكلام المرتبط ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء، فإنها قد تكون في وسط الكلام المرتبط كالجزء الذي في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله تَعَالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ [يوسف: ٥٣]،

---

(١) بإسناد صحيح.

وفي قوله تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ [النمل: ٥٦]. وقوله تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وفي قوله تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [يس: ٢٨]، وفي قوله تَعَالَى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [فصلت: ٤٧]، وفي قوله تَعَالَى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: ٤٨]، وفي قوله تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الذاريات: ٣١].

وكذلك الأحزاب كقوله تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقوله تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥].

فكل هذا وشبيهه ينبغي أن يبتدأ به ولا يوقف عليه، فإنه متعلق بما قبله، ولا يغترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لا يراعون هذه الآداب ولا يفكرون في هذه المعاني، وامتثل ما روى الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض رَضِيَ الله عَنْهُ قال: لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغترن بكثرة الهالكين، ولا يضرك قلة السالكين.

ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال.

وقد روى ابن أبي داود بإسناده عن عبد الله بن أبي الهذيل التابعي المعروف رَضِيَ الله عَنْهُ قال: كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية ويتركوا بعضها» ا.هـ..

عباد الله...

وهناك بعض الأحوال تُكرَه فيها القراء، فما هي؟

يجيب النووي - رَحِمَهُ الله - فيقول:

«اعلم أن قراءة القرآن محبوبة على الإطلاق إلا في أحوال مخصوصة جاء الشرع بالنهي عن القراءة فيها وأنا أذكر الآن ما حضرني منها مختصرة بحذف الأدلة فإنها مشهورة، فتكره القراءة في حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام. وتكره القراءة بما زاد على الفاتحة للمأموم في الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام. وتكره حالة القعود على الخلاء. وفي حالة النعاس. وكذا إذا استعجم عليه

القرآن. وكذا في حالة الخطبة لمن يسمعها ولا تكره لمن لم يسمعها بل تستحب، هذا هو المختار الصحيح وجاء عن طاوس كراهيتها وعن إبراهيم عدم الكراهة فيجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلنا كما ذكره أصحابنا.

ولا تكره القراءة في الطواف، هذا مذهبنا وبه قال أكثر العلماء، وحكاه ابن المنذر عن عطاء ومجاهد وابن المبارك وأبي ثور وأصحاب الرأي، وحكي عن الحسن البصري وعروة بن الزبير ومالك كراهتها في الطواف، والصحيح الأول وقد تقدم بيان الاختلاف في القراءة في الحمام وفي الطريق وفيمن فمه نجس.

هذا؛ **ومن البدع المنكرة في القراءة**: ما يفعله جهلة المصلين بالناس في التراويح من قراءة سورة الأنعام في الركعة الأخيرة في الليلة السابعة معتقدين أنها مستحبة فيجمعون أمورًا منكرة:

منها: اعتقادها مستحبة.

ومنها: إيهام العوام ذَلِكَ.

ومنها: تطويل الركعة الثانية على الأولى وإنما السنة تطويل الأولى.

ومنها: التطويل على المأمومين.

ومنها: هذرمة القراءة.

ومن البدع المشابهة لهذا: قراءة بعض جهلتهم في الصبح يوم الجمعة بسجدة غير سجدة (الـم تنزيل) [السجدة] قاصدًا ذَلِكَ، وإنما السُّنة قراءة (الـم تنزيل) في الركعة الأولى، و(هل أتى) في الثانية» ا.هـ.

عباد الله..

هذه آداب مهمّة، فلتكن منا على بال، وفوائد جمّة فلتكن نُصب أعيننا.

وفَّقني الله وإيَّاكم لعمل الصالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بذكر مسائل غريبة تدعو الحاجة إليها:

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ الله -:

منها: أنه إذا كان يقرأ فعرض له ريح، فينبغي أن يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجها، ثم يعود إلى القراءة، كذا رواه ابن أبي داود وغيره عن عطاء وهو أدب حسن.

ومنها: أنه إذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب ثم يقرأ.

قال مجاهد: وهو حسن. ويدل عليه ما ثبت عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ عَلَى فِيهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ**». رواه مسلم.

ومنها: أنه إذا قرأ قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٠]، و﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾ [المائدة: ٦٤]، و﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** ﴾ [مريم: ٨٨]، ونحو ذلك من الآيات ينبغي أن يخفض بها صوته، كذا كان إبراهيم النخعي رَضِيَ الله عَنْهُ يفعل.

ومنها: ما رواه ابن أبي داود بإسناد ضعيف عن الشعبي أنه قيل له: إذا قرأ الإنسان: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، يصلي على النبي ﷺ؟ قال: نعم.

ومنها: أنه يستحب له أن يقول ما رواه أبو هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قرأ (التين والزيتون) فقال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين**»، رواه أبو داود والترمذي بإسناد ضعيف عن رجل عن أعرابي عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ.

قال الترمذي: هذا الحديث إنما يروى بهذا الإسناد عن الأعرابي عن أبي هريرة، قال: ولا يسمى.

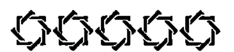
وروى ابن أبي داود وغيره في هذا الحديث زيادة عَلَى رواية أبي داود والترمذي: «**ومَن قرأ آخر** ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ** ﴾ : ﴿ **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى** ﴾ [القيامة: ٤٠]، **فليقل: بلى، وأنا أشهد، ومَن قرأ:** ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن: ١٣] أو ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [المرسلات: ٥٠]، **فليقل: آمنت بالله تَعَالى**».

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والزبير، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم، أنهم كانوا إذا قرأ أحدهم: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ قال: سبحان ربي الأعلى، ثلاث مرات.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه صلى فقرأ آخر سورة (بني إسرائيل) [﴿ **وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾] ثم قال: الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا.

وقد نص بعض أصحابنا على أنه يستحب أن يقال في الصلاة ما قدمناه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ في السور الثلاث، وكذلك يستحب أن يقال باقي ما ذكرناه وما كان في معناه، والله أعلم» ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله، فإلى اللقاء.



الخطبة الثالثة و الأربعون بعد المائة:

[٧] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٧) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث عن «آداب حملة القرآن» وإطالة النَّفَس في هذا الموضوع مطلوب ومرغوب فيه لأهميته.

عباد الله...

ويواصل الإمام النووي -رَحِمَهُ الله- الكلام عن آداب القراءة، فيقول:

وإذا ورد على القارئ من فيه فضيلة من علم أو شرف، أو سن مع صيانة، أو له

حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها، فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والإكرام لا للرياء والإعظام، بل ذلك مُستحبٌّ، وقد ثبت القيام للإكرام من فعل النبي ﷺ وفعل أصحابه رضي الله عنهم بحضرته وبأمره، ومن فعل التابعين ومَن بعدهم مِن العلماء الصالحين.

إذا كان يقرأ ماشيًا فمرَّ على قوم يُستحب أن يقطع القراءة ويُسلم عليهم ثم يرجع إلى القراءة، ولو أعاد التعوّذ كان حسنًا، ولو كان يقرأ جالسًا فمر عليه غيره فقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي: الأَوْلَى ترك السلام على القارئ لاشتغاله بالتلاوة، قال: فإن سلم عليه إنسان كفاه الرّد بالإشارة.

قال: فإن أراد الرد باللفظ رده ثم استأنف الاستعاذة وعاود التلاوة.

وهذا الذي قاله ضعيف، والظاهر وجوب الرّد باللفظ، فقد قال أصحابنا: إذا سلم الداخل يوم الجمعة في حال الخطبة، وقلنا: الإنصات سُنة وجب له ردّ السلام على أصح الوجهين. فإذا قالوا: هذا في حال الخطبة مع الاختلاف في وجوب الإنصات وتحريم الكلام، ففي حال القراءة التي لا يحرم الكلام فيها بالإجماع أَوْلى، مع أن رد السلام واجب بالجملة، والله أعلم.

وأما إذا عطس في حال القراءة فإنه يستحب أن يقول: الحمد لله، وكذا لو كان في الصلاة ولو عطس غيره وهو يقرأ في غير الصلاة وقال: الحمد لله، يستحب للقارئ أن يشمته فيقول: يرحمك الله.

ولو سمع المؤذن قطع القراءة وأجابه بمتابعته في ألفاظ الأذان والإقامة ثم يعود إلى قراءته، وهذا متفق عليه عند أصحابنا، وأما إذا طلبت منه حاجة في حال القراءة وأمكنه جواب السائل بالإشارة المفهمة، وعلم أنه لا ينكسر قلبه ولا يحصل عليه شيء من الأذى للأنس الذي بينها بينهما ونحوه، فالأَوْلَى أن يجيبه بالإشارة ولا يقطع القراءة فإن قطعها جاز، والله أعلم» ا.هـ..

عباد الله...

وتحت عنوان «**أحكام نفيسة تتعلّق بالقراءة في الصلاة**» يقول النووي رحمه الله:

منها: أنه يجب القراءة في الصلاة المفروضة بإجماع العلماء، ثم قال مالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء: تتعين قراءة الفاتحة في كل ركعة، وقال أبو حنيفة وجماعة: لا تتعين الفاتحة أبدًا. قال: ولا تجب قراءة الفاتحة في الركعتين الأخيرتين.

والصواب الأول، فقد تظاهرت عليها الأدلة من السُّنة ويكفي من ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لاَ تُجْزِئُ صَلاَةٌ لاَ يَقْرَأُ الرَّجُلُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**».

وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة في ركعتي الصبح والأولتين من باقي الصلوات، واختلفوا في استحبابها في الثالثة والرابعة.

وللشافعي فيها قولان؛ الجديد: أنها لا تستحب، والقديم: أنها تستحب.

قال أصحابنا: وإذا قلنا: إنها تستحب فلا خلاف أنه يستحب أن يكون أقل من القراءة في الأولتين. قالوا: وتكون القراءة في الثالثة والرابعة منه سواء.

وهل تطول الأولى على الثانية فيها وجهان؛ أصحهما عند جمهور أصحابنا أنها لا تطول، والثاني وهو الصحيح عند المحققين: أنها تطول وهو المختار للحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ: كان يطول في الأولى ما لا يطول في الثانية، وفائدته أن يدرك المتأخر الركعة الأولى، والله أعلم.

قال الشافعي رحمه الله: وإذا أدرك المسبوق مع الإمام الركعتين الأخيرتين من الظهر وغيرها ثم قام إلى الإتيان، بما بقي عليه استحب أن يقرأ السورة.

قال الجماهير من أصحابنا: هذا على القولين، وقال بعضهم: هذا على قوله: (يقرأ السورة في الأخيرتين)، أما على الآخر: فلا، والصواب الأول لئلا تخلو صلاته من سورة، والله أعلم.

هذا حكم الإمام المنفرد، أما المأموم فإن كانت صلاته سريّة وجبت عليه الفاتحة واستحب له السورة، وإن كانت جهريّة فإن كان يسمع قراءة الإمام كره له قراءة السورة وفي وجوب الفاتحة قولان: أصحهما: تجب. والثاني: لا تجب.

وإن كان لا يسمع القراءة فالصحيح وجوب الفاتحة واستحباب السورة، وقيل: تجب ولا تستحب السورة، والله أعلم.

وتجب قراءة الفاتحة في الركعة الأولى من صلاة الجنازة وأما قراءة الفاتحة في صلاة النافلة فلا بد منها.

واختلف أصحابنا في تسميتها فيها فقال القفال: تسمى واجبة.

وقال صاحبه القاضي حسين: تسمى شرطًا.

وقال غيرهما: تسمى ركنا، وهو الأظهر والله أعلم.

والعاجز عن الفاتحة في هذا كله يأتي ببدلها فيقرأ بقدرها من غيرها من القرآن، فإن لم يحسن أتى بقدرها من الأذكار كالتسبيح والتهليل ونحوهما، فإن لم يحسن شيئًا وقف بقدر القراءة، ثم يركع[١] والله أعلم.

ولا بأس بالجمع بين سورتين في ركعة واحدة، فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قال: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصّل، كل سورتين في ركعة.

وأجمع المسلمون على استحباب الجهر بالقراءة في الصبح والجمعة والعيدين، والأولتين من المغرب والعشاء، وفي صلاة التراويح والوتر عقيبها، وهذا مستحب للإمام والمنفرد بما ينفرد به منها.

وأما المأموم فلا يجهر بالإجماع، ويسنّ الجهر في صلاة كسوف القمر ولا يجهر في كسوف الشمس، ويجهر في الاستقاء، ولا يجهر في الجنازة إذا صليت بالنهار وكذا في الليل على المذهب الصحيح المختار، ولا يجهر في نوافل النهار غير ما ذكرناه من العيدين والاستسقاء.

واختلف أصحابنا[٢] في نوافل الليل: فالأظهر أنه لا يجهر. والثاني: أنه يجهر. والثالث وهو الأصح وبه قطع القاضي حسين والبغوي: يقرأ بين الجهر والإسرار.

---

(١) حسم النبيُّ ﷺ هذا الخلاف، ففي «صحيح سنن أبي داود» (٧٤٢): أن جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ. قَالَ: «قُلْ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ واللهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ». وحسنه الألباني.

(٢) يعني الشافعية.

ولو فاته صلاة بالليل فقضاها بالنهار أو بالنهار فقضاها بالليل، فهل يعتبر في الجهر والإسرار وقت الفوات أم وقت القضاء؟ فيه وجهان لأصحابنا، أظهرهما: الاعتبار بوقت القضاء ولو جهر في موضع الإسرار أو أسر في موضع الجهر، فصلاته صحيحة ولكنه ارتكب المكروه ولا يسجد للسهو.

واعلم أن الإسرار في القراءة والتكبيرات وغيرهما من الأذكار هو أن يقوله بحيث يسمع نفسه، ولا بد من نطقه بحيث يسمع نفسه، إذا كان صحيح السمع ولا عارض له، فإن لم يسمع نفسه لم تصح قراءته ولا غيرها من الأذكار بلا خلاف.

قال أصحابنا: يُستحب للإمام في الصلاة الجهرية أن يسكت أربع سكتات في حال القيام.

إحداها: أن يسكت بعد تكبيرة الإحرام ليقرأ دعاء التوجه وليحرم المأمومون.

والثانية: عقيب الفاتحة سكتة لطيفة جدًا بين آخر الفاتحة وبين (آمين) لئلا يتوهم أن آمين من الفاتحة.

والثالثة: بعد (آمين) سكتة طويلة بحيث يقرأ المأمومون الفاتحة.

والرابعة: بعد الفراغ من السورة يفصل بها بين القراءة وتكبيرة الهويّ إلى الركوع.

ويُستحب لكل قارئ كان في الصلاة أو في غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول: (آمين)، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، وقد قدمنا أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة وآمين بسكتة لطيفة ومعناه: اللَّهُمَّ استجب، وقيل: كذلك فليكن، وقيل: افعل، وقيل: معناه لا يقدر على هذا أحد سواك، وقيل: معناه لا تخيب رجاءنا، وقيل معناه: اللَّهُمَّ أمَّنا بخير، وقيل: هو طابع الله على عباده يدفع به عنهم الآفات، وقيل: هي درجة في الجنة يستحقها قائلها، وقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى؛ وأنكر المحققون والجماهير هذا. وقيل: هو اسم عبراني غير معرب. وقال أبو بكر الوراق: هو قوة للدعاء واستنزال للرحمة، وقيل غير ذَلِكَ.

وفي (آمين) لغات، قال العلماء: أفصحها (آمين) بالمد وتخفيف الميم، والثانية: بالقصر. وهاتان مشهورتان، والثالثة: (آمين) بالإمالة مع المد، حكاها الواحدي عن حمزة والكسائي. والرابعة: بتشديد الميم مع المد؛ حكاها عن الحسن والحسين بن الفضيل.

قال: ويحقق ذلك ما روي عن جعفر الصادق رَضِيَ الله عَنْهُ قال: معناه: قاصدين نحوك وأنت أكرم من أن تخيب قاصدًا، هذا كلام الواحدي، وهذه الرابعة غريبة جدًّا فقد عدَّها أكثر أهل اللغة من لحن العوام.

وقال جماعة من أصحابنا: من قالها في الصلاة بطلت صلاته.

قال العلماء: ويُستحب التأمين في الصلاة للإمام والمنفرد، ويجهر الإمام والمنفرد بلفظ (آمين) في صلاة الجهرية واختلفوا في جهر المأموم، والصحيح أنه يجهر. والثاني: لا يجهر. والثالث: يجهر إن كان جمعًا كثيرًا، وإلَّا فَلَا.

ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام لا قبله ولا بعده لقول النبي ﷺ في الصحيح: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ. فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(١)].

وأما قوله ﷺ في الصحيح: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا...**»[(٢)]، فمعناه: إذا أراد التأمين.

قال أصحابنا: وليس في الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا في قوله: (آمين)، وأما في الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم.

عباد الله...

وأثناء تلاوتنا للقرآن الكريم تمرّ بنا آيةٌ بها سجدة.

فما هي الأحكام التي تتعلّق بها؟

يُجيب الإمامُ النووي - رَحِمَهُ الله - فيقول:

أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة واختلفوا في أنه أمر استحباب أم إيجاب فقال الجماهير: ليس بواجب بل مستحب، وهذا قول عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ، وابن عباس، وعمران بن حصين، ومالك، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي ثور، وداود، وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩٨)، ومسلم (٤/ ١٢٩)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٩٨)، ومسلم (٤/ ١٢٨)، وغيرهما.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: هو واجب، واحتج بقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

واحتج الجمهور بما صحّ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ: أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال: يا أيها الناس إنما نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه، ولم يسجد عمر. رواه البخاري.

وهذا الفعل والقول من عمر رَضِيَ الله عَنْهُ في هذا المجمع دليلٌ ظاهر، وأما الجواب عن الآية التي احتج بها أبو حنيفة رَضِيَ الله عَنْهُ فظاهر لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبًا كما قال تعالى بعده: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢].

وثبت في الصحيحين عن زيد بن ثابت رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قرأ على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد.

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ سجد في النجم، فدلّ على أنه ليس بواجب.

أما عِددها المختار الذي قاله الشافعي رحمه الله والجماهير أنها أربع عشرة سجدة: في الأعراف، والرعد، والنحل، وسبحان [أي: الإسراء]، ومريم، وفي الحج سجدتان، وفي الفرقان، والنمل، والـم، وحم السجدة، والنجم، وإذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربك، وأما سجدة (ص) فمستحبة، فليست من عزائم السجود، أي متأكد أنه ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ص) ليست من عزائم السجود، وقد رأيت النبي ﷺ سجد فيها[1].

هذا مذهب الشافعي ومن قال مثله.

وقال أبو حنيفة: هي أربع عشرة أيضًا، لكن أسقط الثانية من الحج وأثبت سجدة (ص) وجعلها من العزائم، وعن أحمد روايتان؛ إحداهما: كالشافعي، والثانية: خمس عشرة، زاد (ص)، وهو قول أبي العباس بن شريح، وأبي إسحق المروزي من أصحاب الشافعي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٠)، وأبو داود (١٤٠٩)، وغيرهما.

وعن مالك روايتان؛ إحداهما: كالشافعي، وأشهرهما: إحدى عشرة، أسقط النجم، وإذا السماء انشقت، واقرأ، وهو قول قديم للشافعي، والصحيح ما قدمناه والأحاديث الصحيحة تدلّ عليه.

هذا، وحكم سجود التلاوة حكم صلاة النافلة في اشتراط الطهارة عن الحدث، وعن النجاسة، وفي استقباله القبلة، وستر العورة، فتحرم على من ببدنه أو ثوبه نجاسة غير معفو عنها، وعلى المحدث إلا إذا تيمم في موضع يجوز فيه التيمم، وتحرم إلى غير القبلة إلا في السفر حيث تجوز النافلة إلى غير القبلة وهذا كله متفق عليه(١).

وإذا قرأ سجدة (ص) فمن قال: إنها من عزائم السجود قال: يسجد سواء قرأها في الصلاة أو خارجها كسائر السجدات، وأما الشافعي وغيره ممن قال: ليست من العزائم فقالوا: إذا قرأها خارج الصلاة استحب له السجود لأن النبي ﷺ سجد فيها كما قدمناه، وإن قرأها في الصلاة لم يسجد، فإن سجد وهو جاهل أو ناسٍ لم تبطل صلاته، ولكن يسجد للسهو، وإن كان عالما فالصحيح أنه تبطل صلاته لأنه زاد في الصلاة ما ليس منها فبطلت، كما لو سجد للشكر فإنها تبطل صلاته بلا خلاف. **والثاني:** لا تبطل لأن له تعلقًا بالصلاة ولو سجد إمامه في (ص) لكونه يعتقدها من العزائم والمأموم لا يعتقد فلا يتابعه بل يفارقه أو ينتظره قائما.

وإذا انتظره هل يسجد للسهو؟ فيه وجهان؛ أظهرهما أنه لا يسجد(٢).

عباد الله...

مَنْ يُسَنّ له السّجود؟

اعلم أنه يسن للقارئ المطهر بالماء أو التراب حيث يجوز سواء كان في الصلاة أو خارجا منها، ويسن للمستمع، ويسن أيضًا للسامع غير المستمع، ولكن قال الشافعي:

---

(١) قال ابن تيمية -رَحِمَهُ الله - في «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٢٩): «لا يشترط في سجود التلاوة شروط الصَّلاة، بل يجوز عَلَى غير طهارة، واختارها البخاري، لكن السجود بشروط الصلاة أفضل، فالسجود بلا طهارة خير من الاخلال به» ا.هـ.

(٢) الظاهر - والله أعلم - متابعة المأموم للإمام في هذا لعموم قوله ﷺ: «**إنما جُعل الإمام ليؤتم به**».

لا أؤكد في حقه كما أؤكد في حق المستمع؛ هذا هو الصحيح. وقال إمام الحرمين من أصحابنا: لا يسجد السامع، والمشهور الأول، وسواء كان القارئ في الصلاة أو خارجًا منها يسن للسامع والمستمع السجود وسواء سجد القارئ أم لا، هذا هو الصحيح المشهور عند أصحاب الشافعي، لا يسجد المستمع لقراءة من في الصلاة.

وقال الصيدلاني من أصحاب الشافعي: لا يسن السجود إلا أن يسجد القارئ، والصواب الأول، ولا فرق بين أن يكون القارئ مسلمًا بالغًا متطهرًا رجلاً وبين أن يكون كافرًا أو صبيًا أو محدثًا أو امرأة، هذا هو الصحيح عندنا، وبه قال أبو حنيفة.

وقال بعض أصحابنا: لا يسجد لقراءة الكافر والصبي والمحدث والسكران.

وقال جماعة من السلف: لا يسجد لقراءة المرأة، حكاه ابن المنذر عن قتادة ومالك وإسحاق والصواب ما قدمناه.

أمَّا اختصار السجود:

وهو أن يقرأ آية أو آيتين ثم يسجد، حكى ابن المنذر عن الشعبي والحسن البصري ومحمد بن سيرين والنخعي وأحمد وإسحاق أنهم كرهوا ذَلِكَ، وعن أبي حنيفة ومحمد ابن الحسن وأبي ثور: أنه لا بأس به، وهذا مقتضى مذهبنا.

إذا كان مصليًا منفردًا سجد لقراءة نفسه فلو ترك سجود التلاوة وركع ثم أراد أن يسجد للتلاوة لم يجز فإن فعل مع العلم بطلت صلاته، وإن كان قد هوى لسجود التلاوة ثم بدا له ورجع إلى القيام جاز، أما إذا أصغى المنفرد بالصلاة لقراءة قارئ في الصلاة أو غيرها فلا يجوز له أن يسجد، ولو سجد مع العلم بطلت صلاته، أما المصلي في جماعة فإن كان إمامًا فهو كالمنفرد وإذا سجد الإمام لتلاوة نفسه وجب على المأموم أن يسجد معه، فإن لم يفعل بطلت صلاته، فإن لم يسجد الإمام لم يجز للمأموم السجود، فإن سجد بطلت صلاته، ولكن يستحب أن يسجد إذا فرغ من الصلاة ولا يتأكد ولو سجد الإمام ولم يعلم المأموم حتى رفع الإمام رأسه من السجود فهو معذور في تخلفه ولا يجوز أن يسجد ولو علم، والإمام بعد في السجود وجب السجود، فلو هوى إلى السجود فرفع الإمام رأسه وهو في الهوي يرفع معه، ولم يجز السجود.

وكذا الضعيف الذي هوى مع الإمام إذا رفع الإمام قبل بلوغ الضعيف إلى السجود لسرعة الإمام وبطء المأموم يرجع معه ولا يسجد، وأما إن كان المصلي مأمومًا فلا يجوز أن يسجد لقراءة نفسه ولا لقراءة غير إمامه، فإن سجد بطلت صلاته وتكره له قراءة غير إمامه.

أما وقت السجود للتلاوة:

فقد قال العلماء: ينبغي أن يقع عقيب آية السجدة التي قرأها أو سمعها، فإن أخَّر ولم يطل الفصل سجد، وإن طال فقد فات السجود، فلا يقضي على المذهب الصحيح المشهور كما لا تقضى صلاة الكسوف.

وقال بعض أصحابنا: فيه قول ضعيف: أنه يقضي كما تقضى السنن الراتبة كسنة الصبح والظهر وغيرهما، فأما إذا كان القارئ أو المستمع محدثًا عند تلاوة السجدة، فإن تطهر عن قرب سجد، وإن تأخرت طهارته حتى طال الفصل، فالصحيح المختار الذي قطع به الأكثرون: أنه لا يسجد، وقيل: يسجد، وهو اختيار البغوي من أصحابنا، كما يجيب المؤذن بعد الفراغ من الصلاة، والاعتبار في طول الفصل في هذا بالعرف على المختار، والله أعلم.

- وإذا قرأ السجدات كلها أو سجدات منها في مجلس واحد سجد لكل سجدة بلا خلاف، فإن كرر الآية الواحدة في مجالس سجد لكل مرة بلا خلاف، فإن كررها في المجلس الواحد نظر، فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع، وإن سجد للأولى ففيه ثلاثة أوجه:

أصحها: يسجد لكل مرة سجدة لتجدد السبب بعد توفية حكم الأول.

والثاني: يكفيه سجدة الأولى عن الجميع، وهو قول ابن سريج وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، قال صاحب «العدة» من أصحابنا: وعليه الفتوى، واختاره الشيخ نصر المقدسي الزاهد من أصحابنا.

والثالث: إن طال الفصل سجد وإلا فتكفيه الأولى، أما إذا كرر السجدة الواحدة في الصلاة فإن كان في ركعة فيه كالمجلس الواحد فيكون فيه الأوجه الثلاثة، وإن كان

في ركعتين فكالمجلسين فيعيد السجود بلا خلاف.

- وإذا قرأ السجدة وهو راكب على دابة في السفر سجد بالإيماء، هذا مذهبنا ومذهب مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، وأحمد، وزفر، وداود، وغيرهم.
- وقال بعض أصحاب أبي حنيفة: لا يسجد، والصواب مذهب الجماهير، وأما الراكب في الحضر فلا يجوز أن يسجد بالإيماء.
- إذا قرأ آية السجدة في الصلاة قبل الفاتحة سجد، بخلاف ما إذا قرأ في الركوع أو السجود، فإنه لا يجوز أن يسجد لأن القيام محل القراءة، ولو قرأ السجدة فهوى ليسجد فشك هل قرأ الفاتحة؟ فإنه يسجد للتلاوة ثم يعود إلى القيام فيقرأ الفاتحة لأن سجود التلاوة لا يؤخّر.
- لو قرأ آية السجدة بالفارسية لا يسجد عندنا، كما لو فسر آية سجدة. وقال أبو حنيفة: يسجد
- إذا سجد المستمع مع القارئ لا يرتبط به ولا ينوي الاقتداء به، وله الرفع من السجود قبله.
- لا تكره قراءة آية السجدة للإمام عندنا سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية، ويسجد إذا قرأها، وقال مالك: يكره ذلك مطلقًا، وقال أبو حنيفة: يكره في السرية دون الجهرية
- لا يكره عندنا سجود التلاوة في الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، وبه قال الشعبي، والحسن البصري، وسالم بن عبد الله، والقاسم، وعطاء، وعكرمة، وأبو حنيفة، وأصحاب الرأي، ومالك في إحدى الروايتين، وكرهت ذلك طائفة من العلماء منهم: عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، ومالك في الرواية الأخرى، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور.
- لا يقوم الركوع مقام سجدة التلاوة في حال الاختيار، وهذا مذهبنا ومذهب جماهير العلماء السلف والخلف، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يقوم مقامه. ودليل الجمهور: القياس على سجود الصلاة، وأما العاجز عن السجود فيومئ إليه كما يومئ لسجود الصلاة» ا.هـ.

عباد الله...

أما عن صفة السجود، فسيأتي بيانُها بعد قليل - إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول الإمام النووي -رَحِمَهُ الله - في كتابه الممتع «**التبيان في آداب حملة القرآن**»:

اعلم أن الساجد للتلاوة له حالان:

أحدهما: أن يكون خارج الصلاة.

والثاني: أن يكون فيها.

أما الأول فإذا أراد السجود نوى سجود التلاوة وكبَّر للإحرام ورفع يديه حذو منكبيه كما يفعل في تكبيرة الإحرام للصلاة، ثم يكبر تكبيرة أخرى للهوي إلى السجود ولا يرفع فيها اليد، وهذه التكبيرة الثانية مستحبّة ليست بشرط كتكبيرة سجدة الصلاة، وأما التكبيرة الأولى تكبيرة الإحرام ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا:

أظهرها: وهو قول الأكثرين منهم: أنها ركن ولا يصح السجود إلا بها.

والثاني: أنها مستحبة ولو تركت صح السجود، وهذا قول الشيخ أبي محمد الجويني.

والثالث: ليست مستحبة، والله أعلم.

ثم إن كان الذي يريد السجود قائما كبَّر للإحرام في حال قيامه ثم يكبر للسجود في انحطاطه إلى السجود وإن كان جالسًا.

فقد قال جماعات من أصحابنا: يُستحب له أني قوم فيكبر للإحرام قائمًا ثم يهوي للسجود، كما إذا كان في الابتداء قائما، ودليل هذا القياس على الإحرام والسجود في الصلاة.

وممن نص على هذا وجزم به من أئمة أصحابنا: الشيخ أبو محمد الجويني، والقاضي حسين، وصاحباه صاحب «التتمة» و«التهذيب»، والإمام المحقق أبو القاسم الرافعي، وحكاه إمام الحرمين عن والده الشيخ أبي محمد ثم أنكره وقال: لم أر لهذا أصلًا ولا ذكرًا.

وهذا الذي قاله إمام الحرمين ظاهر فلم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ ولا عمن يقتدي به من السلف ولا تعرض له الجمهور من أصحابنا، والله أعلم

ثم إذا سجد فينبغي أن يراعي آداب السجود في الهيئة والتسبيح.

أما الهيئة فينبغي أن يضع يديه حذو منكبيه على الأرض، ويضم أصابعه وينشرها إلى جهة القبلة ويخرجها من كمه، ويباشر المصلي بها، ويجافي مرفقيه عن جنبيه، ويرفع بطنه عن فخذيه إن كان رجلا، فإن كانت امرأة أو خنثى لم يجاف، ويرفع الساجد أسافله على رأسه ويمكّن جبهته وأنفه من المصلى، ويطمئن في سجوده.

وأما التسبيح في السجود فقال أصحابنا: يسبّح بما يسبّح به في سجود الصلاة فيقول ثلاث مرات: (سبحان ربي الأعلى) ثم يقول: (اللَّهُمَّ لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، تبارك الله أحسن الخالقين)، ويقول: (سُبُوحٌ قُدُوسٌ رَبُّ الملائكةِ والرُّوح)، فهذا كله مما يقوله المصلي في سجود الصلاة.

قالوا ويستحب أن يقول: (اللَّهُمَّ اكتب لي بها عندك أجرًا واجعلها لي عندك ذخرًا، وضع عني وزرًا، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود عَلَيْهِ السَّلام.

وهذا الدعاء خصيص بهذا السجود، فينبغي أن يحافظ عليه، وذكر الأستاذ إسماعيل الضرير في كتابه «التفسير»: أن اختيار الشافعي رَضِيَ الله عَنْهُ في دعاء سجود التلاوة أن يقول: (سبحان ربّنا إنْ كان وعد ربنا لمفعُولًا) وهذا النقل عن الشافعي غريب جدًّا، وهو حسن.

فإن ظاهر القرآن يقتضي مدح قائله في السجود، فيستحب أن يجمع بين هذه الأذكار كلها ويدعو بما يريد من أمور الآخرة والدنيا، وإن اقتصر على بعضها حصل

أصل التسبيح، ولو لم يسبح بشيء أصلا حصل السجود كسجود الصلاة، ثم إذا فرغ من التسبيح والدعاء رفع رأسه مكبرا.

وهل يفتقر إلى السلام؟ فيه قولان منصوصان للشافعي مشهوران:

أصحهما عند جماهير أصحابه: أنه يفتقر لافتقاره إلى الإحرام، ويصير كصلاة الجنازة، ويؤيد هذا ما رواه ابن أبي داود بإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ أنه كان إذا قرأ السجدة سجد ثم سلم.

والثاني: لا يفتقر كسجود التلاوة في الصلاة.

ولأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ذلك فعلى الأول.

هل يفتقر إلى التشهد؟ فيه وجهان؛ أصحهما: لا يفتقر كما لا يفتقر إلى القيام، وبعض أصحابنا يجمع بين المسألتين ويقول في التشهد والسلام ثلاثة أوجه:

أصحها: أنه لا بد من السلام دون التشهد.

والثاني: لا يحتاج إلى واحد منهما.

والثالث: لابُدّ منهما.

وممن قال من السلف «يُسلم»: محمد بن سيرين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الأحوص، وأبو قلابة، وإسحاق بن راهويه.

وممن قال «لا يسلم»: الحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ويحيى ابن وثاب، وأحمد.

وهذا كله في الحال الأول وهو السجود خارج الصلاة، **والحال الثاني**: أن يسجد للتلاوة في الصلاة فلا يكبر للإحرام ويستحب أن يكبر للسجود ولا يرفع يديه، ويكبر للرفع من السجود، هذا هو الصحيح المشهور الذي قاله الجمهور.

وقال أبو علي بن أبي هريرة من أصحابنا: لا يكبر للسجود ولا للرفع، والمعروف الأول.

وأما الآداب في هيئة السجود والتسبيح فعلى ما تقدم في السجود خارج الصلاة، إلا

أنه إذا كان الساجد إماما فينبغي أن لا يطول التسبيح إلا أن يعلم من حال المأمومين أنهم يؤثرون التطويل، ثم إذا رفع من السجود قام ولا يجلس للاستراحة بلا خلاف.

وهذه مسألة غريبة قلّ من نص عليها، وممن نصّ عليها: القاضي حسين، والبغوي، والرافعي، هذا بخلاف سجود الصلاة، فإن القول الصحيح المنصوص للشافعي المختار الذي جاءت به الأحاديث الصحيحة في البخاري وغيره: استحباب جلسته للاستراحة عقيب السجدة الثانية من الركعة الأولى في كل الصلوات، ومن الثالثة في الرباعيات، ثم إذا رفع من سجدة التلاوة فلابد من الانتصاب قائما، والمستحب إذا انتصب أن يقرأ شيئًا ثم يركع، فإن انتصب ثم ركع من غير قراءة جاز» ا.هـ.



الخطبة الرابعة والأربعون بعد المائة:

[٨] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

(٨) آداب حملة القرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث عن «آداب حملة القرآن» وذَلِكَ في معرض حديثنا عن التابعية الجليلة «حفصة بنت سيرين» رحمها الله تَعَالَى.

وقَدْ تقدَّم معنا أَنَّهَا قرأت القرآن وهي بنت ثنتي عشرة سنة.

عباد الله...

ويواصل الإمام النووي -رَحِمَهُ الله - كلامه عن آداب القراءة، فيقول:

إذا ارتج على القارئ ولم يدر ما بعد الموضع الذي انتهى إليه، فسأل عنه غيره، فينبغي أن يتأدب، بما جاء عن عبد الله بن مسعود، وإبراهيم النخعي، وبشير بن أبي مسعود رضي الله عنهم قالوا: إذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرأ ما قبلها ثم يسكت، ولا يقول: كيف كذا وكذا؟ فإنه يلتبس عليه.

إذا أراد أن يستدل بآية فله أن يقول: قال الله تعالى كذا، وله أن يقول الله تعالى يقول كذا، ولا كراهة في شيء من هذا، هذا هو الصحيح المختار الذي عليه عمل السلف والخلف، وروى ابن أبي داود عن مطرف بن عبد الله بن الشخير التابعي المشهور قال: لا تقولوا إن الله تعالى يقول، ولكن قولوا إن الله تعالى قال.

وهذا الذي أنكره مطرف - رحمه الله - خلاف ما جاء به القرآن والسنة وفعلته الصحابة ومَن بعدهم رضي الله عنهم.

فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَاللَّـهُ يَقُولُ الْـحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ [الأحزاب: ٤].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله سبحانه وتعالى**: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْـحَسَنَةِ فَلَـهُ عَشْرُ أَمْثَالِـهَا** ﴾ [الأنعام: ١٦٠]».

وفي «صحيح البخاري» في باب تفسير: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءٍ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**». قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ.

فهذا كلام أبي طلحة في حضرة النَّبيّ ﷺ.

وفي «الصحيح» عن مسروق -رَحِمَهُ الله - قال: قلت لعائشة رضي الله عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِى وَلاَ تَعْجَلِينِى أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْـمُبِينِ**﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى** ﴾ [النجم: ١٣]. فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِى خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ**

هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ». فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ(١): ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٥]. قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ونظائر هذا من كلام السلف والخلف أكثر من أن تحصى، والله أعلم» ا.هـ.

عباد الله...

أمَّا آداب الختم وما يتعلّق به:

فيقول الإمام النووي رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: في وقته: قد تقدم أن الختم للقارئ وحده يستحب أن يكون في الصلاة، وأنه قيل: يستحب أن يكون في ركعتي سنة الفجر وركعتي سنة المغرب، وفي ركعتي الفجر أفضل، وأنه يستحب أن يختم ختمة في أول النهار في دور، ويختم ختمة أخرى في آخر النهار في دور آخر، وأما مَن يختم في غير الصلاة والجماعة الذين يختمون مجتمعين فيستحب أن تكون ختمتهم أول النهار أو في أول الليل كما تقدم، وأول النهار أفضل عند بعض العلماء.

المسألة الثانية: يُستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يومًا نهى الشرع عن صيامه، وقد روى ابن أبي داود بإسناده الصحيح: أن طلحة بن مطرف وحبيب بن أبي ثابت والمسيب بن رافع التابعيين الكوفيين رضي الله عنهم أجمعين، كانوا يصبحون في اليوم الذي يختمون فيه القرآن صيامًا(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٩٠)، ومسلم (٢/ ٨).

(٢) لم أجد نصًّا فيما أعلم عن المعصوم ﷺ يدلّ عَلَى هذا الاستحباب.

المسألة الثالثة: يُستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابًا متأكدًا، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ أمر الحُيَّض بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين[١].

وروى ابن أبي داود بإسنادين صحيحين عن قتادة التابعي الجليل صاحب أنس رَضِيَ الله عَنْهُ قال: كان أنس بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا[٢].

وروى بأسانيده الصحيحة عن الحكم بن عيينة التابعي الجليل قال: أرسل إليَّ مجاهد وعتبة بن لبابة فقالا: إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن.

وفي بعض الروايات الصحيحة: وأنه كان يقال: إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن[٣].

وروى بإسناده الصحيح عن مجاهد قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون: تنزل الرحمة.

المسألة الرابعة: الدُّعاء مُستحب عقيب الختم استحبابًا متأكدًا، لما ذكرناه في المسألة التي قبلها.

المسألة الخامسة: يُستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب الختمة، فقد استحبه السلف واحتجوا فيه بحديث أنس رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الحَالُّ المُرْتَحِلُ**». قِيلَ: وَمَا الحَالُّ المُرْتَحِلُ؟ قَالَ: «**صَاحِبُ القُرْآنِ يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِ القُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ، وَمِنْ آخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ**»[٤].

عباد الله...

وعن آداب الناس كلّهم مع القرآن، يقول الإمام النووي رحمه الله: ثبت في «صحيح

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٨٣)، ومسلم (٦/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه الدارمي (٣٤٧٧).

(٣) **إسناده صحيح:** أخرجه الدارمي (٣٤٨٥).

(٤) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي (٤٠١٨) بنحوه، وفي سنده صالح المُرّي، وهو ضعيف.

مسلم» رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

قال العلماء رحمهم الله: النصيحة لكتاب الله تعالى هي: الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذبّ عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاغين، والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله، والاعتناء بمواعظه والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه، وإلى ما ذكرناه من نصيحته.

وأجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته، وأجمعوا على أن من جحد منه حرفًا مما أجمع عليه أو زاد حرفا لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك، فهو كافر.

قال الإمام الحافظ أبو الفضل القاضي عياض رحمه الله: اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحد حرفًا منه، أو كذَّب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته وهو عالم بذلك، أو يشك في شيء من ذَلِكَ، فهو كافر بإجماع المسلمين، وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل أو كتب الله المنزلة أو كفر بها أو سبَّها أو استخف بها فهو كافر.

قال: وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو في الأقطار المكتوب في الصحف الذي بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى آخر ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ كلام الله ووحيه المنزّل على نبيِّه محمد ﷺ، وأن جميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفًا قاصدًا لذلك أو بدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفًا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع فيه الإجماع، وأجمع على أنه ليس بقرآن عامدًا لكل هذا، فهو كافر.

قال أبو عثمان بن الحذاء: جميع أهل التوحيد متفقون على أن الجحد بحرف من القرآن كفر، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ أحد أئمة المقرئين

المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته، وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة منه، وكتبوا فيه سجلا أشهدوا فيه على نفسه في مجلس الوزير أبي عليّ بن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة.

وأفتى محمد بن أبي زيد فيمن قال لصبي: لعن الله معلمك وما علمك، قال: أردت سوء الأدب، ولم أرد القرآن، قال: يؤدب القائل.

قال: وأما من لعن المصحف، فإنه يُقتل. هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله.

ويُحرّم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه، فمن كان أهلا للتفسير جامعًا للأدوات حتى التي يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد، فسره، إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني والأحكام الجلية والخفية والعموم والخصوص والإعراب وغير ذَلِكَ.

وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية، فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته، فحرام عليه التفسير لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله.

ثم المفسرون برأيهم من غير دليل صحيح، أقسام:

منهم: من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خاطره، مع أنه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية، وإنما يقصد الظهور على خصمه.

ومنهم: مَن يقصد الدعاء إلى خير، ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله.

ومنهم: مَن يفسّر ألفاظه العربية من غير وقوف على معانيها عند أهلها، وهي مما لا يؤخذ إلَّا بالسماع من أهل العربية وأهل التفسير، كبيان معنى اللفظ وإعرابها، وما فيها من الحذف والاختصار، والإضمار والحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والتقديم والتأخير، والإجمال والبيان، وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر، ولا يكفي مع ذلك معرفة العربية وحدها بل لا بد معها من معرفة ما قاله أهل التفسير فيها، فقد يكونون

مجتمعين على ترك الظاهر أو على إرادة الخصوص أو الإضمار وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر، وكما إذا كان اللفظ مشتركا في معان فعلم في موضع أن المراد أحد المعاني ثم فسّر كل ما جاء به فهذا كله تفسير بالرأي، وهو حرام، والله أعلم.

ويُحرّم المِراء في القرآن والجدال فيه بغير حق، **فمِن ذَلِكَ**: أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه ويحتمل احتمالا ضعيفا موافقة مذهبه، فيحملها على مذهبه ويناظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول، وأما مَن لا يظهر له ذلك فهو معذور، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المِرَاءُ في القُرآن كُفْر**»(١).

قال الخطابي: المراد بالمراء: الشك. وقيل: الجدال المشكك فيه. وقيل: وهو الجدال الذي يفعله أهل الأهواء في آيات القدر ونحوها.

وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف، أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع ونحو ذَلِكَ، أن يقول: ما الحكمة في كذا؟!

ويكره أن يقول: نسيت آية كذا، بل يقول: أنسيتها أو أسقطتها، فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو شيء نُسِّيَ**».

وفي رواية في الصحيحين أيضًا: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بِئْسَمَا لأَحَدِهِمْ أَوْ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ**».

وثبت في الصحيحين أيضًا: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: «**رَحِمَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِى كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَسْقَطْتُهَا**».

وفي رواية الصحيح: «**كُنت أنسيتها**».

وأما ما رواه ابن أبي داود عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ التابعيّ الجليل، أنَّهُ قَالَ: «لا تقل أسقطت آية كذا، قل: أعقلت»، فهو خلاف ما ثبت في الحديث الصحيح، فالاعتماد عَلَى الحديث، وهو جواز «أسقطت» وعدم الكراهة فيه.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٦)، وأبو داود (٤٦٠٣)، وغيرهما.

ويجوز أن يقال: (سورة البقرة)، و(سورة آل عمران) و(سورة النساء)، و(سورة المائدة)، و(سورة الأنعام)، وكذا الباقي لا كراهة في ذَلِكَ، وكره بعض المتقدمين هذا وقال: يقال: «السورة التي يذكر فيها البقرة»، و«السورة التي يذكر فيها آل عمران»، و«السورة التي يذكر فيها النساء»، وكذا البواقي.

والصواب الأول فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قوله: «**سورة البقرة وسورة الكهف**» وغيرهما مما لا يحصى، وكذلك عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال ابن مسعود: هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة.

وعنه في الصحيحين قرأت على رسول الله ﷺ سورة النساء.

والأحاديث وأقوال السلف في هذا أكثر من أن تحصر.

ولا يكره أن يقال: هذه قراءة أبي عمرو، أو قراءة نافع، أو حمزة، أو الكسائي، أو غيرهم؛ هذا هو المختار الذي عليه السلف والخلف من غير إنكار، وروى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي أنه قال: كانوا يكرهون أن يقال: سنة فلان وقراءة فلان. والصحيح ما قدمناه.

ولا يُمنع الكافر من سماع القرآن لقول الله تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٦]، ويمتنع من مس المصحف.

وهل يجوز تعليمه القرآن؟ قال أصحابنا: إن كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه، وإن رجي إسلامه فوجهان: **أصحهما**: يجوز رجاء إسلامه. **والثاني**: لا يجوز كما لا يجوز بيع المصحف منه وإن رجي إسلامه.

وأما إذا رأيناه يتعلم فهل يمنع؟ فيه وجهان.

واختلف العلماء في كتابة القرآن في إناء ثم يغسل ويُسْقى المريض، فقال الحسن ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي: لا بأس به، وكرهه النخعي.

قال القاضي حسين والبغوي وغيرهما من أصحابنا: ولو كُتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة، فلا بأس بأكلها.

قال القاضي: ولو كان على خشبة كره إحراقها.

ومذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن، وبأسماء الله تعالى.

قال عطاء: لا بأس بكتب القرآن في قبلة المسجد.

وأما كتابة الحروز من القرآن فقال مالك: لا بأس به إذا كان في قصبة أو جلد وخرز عليه.

وقال بعض أصحابنا(١): إذا كتب في الخرز قرآنًا مع غيره(٢)، فليس بحرام، ولكن الأوْلَى تركه لكونه يُحمل في حال الحدث، وإذا كُتب يُصان بما قاله الإمام مالك رحمه الله.» ا.هـ.

عباد الله...

أما عن النَّفْثِ مع القرآنِ للرُّقْيَة، فيقول الإمام النووي رحمه الله:

روى ابن أبي داود عن أبي جُحَيفة الصحابي رَضِيَ الله عَنْهُ واسمه: وهب بن عبد الله، وقيل: غير ذَلِكَ. وعن الحسن البصري وإبراهيم النَّخعي أنهم كرهوا ذَلِكَ، والمختار: أن ذلك غير مكروه بل هو سُنة مُستحبّة.

فقد ثبت عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وَ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ**﴾ وَ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وفي روايات في الصحيحين زيادة على هذا، ففي بعضها قالت عائشة رضي الله عنها: فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِى أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ.

وفي بعضها: «كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِى الْمَرَضِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ».

وفي بعضها: «كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ».

قال أهل اللغة: النفث نفخ لطيف بلا ريق، والله أعلم.

---

(١) يعني الشافعية.

(٢) شريطة أن يكون الكلام المكتوب لا يخالف العقيدة.

عباد الله...

أما عن الآيات والسور المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة، فيقول الإمام النووي رحمه الله:

السُّنَّة أن يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة في الركعة الأولى سورة (الـم تنزيل) بكمالها، وفي الثانية: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ بكمالها، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل واحدة منهما مع تمطيط القراءة، بل ينبغي أن يقرأهما بكمالهما ويدرج قراءته مع ترتيل.

والسُّنة أن يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى: سورة الجمعة بكمالها، وإن شاء ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ وفي الثانية: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ. وليتجنب الاقتصار على البعض وليفعل ما قدمناه.

والسُّنة في صلاة العيد في الركعة الأولى: سورة (ق)، وفي الثانية: سورة (الساعة) بكمالها، وإن شاء: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ وفي الثانية: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾ فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ وليجتنب الاقتصار على البعض.

ويقرأ في ركعتي سُنة الفجر بعد الفاتحة الأولى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾، وإن شاء قرأ في الأولى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الثانية: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِـمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويُقرأ في سُنة المغرب: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾ ويقرأ بهما أيضا في ركعتي الطواف وركعتي الاستخارة.

ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات: في الركعة الأولى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ وفي الثانية: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ وفي الثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين.

ويُستحب أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة، لحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغيره فيه.

قال الإمام الشافعي في «الأم»: ويستحب أن يقرأها أيضا ليلة الجمعة.

ودليل هذا ما رواه أبو محمد الدارمي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ الله عَنْهُ قال: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ البَيْتِ العَتِيقِ.

وَيُستحب الإكثار من تلاوة آية الكرسي في جميع المواطن، وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة، فقد صح عن عقبة بن عامر رَضِيَ الله عَنْهُ قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دُبُر كل صلاة». رواه أبو داود والترمذي والنسائي، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ويُستحب أن يقرأ عند النوم آية الكرسي، و﴿قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين وآخر سورة البقرة، فهذا مما يهتم له ويتأكد الاعتناء به، فقد ثبت فيه أحاديث صحيحة عن أبي مسعود البدري رَضِيَ الله عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهِمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**».

قال جماعة من أهل العلم: كفتاه عن قيام الليل، وقال آخرون: كفتاه المكروه في ليلته.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: كان كل ليلة يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين.

وروي عن أبي داود بإسناده عن علي - كرم الله وجهه - قال: ما كنت أرى أحدًا يعقل، دخل في الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي.

وعن علي - كرم الله وجهه - أيضًا قال: ما كنت أرى أحدًا يَعْقِل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة. إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ الله عَنْهُ قال: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «**يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ أَلاَ أُعَلِّمُكَ سُوَراً مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ لاَ يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلاَّ قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**».

قَالَ عُقْبَةُ: فَمَا أَتَتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ إِلاَّ قَرَأْتُهُنَّ فِيهَا[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦/ ٦٨)، والترمذي (٣٤٦٦)، وغيرهما.

وعن إبراهيم النخعي قال: «كانوا يستحبون أن يقرؤوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين». إسناده صحيح على شرط مسلم.

وعن إبراهيم أيضًا: كانوا يعلمونهم إذا آووا إلى فراشهم أن يقرؤوا المعوذتين.

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل[١]» رواه الترمذي وقال: حسن[٢].

ويُستحب أن يقرأ إذا استيقظ من النوم كل ليلة: آخر آل عمران من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى آخرها فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ خواتيم آل عمران إذا استيقظ.

ويُستحب أن يقرأ عند المريض بالفاتحة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح فيها: «**وما أدراك أنها رقية**».

ويُستحب أن يقرأ عنده: ق﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مع النفث في اليدين، فقد ثبت في الصحيحين من فعل رسول الله ﷺ.

وعن طِلحة بن مطرف قال: كان المريض إذا قرئ عنده القرآن وجد لذلك خفة، فدخلت على خيثمة وهو مريض فقلت: إني أراك اليوم صالحا، فقال: إني قُرئ عندي القرآن.

وروى الخطيب أبو بكر البغدادي رحمه الله بإسناده: أن الرمادي رَضِيَ الله عَنْهُ كان إذا اشتكى شيئًا قال: هاتوا أصحاب الحديث، فإذا حضروا قال: اقرؤوا عليَّ الحديث. فهذا في الحديث، فالقرآن أوْلى.

ويواصل الإمام النووي رحمه الله كلامه فيقول:

«واعلم أن القرآن العزيز كان مُؤلفًا في زمن النبي ﷺ على ما هو في المصاحف اليوم، ولكن لم يكن مجموعًا في مصحف، بل كان محفوظًا في صدور الرجال، فكان

---

(١) هي سورة الإسراء.

(٢) وأخرجه أحمد غيره، وإسناده صحيح.

طوائف من الصحابة يحفظونه كله، وطوائف يحفظون أبعاضًا منه، فلما كان زمن أبي بكر الصديق رَضِيَ الله عَنْهُ، وقتل كثير من حملة القرآن، خاف موتهم واختلاف من بعدهم فيه، فاستشار الصحابة رضي الله عنهم في جمعه في مصحف فأشاروا بذلك، فكتبه في مصحف وجعله في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فلما كان في زمن عثمان رَضِيَ الله عَنْهُ وانتشر الإسلام خاف، عثمان وقوع الاختلاف المؤدي إلى ترك شيء من القرآن أو الزيادة فيه، فنسخ من ذلك المجموع الذي عند حفصة، الذي أجمعت الصحابة عليه، مصاحف وبعث بها إلى البلدان وأمر بإتلاف ما خالفها، وكان فعله هذا باتفاق منه ومن عليّ بن أبي طالب وسائر الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم.

وإنما لم يجعله النبي ﷺ في مصحف واحد، لما كان يتوقع من زيادته ونسخ بعض المتلو، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ، فلما أمن أبو بكر وسائر أصحابه ذلك التوقع واقتضت المصلحة جمعه فعلوه رضي الله عنهم، واختلفوا في عدد المصاحف التي بعث بها عثمان.

فقال الإمام أبو عمرو الداني: أكثر العلماء على أن عثمان كتب أربع نسخ فبعث إلى البصرة إحداهن. وإلى الكوفة أخرى. وإلى الشام أخرى. وحبس عنده أخرى.

وقال أبو حاتم السجستاني: كتب عثمان سبعة مصاحف: بعث واحدًا إلى مكة. وآخر إلى الشام. وآخر إلى اليمن. وآخر إلى البحرين. وآخر إلى البصرة. وآخر إلى الكوفة. وحبس بالمدينة واحدًا.

وهذا مختصر ما يتعلق بأول جمع المصحف وفيه أحاديث كثيرة في الصحيح.

وفي المصحف ثلاث لغات: ضم الميم، وكسرها، وفتحها، فالضم والكسر مشهورتان، والفتح ذكرها أبو جعفر النحاس وغيره.

واتفق العلماء على استحباب كتابة المصاحف، وتحسين كتابتها، وتبيينها وإيضاحها، وتحقق الخط دون مشقة، وتعليقه.

قال العلماء: ويُستحب نقط المصحف وشَكْله، فإنه صيانة من اللَّحْن فيه، وتصحيفه،

وأما كراهة الشَّعبي والنَّخعي: النقط، فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفًا مِن التغيير فيه، وقد أمن ذلك اليوم، فلا منع ولا يمتنع من ذلك لكونه محدثًا؛ فإنه من المحدثات الحسنة، فلم يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم، وبناء المدارس، والرباطات وغير ذَلِكَ. والله أعلم.

ولا يجوز كتابة القرآن بشيء نجس، وتكره كتابته على الجدران عندنا، وفيه مذهب عطاء الذي قدمناه، وقد قدمنا أنه إذا كتب على الأطعمة فلا بأس بأكلها، وأنه إذا كتب على خشبة كره إحراقها.

وأجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه.

قال أصحابنا وغيرهم: ولو ألقاه مسلم في القاذورة - والعياذ بالله تعالى - صار الملقي كافرًا.

قالوا: ويحرّم تَوَسُّدُه، بل توسد آحاد كتب العلم حرام.

ويُستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه، لأن القيام مستحب للفضلاء من العلماء والأخيار، فالمصحف أَوْلَى.

وقد قررت دلائل استحباب القيام في الجزء الذي جمعته فيه، وروينا في «مسند الدارمي» بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة: أن عكرمة بن أبي جهل رَضِيَ الله عَنْهُ كان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي.

وتحرم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو إذا خيف وقوعه في أيديهم، للحديث المشهور في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ» (١).

ويحرم بيع المصحف من الذِّمي، فإن باعه ففي صحة البيع قولان للشافعي:

أصحهما: لا يصح.

والثاني: يصح ويؤمر في الحال بإزالة ملكه عنه.

ويمنع المجنون والصبي الذي لا يميز من مس المصحف مخافة من انتهاك حرمته، وهذا المنع واجب على الولي وغيره ممن رآه يتعرض لحمله.

---

(١) ورواه أيضًا أبو داود وغيره.

ويُحرم على المحدث مَسّ المصحف وحمله[١]، سواء حمله بعلاقته أو بغيرها، سواء مس نفس الكتابة أو الحواشي أو الجلد، ويحرم مس الخريطة والغلاف والصندوق إذا كان فيهن المصحف، هذا هو المذهب المختار وقيل: لا تحرم هذه الثلاثة؛ وهو ضعيف، ولو كتب القرآن في لوح فحكمه حكم المصحف، سواء قلّ المكتوب أو كثر، حتى لو كان بعض آية كتب للدراسة حرّم مسّ اللوح.

وإذا تصفح المحدث أو الجنب أو الحائض أوراق المصحف بعود أو شبهه ففي جوازه وجهان لأصحابنا:

أظهرهما: جوازه، وبه قطع العراقيون من أصحابنا لأنه غير ماس ولا حامل.

والثاني: تحريمه؛ لأنه يعد حاملًا للورقة، والورقة كالجميع.

وأما إذا لف كمه على يده وقلب الورقة فحرام بلا خلاف، وغلط بعض أصحابنا فحكى فيه وجهين، والصواب: القطع بالتحريم لأن القلب يقع باليد لا بِالكُم.

وإذا كتب الجُنُب أو المُحدث مصحفًا، إن كان يحمل الورقة أو يمسها حال الكتابة فحرام، وإن لم يحملها ولم يمسها ففيه ثلاثة أوجه: **الصحيح**: جوازه. **والثاني**: تحريمه. **والثالث**: يجوز للمحدث ويحرم على الجُنُب.

وإذا مسّ المحدث أو الجُنُب أو الحائض أو حمل كتابًا مِن كُتب الفقه أو غيره من العلوم، وفيه آيات من القرآن، أو ثوبًا مطرزًا بالقرآن، أو دراهم أو دنانير منقوشة به، أو حمل متاعًا في جملته مصحف، أو لمس الجدار أو الحلوى أو الخبز المنقوش به، فالمذهب الصحيح: جواز هذا كله؛ لأنه ليس بمصحف، وفيه وجه: أنه حرام.

---

(١) قال صاحب كتاب «صحيح فقه السنة» (١/ ١٤٦): «لا دليل عَلَى إيجاب الوضوء لمسّ المصحف، وهو مذهب أبي حنيفة وداود وابن حزم، وبه قال ابن عَبَّاس وجماعة من السّلف، واختاره ابن المنذر في (الأوسط) (٢/ ١٠٣)، والله أعلم» ا.هـ.
قلت: والضمير في قوله تَعَالَى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، عائد - عند أكثر المفسّرين - إلى الكتاب المكنون الذي في السماء وهو اللوح المحفوظ، والمطهرون: هم الملائكة. وأما حديث: «لا يمس القرآن إلّا طاهر» فضعيف.

وقال أقضى القضاة أبو حسن الماوردي في كتابه «الحاوي»: يجوز مس الثياب المطرزة بالقرآن ولا يجوز لبسها بلا خلاف؛ لأن المقصود بلبسها التبرك بالقرآن.

وهذا الذي ذكره أو قاله ضعيف، لم يوافقه أحد عليه فيما رأيته، بل صرح الشيخ أبو محمد الجويني وغيره بجواز لبسها، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

وأما كُتب تفسير القرآن فإن كان القرآن فيها أكثر من غيره حُرّم مسَّها وحملها، وإن كان غيره أكثر كما هو الغالب ففيها ثلاثة أوجه:

أصحها: لا يحرم. **والثاني**: يحرم. **والثالث**: إن كان القرآن بخط متميز بغلظ أو حمرة أو غيرها حرم، وإن لم يتميز لم يحرم.

قلت: ويحرم المس إذا استويا، قال صاحب التتمة من أصحابنا: وإذا قلنا: لا يحرم فهو مكروه.

وأما كتب حديث رسول الله ﷺ، فإن لم يكن فيها آيات من القرآن لم يحرم مسَّها، والأَوْلى أن لا تمس إلا على طهارة، وإن كان فيها آيات من القرآن لم يحرم على المذهب، وفيه وجه: أنه يحرّم، وهو الذي في كُتب الفقه.

وأما المنسوخ تلاوته كـ (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) وغير ذَلِكَ؛ فلا يحرم مسّه ولا حمله.

قال أصحابنا: وكذلك التوراة والإنجيل.

وإذا كان في موضع من بدن المتطهر نجاسة غير معفو عنها، حُرّم عليه مسّ المصحف بموضع النجاسة بلا خلاف، ولا يحرم بغيره على المذهب الصحيح المشهور الذي قاله جماهير أصحابنا وغيرهم من العلماء.

وقال أبو القاسم الصيمري من أصحابنا: يُحرّم، وغلّطه أصحابنا في هذا.

قال القاضي أبو الطيب: هذا الذي قاله مردود بالإجماع، ثم على المشهور قال بعض أصحابنا: إنه مكروه، والمختار: أنه ليس بمكروه

وَمَن لم يجد ماء فتيمم حيث يجوز التيمم له، مسّ المصحف سواء كان تيممه للصلاة أو لغيرها مما يجوز التيمم له.

وأما من لم يجد ماء ولا ترابًا فإنه يصلي على حسب حاله، ولا يجوز له مسّ المصحف لأنه محدث، جوّزنا له الصلاة للضرورة، ولو كان معه مصحف ولم يجد من يودعه عنده وعجز عن الوضوء جاز له حمله للضرورة.

قال القاضي أبو الطيب: ولا يلزمه التيمم، وفيما قاله نظر.

وينبغي أن يلزمه التيمم، أما إذا خاف على المصحف من حرق أو غرق أو وقوع في نجاسة أو حصوله في يد كافر، فإنه يأخذه ولو كان محدثا للضرورة» ا.هـ..

عباد الله...

هذه آداب مهمة، فاحرصوا على التحلِّي بها، وفَّقني الله وإيَّاكم لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم الحديث عن «آداب حملة القرآن» بذكر السؤال التالي:

الأول: هل يجب عَلَى الوليّ والمعلّم تكليف الصبيّ المتميز بالطهارة لحمل المصحف واللوح اللّذين يقرأ فيهما.

يجيب الإمام النووي -رَحِمَهُ الله- عن هذا السؤال فيقول: يصح بيع المصحف وشراؤه، ولا كراهة في شرائه، وفي كراهة بيعه وجهان لأصحابنا: **أصحهما** وهو نص الشافعي: أنه يكره، ومَن قال: لا يكره بيعه وشراؤه: الحسن البصري وعكرمة، والحكم بن عيينة، وهو مروي عن ابن عباس.

وكرهت طائفة من العلماء بيعه وشراؤه، وحكاه ابن المنذر عن علقمة وابن سيرين والنخعي، وشريح، ومسروق، وعبد الله بن زيد. وروي عن عمر وأبي موسى الأشعري التغليظ في بيعه. وذهبت طائفة إلى الترخيص في الشراء وكراهة البيع، حكاه ابن المنذر عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، والله أعلم.

۞۞۞۞۞

الخطبة الخامسة والأربعون بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

مجاهدة النَّفْس في طاعة الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيذكر أهلُ السِّر: أن حفصة بنت سيرين - رحمها الله تَعَالَى - كانت تُسْرِج سراجها في اللَّيْل ثم تقوم في مصلَّاها، فربّما طُفئ السِّراج فيُضيء لها البيت حَتَّى تُصبح[١].

(١) «أحاسن المحاسن» (٥٤٠).

عباد الله...

وهذه الكرامة ثمرة الإقبال عَلَى الله تَعَالى.

قَالَ بعض السَّلف: تركتموه وأقبله بعضكم عَلَى بعض، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

إن مجاهدة النَّفْس في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومجاهدتها في ترك ما نهى الله عنه، مِن الوسائل المفضيّة إلى الوصول.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**». ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾.

ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟**». فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإسلام، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ**(١) **ذَلِكَ كُلِّهِ؟**». فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ**(٣) **بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ**

---

(١) **الملاك:** قوام الشيء ونظامه وما يعتمد عليه فيه.

(٢) **صحيح:** رواه الترمذي (٢٦١٦).

(٣) **آذنته:** أي: أعلمته.

الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[(١)].

عباد الله...

إن محاسبة النَّفْس ومجاهدتها طريقان لابُدَّ للسَّالك منهما.

قَالَ ابن رجب الحنبليّ - رَحِمَهُ الله - في مجاهدة النَّفْس عن أبي بكر قوله: «وَهَذَا الجِهَاد يحتاجُ أيضًا إلى صَبْرٍ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى مُجَاهَدِةِ نَفْسِهِ وهَوَاهُ وشَيْطَانِهِ غَلَبَهُم، وحَصَلَ لَهُ النَّصر والظَّفَرُ، وملَكَ نَفَسْهُ، فَصَارَ مَلِكاً عَزيزًا، ومَنْ جَزِعَ ولم يَصبر عَلَى مُجَاهَدَةِ ذَلِكَ، غُلِب وقُهر وأُسر، وصَارَ عَبْدًا ذَليلاً أَسِيرًا في يَدِ شَيْطَانِهِ وهَوَاهُ، كَمَا قِيلَ:

إذا المَـرءُ لم يَغلِـبْ هـواهُ أقامـه بمنْـزلةٍ فـيها العَزيـزُ ذلـيلُ[(٢)]

وقال - رَحِمَهُ الله - بَعد أن سَاقَ كَثيرًا مِن الأحاديثِ والآثارِ في جِهَادِ العدُوِّ الخَارِجيِّ: «وَكَذَلِك جِهاد العدوِّ البَاطِن، وهُوَ جِهَادُ النَّفس والهَوى، فإنَّ جهادَهُما من أعظم الجِهَادِ»[(٣)].

أمَّا عن محاسبة النَّفْس:

فعن أهميتها يقول أبو حامد الغزالي - رَحِمَهُ الله -: «اعْلَمْ أنَّ مَطَالِبَ المَتعَامِلينَ في التِّجَارَاتِ المُشترِكينَ في البَضَائِعِ عِندَ المُحَاسَبَةِ سَلامَةُ الرِّبح، وكَما أنَّ التَّاجِرَ يَستعِينُ بِشَريكهِ فيُسَلِّمُ إليهِ المَالَ حَتَّى يَتَّجِرَ ثُمَّ يُحَاسِبهُ، فَكَذلِكَ العَقلُ هُوَ التَّاجِرُ في طَرِيقِ الآخِرةِ وإنَّما مَطلَبُهُ وربحُهُ تَزكيَةُ النَّفْسِ لأنَّ بِذَلِكَ فَلاحَهَا، قَالَ الله تَعَالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وإنَّما فَلاحُهَا بالأعْمَالِ الصَّالحةِ.

والعَقْلُ يَستَعِينُ بِالنَّفسِ في هَذِهِ التِّجَارةِ إذْ يَستعمِلُها ويَستَسْخِرُهَا فِيمَا يُزكِّيهَا، كَمَا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١٧٢).
(٣) المرجع السابق (١٧١).

يَسْتَعِينُ التَّاجِرُ بِشَرِيكِهِ وغُلامِهِ الَّذِي يَتَّجِرُ فِي مَالِهِ، وكَمَا أَنَّ الشَّرِيكَ يَصِيرُ خَصْمًا مُنَازِعًا يُجَاذِبُهُ فِي الرِّبحِ فَيحتَاجُ إلى أن يُشَارِطَهُ أَوَّلًا، ويُراقِبَهُ ثانيًا، ويُحَاسِبَهُ ثَالثًا، ويُعَاقِبَهُ أو يُعَاتِبَهُ رَابعًا، العَقلُ يَحتاجُ إلى مُشَارَطَةِ النَّفْسِ أَوَّلًا فَيُوظِّفُ عَليهَا الوَظَائِفَ، ويَشْرِطُ عَليهَا الشُّرُوطَ، ويُرشِدُهَا إلى طَرِيقِ الفَلَاحِ، ويَجزِمُ عَلَيهَا الأمْرَ بِسُلُوكِ تِلكَ الطُّرُقِ، ثُمَّ لا يَغْفُلُ عَنْ مُراقَبَتِهَا لحظَةً، فإِنَّهُ لَوْ أَهْمَلَهَا لَمْ يَرَ مِنهَا إِلَّا الخِيانَةَ وتَضْييعَ رأسِ المَالِ، كَالعَبدِ الخَائِنِ إذَا خَلَا لَهُ الجَوُّ وانْفَرَدَ بِالمَالِ. ثُمَّ بَعْدَ الفَرَاغِ يَنْبَغِي أنْ يُحَاسِبهَا ويُطالِبَهَا بالوَفَاءِ بِمَا شَرَطَ عَليهَا، فإنَّ هَذِهِ تِجارَةٌ رِبحُهَا الفِردَوْسُ الأَعْلَى، وبُلوغُ سِدرَةِ المُنتهَى مَعَ الأنْبِيَاءِ والشُّهداءِ، فَتَدقِيقُ الحِسَابِ فِي هذا مَعَ النَّفْسِ أَهَمُّ كَثِيرًا مِنْ تَدقِيقِهِ فِي أَرْبَاحِ الدُّنْيَا مَعَ أَنَّهَا مُحتَقَرَةٌ بالإضافةِ إلى نَعِيمِ العُقْبَى.

ثُمَّ كَيفَمَا كَانَتْ فَمَصِيرُهَا إلى التَّصَرُّمِ والانْقِضَاءِ، ولا خَيْرَ فِي خَيْرٍ لا يَدُومُ، بَلْ شَرٌّ لا يَدُومُ خَيرٌ مِنْ خَيرٍ لا يَدُومُ، لأَنَّ الشَّرَّ الَّذِي لا يَدُومُ إذا انْقَطَعَ بَقِيَ الفَرَحُ بانْقِطَاعِهِ دَائمًا وَقَدْ انْقَضَى الشَّرُّ، والخَيْرُ الَّذِي لا يَدُومُ يَبْقَى الأَسَفُ عَلَى انْقِطَاعِهِ دَائمًا، وقَدِ انقَضَى الخَيرُ. ولِذَلك قِيلَ:

أشَدُّ الغَمِّ عِندي في سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاَ

فَحَتْمٌ عَلَى كُلِّ ذِي حَزْمٍ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ لا يَغْفَلَ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ والتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وسَكَنَاتِهَا وخَطَرَاتِهَا وخُطُوَاتِهَا. فإنَّ كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ العُمْرِ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لا عِوَضَ لها يُمْكِنُ أنْ يُشْتَرَي بِهَا كَنْزٌ مِنْ الكُنُوزِ لا يَتَنَاهَى نَعِيمُهُ أَبَدَ الآبَادِ، فَانْقِبَاضُ هَذِهِ الأَنْفَاسِ - ضَائِعَةً أو مَصْرُوفَةً إلى مَا يَجْلِبُ الهَلاكَ - خُسْرَانٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ، لا تَسْمَحُ بِهِ نَفْسُ عَاقِلٍ.

فإِذَا أَصْبَحَ العَبْدُ وفَرَغَ مِنْ فَرِيضَةِ الصُّبْحِ يَنْبَغِي أَنْ يُفْرِغَ قَلْبُهُ سَاعَةً لِمُشَارَطَةِ النَّفْسِ كَمَا أَنَّ التَّاجِرَ عِنْدَ تَسْلِيمِ البِضَاعَةِ إلى الشَّرِيكِ العَامِلِ يُفْرِغُ المَجلِسَ لِمُشَارَطَتِهِ. فَيَقُولُ للنَّفْسِ: مَا لِي بِضَاعةٌ إلَّا العُمُرُ، ومَهْمَا فَنِيَ فَقَدْ فَنِيَ رَأسُ المَالِ، وَوَقَعَ اليَأسُ مِنَ التِّجَارَةِ وطَلَبِ الرِّبحِ، وهذَا اليَوْمُ الجَديدُ قَدْ أَمْهَلَنِي الله فِيهِ، وأنْسَأَ فِي أَجَلِي وأَنْعَمَ عليَّ بِهِ، ولَو تَوَفَّانِي لَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يُرْجِعَنِي إلى الدُّنْيَا يَوْمًا وَاحِدًا حَتَّى أَعْمَلَ فِيهِ صَالِحًا، فَاحْسَبِي أَنَّكِ قَدْ تُوُفِّيتِ ثُمَّ قَدْ رُدِدْتِ فَإِيَّاكِ ثُمَّ إِيَّاكِ أَنْ تُضَيِّعِي هَذَا اليَوْمَ، فإنَّ كُلَّ

نَفَسٍ مِنْ الأَنْفَاسِ جَوْهَرَةٌ لَهَا قِيمَةٌ»[١]. ا.هـ.

عباد الله...

ومحاسبة النَّفْس نوعان:

نَوعٌ قَبلَ العَمَلِ، ونَوعٌ بَعدَهُ.

فأَمَّا النَّوعُ الأَوَّلُ: فَهُو أن يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ هَمِّهِ وإِرَادتِهِ، ولَا يُبَادِرَ بِالعَمَلِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُجْحَانُهُ عَلَى تَركِهِ.

قَالَ الحَسَنُ - رَحِمَهُ الله -: رَحِمَ الله عَبدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فإِنْ كَانَ لله مَضَى، وإِن كَانَ لِغَيرِهِ تَأَخَّرَ.

النَّوعُ الثَّانِي: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ العَمَلِ، وهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: مُحَاسَبَتُهَا عَلَى طَاعَةٍ قَصَّرتْ فِيها مِنْ حَقِّ الله تَعَالى، فَلَم تُوقِعْهَا عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، وَحَقُّ الله تَعَالى فِي الطَّاعَةِ سِتَّةُ أُمُورٍ، وهِيَ:

- الإِخلاصُ فِي العَمَلِ.
- والنَّصِيحةُ لله.
- ومُتابَعَةُ الرَّسُولِ فِيهِ.
- وحُصُولُ المُرَاقَبَةِ فِيهِ.
- وشُهُودُ مِنَّةِ الله عَليهِ.
- وشُهُودُ تَقْصِيرِهِ فِيهِ بَعد ذَلِكَ كُلِّهِ.

فَيُحاسِبُ نَفسَهُ: هَلْ وَفَّى هَذِهِ المَقَامَاتِ حَقَّهَا، وهَلْ أتى بِهَا فِي هَذِهِ الطَّاعةِ.

الثَّانِي: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ.

الثَّالث: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مُباحٍ، أو مُعتَادٍ لِمَ فَعَلَهُ؟ وهَلْ أَرَادَ بِهِ الله والدَّارَ

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٩٧ - ٩٩)..

الآخِرَةَ؟ فَيَكُونَ رَابِحًا، أو أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا وعَاجِلَهَا، فَيَخْسَرَ ذَلِكَ الرِّبحَ ويَفُوتَهُ الظَّفرُ بِهِ[١].

وقالَ الغزَاليُّ في بَيَانِ حَقِيقةِ المُحَاسَبَةِ بَعْدَ العَمَلِ: اعْلَمْ أنَّ العَبْدَ كَمَا يَكُونُ لَهُ وَقْتٌ في أوَّلِ النَّهَارِ يُشَارِطُ فيهِ نفْسَهُ عَلَى سَبيلِ التَّوصيَةِ بِالحَقِّ فَيَنْبَغِي أنْ يَكُونَ لَهُ في آخِرِ النَّهارِ سَاعةٌ يُطَالِبُ فِيهَا النَّفْسَ ويُحَاسِبُهَا عَلَى جَميعِ حَرَكَاتِهَا وسَكَنَاتِهَا، كَمَا يَفعَلُ التُّجَارُ في الدُّنْيَا مَعَ الشُّركاءِ في آخِرِ كُلِّ سَنَةٍ أو شَهْرٍ أوة يَوم، حِرصًا مِنْهُم عَلَى الدُّنْيَا، وخَوفًا مِن أن يَفُوتَهُم مِنْهَا مَا لَو فَاتَهُم لَكَانَتِ الخِيَرَةُ لَهُم في فَوَاتِهِ، وَلَوْ حَصَلَ ذَلِكَ لَهُم فَلا يَبْقَى إلَّا أيَّامًا قَلَائِلَ، فَكَيفَ لا يُحَاسِبُ العَاقِلُ نَفْسَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ خَطَرُ الشَّقَاوَةِ والسَّعَادَةِ أبَدَ الآبَادِ؟ مَا هَذِهِ المُسَاهَلَةُ إلَّا عَنِ الغَفْلَةِ والخِذْلَانِ وقِلَّةِ التَّوفِيقِ، نَعُوذُ باللهِ مِن ذَلِكَ[٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونَختم خطبة اليوم بكلام جيِّد للإمام الهُمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- يلفت نظرنا فيه إلى أهمية الوقت ومجاهدة النَّفْس:

قال -رَحِمَهُ الله- في «الفوائد»:

عشَرَةُ أشياءَ ضائعةٌ لا يُنْتَفَعَ بِهَا:

- عِلمٌ لا يُعْمَلُ بِهِ.
- وعَملٌ لا إخْلاصَ فِيهِ ولا اقتداءَ.
- ومَالٌ لا يُنفَقُ مِنْهُ، فلا يَستمتعُ بِهِ جامعُه في الدُّنْيَا ولا يُقَدِّمُهُ أمَامَه إلى الآخرةِ.
- وقَلبٌ فَارغٌ مِن محبَّةِ الله والشَّوقِ إليه والأُنسِ به.

(١) «الإحياء» (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) «الإحياء» (٤/ ٤٠٥).

- وبَدنٌ مُعطَّلٌ مِن طَاعتِهِ وخِدمتِهِ.
- ومحبَّةٌ لا تَتَقيّدُ بِرضاءِ المحبوبِ وامتثالِ أوامرِه.
- ووقتٌ مُعطَّلٌ عن استدراكِ فارطٍ أو اغتنامِ بِرٍّ وقُربةٍ.
- وفكرٌ يجولُ فيما لا يَنفعُ.
- وخدمةُ مَنْ لا تُقَرِّبُكَ خِدمتُهُ إلى الله وَلا تَعودُ عليك بِصلاحِ دُنياكَ.
- وخوفُكَ ورجاؤكَ لمن ناصيتُهُ بِيد الله وهو أسيرٌ في قبضتِه، ولا يملكُ لنفسِهِ ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا مَوْتًا ولا حَياةً ولا نُشورًا.

وأعظمُ هَذِهِ الإضاعاتِ إضاعتانِ هما أصلُ كلِّ إضاعةٍ:

- إضاعةُ القلبِ.
- وإضاعةُ الوقتِ.

فإضاعةُ القلبِ مِن إيثارِ الدُّنْيَا عَلَى الآخرةِ.

وإضاعةُ الوقتِ مِن طولِ الأملِ.

فَاجتَمعَ الفسادُ كُلُّهُ في اتِّباعِ الهوى وطولِ الأملِ، والصلاحُ كُلهُ في اتِّباعِ الهدى والاستعداد لِلِّقَاء الله، والله المُسْتعانُ» ا.هـ..

۞۞۞۞۞

الخطبة السادسة والأربعون بعد المائة:

[ج] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

تعامل المسلم المبتلى بالسّراء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ بِرَّ الوالدين، والصَّبر عند فقد الأحباب، خُلُقان كريمان، حثَّ عليهما الإسلام، ووعد ربُّنا تبارك وتعالى عليهما الثواب العظيم والأجر الكريم.

قال الله تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٥].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

عباد الله...

ومِن المواقف الإيمانية التي تدلُّ عَلَى تَحلِّي السَّلف الصَّالح بهذين الخُلُقَيْن الكريمين: هذا الموقف:

قالت حفصة بنت سيرين - رحمها الله -: «بلغ من بِرِّ ابني الهذيل بِي أَنَّهُ كان يكْسِر القَصَب في الصَّيف فيوقد لي في الشتاء - أي: لئلا يكون له دخان - قالت: وكان يحلب ناقته بالغَداة فيأتيني به فيقول: اشربي يا أُمّ الهذيل، فإن أطيب اللَّبن ما بات في الضَّرع.

ثُمَّ مات فرُزِقْتُ عليه من الصَّبر ما شاء الله أن يرزقني، فكُنت أجد مَعَ ذَلِكَ حرارةً في صدري لا تكاد تَسْكُن.

قالت: فأتيتُ ليلة من الليالي عَلَى هَذِهِ الآية: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦]، فذهب عنِّي ما كنتُ أجد»[(١)].

موقفٌ رائع، جمع بين خُلُقين عظيمين مِن أخلاق الإسلام الحنيف:

الأول: بر الوالدين.

والثاني: الصبر عند فقد الأحباب.

أيها المسلمون...

إن الإنسان في هَذِهِ الحياة بين ثلاثة أشياء:

- بلية نازلة.
- ونعمة زائلة.
- ومَنِيّة قاتلة.

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٧/ ١٧١، ١٧٢).

قَالَ الحسن البصري - رَحِمَهُ الله -: «ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بليةٍ نازلة، ونعمةٍ زائلة، ومنيّة قاتلة»[١].

وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: ابن آدم عرض للبلايا والرزايا والمنايا، ثم ينتحب ويبكي، ويقول: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

عباد الله...

والسؤال الَّذِي نجيب عنه - إن شاء الله - اليوم:

كيف يتعامل المسلم المبتلى بالسَّراء؟

وقبل الجواب، قَدْ يسأل سائل: وهل النّعمة ابتلاء؟

والجواب: نعم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: أي: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنِّعم أخرى، لننظر مَنْ يشكر ومَن يكفر، ومَن يصبر ومَن يَقْنُط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يقول: نبتليكم ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال.

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي: فنجازيكُم بأعمالكم» ا.هـ[٢].

وقال تَعَالَى: ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

فكيف يتعامل المسلم المبتلى بالسَّراء؟

إذا ابتلى الله المسلم بالسَّراء وأنعم عليه بالصحة في بدنه، والسّعة في رزقه، ومكّن له

---

(١) «الزهد» للحسن البصري (٢٤).
(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٥٢).

في الأرض، وأعطاه من الجاه أو العلم أو السلطان ما يسر به خاطره، فعليه أن يتصرف في هذا الموقف تبعًا للخطوات الآتية:

الخطوة الأولى: اليقين الجازم بأنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا وما فيها عَرَضٌ زائل، وأن الرُّجعى إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومِن ثَمَّ فلا ينبغي أن ينسيه هذا المال أو الجاه ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ وافتقاره إليه، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]، وعليه أن يعلم بأن هذا اليقين هو أساس الإيمان الصادق، وأنَّهُ منه - أي: اليقين من الإيمان - بمنزلة الروح من الجسد.

الخطوة الثانية: أن يحمد الله سُبْحَانَهُ ويشكره عَلَى ما أنعم به عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذا الشكر ترجع فائدته للإنسان نفسه، يقول الله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل: ٤٠].

الخطوة الثالثة: أداء حق الله تَعَالَى في هذا المال، ويتمثل ذَلِكَ في إخراج الزكاة، والصدقة والبر، وبر الوالدين، والإنفاق والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وتفريج الكربات، يقول الله تَعَالَى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧].

وفائدة هذا الإحسان إنَّما تعود للإنسان نفسه، مصداق ذَلِكَ قول الله تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧]، وقَدْ قرن الله عَزَّ وَجَلَّ الإسلام بالإحسان، وجعلهما أفضل ما يتحلى به المسلم، فقال عز مَن قائل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

وقَدْ ورد في الحديث: «**إنَّ لله أقوامًا اختصّهم بالنِّعم لمنافع عباده يقرها فيهم ما بذلوها، فَإِذَا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم**»(١). أخرجه الطبراني وابن أبي الدُّنْيَا.

وعن ابن عبَّاس مرفوعًا: «**ما مِن عبدٌ أنعم الله عليه نعمة وأسبغها عليه، ثم جعل**

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي الدُّنْيَا، وقيل بتحسين سنده.

حوائج النَّاس إليه فتبرم، فقد عرض تلك النعم للزوال» (١).

الخطوة الرابعة: أن يلتزم بالطاعة والعبادة وإخلاص الوجه لله تَعَالى، وسائر الأعمال الصالحة لقوله تَعَالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾ [البينة: ٧]، وأن لا يأمن مكر الله، لقوله تَعَالى: ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إن الأمن مِن مكر الله يدل عَلَى ضعف الإيمان، فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل مِن المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك، وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لَـمَّا ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيَّن أن الَّذِي حملهم عَلَى ذَلِكَ هو الأمنُ مِن مكر الله وعدم الخوف منه، وذَلِكَ أنهم أَمِنوا مكر الله لَـمَّا استدرجهم بالسّراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذَلِكَ مكرًا.

قَالَ الحسن: مَن وسَّع عليه فلم ير أَنَّهُ يمكر به فلا رأي له.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله ما أخذ قوم قط إلَّا عند سلوتهم وغِرَّتهم فلا تغتروا بالله.

الخطوة الخامسة: الابتعاد عن تلك الذنوب التي تسمى بالذنوب الملكية، من نحو الجبروت والتكبُّر والعظمة والقهر والاستعلاء في الأرض، وذَلِكَ كما حدث من فرعون وغيره من الجبابرة الذين طغوا في الأرض وعتوا عن أمر ربهم، ويتبع ذَلِكَ البعد عن الغرور وحُب الثناء واستعباد الخلق وظلمهم واحتقار الفقراء والسخرية منهم، ونحو ذَلِكَ.

وباختصار، فإن عليه التخلي عن النظرة الفوقية واعتقاد أَنَّهُ أعلى من النَّاس وأنهم دونه، وأن يتذكَّر دائمًا أن فقير اليوم قَدْ يصبح غني الغد، وأن الأيام دولة بين النَّاس، مصداقًا لقوله تَعَالى: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُـهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إن عَلَى الإنسان المبتلى بالسراء أن يتذكَّر قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى تغيير الأحوال في لمح البصر، وأن يعي معنى قول الله تَعَالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ**

---

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد، انظر «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٩١).

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، فإن لم يجد ذَلِكَ نفعًا وأحسّ بطغيان المال، فعليه أن يتذكّر ضعفه وأنَّهُ يومًا راجع إلى ربه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ [العلق: ٦-٨].

وعليه أن يعلم أن هذا الرزق إنَّما هو عَلَى حسب مشيئة الله تَعَالى وهو أعلم بأحوال عباده، ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، وعلى صاحب المال ألا يبالغ في الفرح به، لأن ذَلِكَ الفرح يؤدي به إلى البطر والترف، كما أَنَّهُ يؤذي الفقراء والمحرومين ويؤدي بالإنسان إلى الاستهتار بالنعمة وترك الحيطة لصروف الزمان[1].

أما الفرح الحقيقي فينبغي أن يكون بفضل الله وبرحمته، مصداقًا لقوله تَعَالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، وإذا تخلَّى عن هَذِهِ الذنوب فليتحلّ بأضدادها من نحو الخشوع والخشية والخوف من الله تَعَالى، والتواضع والرحمة، ونحو ذَلِكَ.

الخطوة السادسة: البُعد عن التشبّه بالشيطان بارتكاب الذنوب الشيطانية، كما في الحسد، والبغي، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والافتتان بالمال أو الجاه أو السلطان، فهذه تؤدي إلى ذنوب الشح والبخل وحب التكاثر والجبن، ويتذكر قوله تَعَالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وعليه أن يتحلى بعكس ذَلِكَ من صفات الحب، والأمانة، وسلامة الصدر، والأمر بالمعروف، ونحوها، كما يلزمه البُعد عن سائر الذنوب الأخرى.

عباد الله...

هَذِهِ ستّ خطوات، وسيأتي المزيد بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «روح الدين الإسلامي» (١٧٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

الخطوة السابعة: عَلَى المسلم أن يتذكَّر دائمًا أن التوسعة في الرزق أَوْ البسطة في العلم أَوْ الجسم، ليست إلَّا اختبارًا له من مولاه، وليست بحال دليلًا عَلَى إكرام الله عَزَّ وَجَلَّ له، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أَوْ الولد دليلًا عَلَى رضا المولى تَعَالى، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة الحقيقية للحصول عَلَى هذا الرضوان والقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ، يقول سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ [سبأ: ٣٧]، وهي عَلَى العكس من ذَلِكَ؛ فتنة واختبار ينجح فيه مَن ينجح ويفشل فيه مَن يفشل، يقول الله تَعَالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

والحذر من الفتنة يقتضي الابتعاد عن الترف لأَنَّهُ يضعف الإرادة الإنسانية ويجعلها شديدة الحرص عَلَى التقليد واستمرار ما هي فيه فلا تتطلع إلى آفاق جديدة لإصلاح المجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها، كما أن الترف مدعاة للانزلاق في هاوية المنكرات وإلى الفخر والعجب والتكاثر ورفض الحق، قال تَعَالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

لقد بلغ الصراع عَلَى المال أشدّه في هذا العصر، وصرف كثيرًا من النَّاس عن ربهم وعن الأخذ بالقيم الأخلاقية النبيلة، وأدى إلى إثارة أغلب المشاكل التي يعانيها العالم اليوم، وإن كثيرًا من الخُلطاء ليبغي بعضهم عَلَى بعض، ولهذا توجهت تعاليم القرآن إلى التخفيف من شرور المال وتحذير النَّاس من الانقياد الكلي له كي لا يفتنهم عن دينهم ويلهيهم عن ذكر الله، قال سُبْحَانَهُ في وصف المؤمنين: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧]، وعلى العكس من ذَلِكَ، فقد أرشدهم إلى كيفية التصرف الصحيح في تلك الأموال بقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّـهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّـهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]. ا.هـ[1].

عباد الله...

هذه سبع خطوات هامة، مَن سار عَلَى ضوءها حفظ الله عليه النِّعم، بل وزاده مِن فضله، وكان العبدُ مِن الشاكرين.

اللَّهُمَّ أعنَّا عَلَى ذِكرك وشُكرك، وحُسنِ عَبَادَتِك

آمين... آمين... آمين



(١) «نضرة النعيم» (٤٢ - ٤٤) باختصار يسير.

الخطبة السابعة والأربعون بعد المائة:

[د] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين

تعامل المسلم المبتلى بالضرّاء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا في الخطبة الماضية «كيف يتعامل المسلم المبتلى بالسّراء»، وذَلِكَ في معرض حديثنا عن موقف «**حفصة بنت سيرين**» حين تُوفي ولدها «هذيل».

عباد الله...

فكيف يتعامل المسلم مع مواقف البلاء؟

الجواب: إذا ابتلى المسلم في بدنه أَوْ أهله أَوْ ماله، فإن عليه أن يسير وفق المنهج

الإسلامي الصحيح لمواجهة مثل هذه الحالة، وتتلخص خطوات هذا المنهج في النقاط الآتية:

الخطوة الأولى: عَلَى المسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن هناك حياة أخرى هي خير من هذه الحياة، قال تَعَالَى: ﴿ **وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [النحل: ٣٠]، ويعني اعتقاد هذا أن تلك المحنة مهما طالت فهي إلى زوال، لأن الدُّنْيَا نفسها زائلة، وهي لا تعدو أن تكون دار امتحان وابتلاء، يقول الله تَعَالَى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّـهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ومن هذا المنظور للحياة، يتكون لدى الشخص المبتلى حوافز للرقي والسمو فوق المحنة، فيجاهد نفسه، ويقول عند المصيبة: ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقَدْ جعل الله هَذِهِ الجملة ذكر الذاكر بعد نزول المصائب؛ لأن المصائب لا تعدو أن تكون سلبًا للنِّعم التي سبق أن أنعم الله بها عليه، أو حرمانًا مِن النِّعم التي أنعم الله بمثلها عَلَى عباده، والنِّعم لدى التحقيق هي ملك لله تَعَالَى، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنعم هم أيضًا مِلك لله تَعَالَى، ومصير العباد كلِّهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلِّها أن تعود إلى مالكها سُبْحَانَهُ وتعالى، فهو الَّذِي يقول في كتابه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ [فاطر: ٣]، فَإِذَا ابتلى الله المؤمن فاستردّ منه نعمةً كان قَدْ وضعها بين يديه ليبتليه بها، فإن المؤمن يتذكَّر بسرعة أنَّ الله هو مالك كُلِّ شيء، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّـهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْـحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿ **وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢٩].

ويتذكَّر أيضًا أَنَّهُ هو نفسه مملوكٌ لله، وأنَّ جميع الخلائق مملوكون له سُبْحَانَهُ، وأنهم عباده، وأنهم جميعًا راجعون إليه، فَإِذَا رجع الملك إلى مالكه فعلامَ الحزن؟ وعلام الأسى؟ ولِمَ الاعتراض؟ ولماذا التسخط؟

فحينها يتذكَّر المؤمن قوله تَعَالَى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ**

يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠]، وتذَّكر الحقائق، يُعلن عبارة الإيمان التي تدلُّ عليها فيقول: ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦] [١]، هَذِهِ العقيدة الإيمانية رحمة من الله تملأ القلوب طمأنينة وتسليمًا، ورضًى عن الله عَزَّ وَجَلَّ فيما جرت به مقاديره.

وفي الحديث الصحيح الَّذِي رواه أحمد: «**مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً** ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**».

الخطوة الثانية: تتمثل الخطوة الثانية في الصَّبر عَلَى آثار الابتلاء، أو بالأحرى: الحالات الناجمة عنه من الملل والقلق والاضطراب والوساوس. في الصبر الجميل، والاحتساب تأسيًا برسول الله ﷺ، الَّذِي أمره بالصبر عَلَى الأذى أُسوة بأولي العزم من الرُّسل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال عز مَن قائل: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فهذا الصبر يجعله في معيّة الله تَعَالَى، مصداقًا لقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٤٦]، كما يجعله من أهل محبَّته، فهو سُبْحَانَهُ القائل: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وأن يتيقن أن مَعَ العُسر يُسرًا، وأن مَعَ الكرب فرجًا، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ هو الَّذِي يكشف ضُره، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويقول تَعَالَى: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وأن مِن تمام رحمته سُبْحَانَهُ أن يكفِّر عنه بهذه البلايا ما سبق من سيئاته، فقد جاء في الحديث الشريف: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»، وليعلم أن جزاء الصبر هو الفوز برضوان

---

(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥، ٤٧٦).

الله تَعَالى والفوز بالجنة، كما قَالَ تَعَالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

الخطوة الثالثة: عَلَى المسلم إذا ابتليَّ بالضراء أن يتأمل حياته الحالية والماضية، وينظر أيضًا في نواياه المستقبلية، وأن يعلم أن ما أصابه من حسنة فمِن الله تَعَالى، ومَا أصابه مِن سيئة فمِن نفسه، كما قَالَ تَعَالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، فإن وجد ذنوبًا - وما أكثرها - فليبادر إلى محاسبة نفسه، وأن يتلمس عيوبه، لأن جهله بمها من أكبر ذنوبه، والفاجر لا يُحاسب نفسه، أما المؤمن فذو نفس لوامة، تلوم عَلَى الشر لِمَ فعلته؟ وتلوم عَلَى الخير لِمَ لا تستكثر مِنه؟ ويترتب عَلَى ذَلِكَ اللجوء الفوري إلى التوبة النصوح، والتطهر من الذنوب، والإكثار من الاستغفار، فالتوبة تجعل التائب من أهل محبّة الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الخطوبة الرابعة: التزام الاستقامة والتقوى.

أما الاستقامة: فلأنها أقوى سبب للرقي الإيماني، وما انتشرت في قوم إلَّا صلح حالهم وزاد إقبالهم عَلَى الخير، والمستقيمون هم الذين وعدهم الله عَزَّ وَجَلَّ بإذهاب الحزن وإبعاد الخوف عنهم في الدُّنْيَا والآخرة، يقول الله تَعَالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالـجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣١]. ويطمئنهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

أما التقوى: فهي من مفاتيح السعادة لأنَّها تجعل المؤمن في معيّة الله تَعَالى، وتجلب رحمته ورزقه، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، كما أنها مفتاح للخروج من الأزمات ومجلبة للرزق، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقبل ذَلِكَ وبعده؛ فالتوبة تجعل العبد من أهل محبّة الله تَعَالى، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

الخطوة الخامسة: التوجه بالدعاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والتضرع إليه والاستغاثة به أن يكشف ما به من سوء، وأن يرزقه العافية، وذَلِكَ كما حدث مَعَ نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلام، ويُستحب أن يتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، كما يستحب أيضًا أن يدعوه بصالح أعماله كما حديث من الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرّج عنهم.

وبعد الدُّعَاء، تأتي الاستعانة بالله تَعَالى والتوكل عليه، قَالَ تَعَالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فالشدة يعقبها الفرج، وإن مَعَ العُسر يُسرا، يقول الشاعر:

ولَرُبّ نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حَلقاتها ... فرجت، وكنت أظنها لا تفرج

وبعد التوكل واعتقاد الفرج، فلابد من الأخذ بالأسباب التي تساعده في الخروج من أزمة الابتلاء، يقول ابنُ القَيِّم: فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل، ولكن مِن تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وحدها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره.

الخطوة السادسة: إذا لم يجد المبتلى ذنبًا في الحال - وهذا نادر - فليعلم أن هذا الابتلاء تمحيص له، وتدريب عَلَى تحمل المشاق التي تؤدي في النهاية إلى ابتلاء من نوع آخر هو الابتلاء بالسراء أو التمكين في الأرض، وهذا معنى قول الشافعي - رَحِمَهُ الله -: إن أحدًا لا يُمكَّن حَتَّى يُبتلى، وذَلِكَ هو حال أولي العزم من الرسل ومَن اتبعهم من صالحي المؤمنين.

ومِمَّا يقرِّب هَذِهِ المسألة إلى الأذهان أننا نجد تقوية الجسم إنَّما تكون بممارسة الرياضات التي تستلزم مجهودًا شاقًّا، فكذلك تنمية القوة النفسية تستلزم التدريب عَلَى

تحمل المشاق والابتلاءات، وكذلك قطف ثمار الزرع لا يتم إلَّا بعد بذل مجهود الحرث والزرع والسقاية.

عباد الله...

هَذِهِ ستّ خطوات هامّة، الأخذ بها يهوِّن من وقع المصيبة، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

الخطوة السابعة: إذا تاب المسلم واستغفر ربه، وأقلع عن معصيته، ودعا الله بصالح أعماله، وتوكل عَلَى الله، وأخذ بالأسباب ولم ينكشف ما به، فعليه أن يعلم ويتقين أن ذَلِكَ لحكمة اقتضاها المولى عَزَّ وَجَلَّ لا يعرفها الآن، وكفاه من ذَلِكَ أن يعد في معيّة الله تَعَالَى وأنَّهُ من أهل محبّته، ومِن أظهر الأدلة عَلَى ذَلِكَ: قصة الغلام الَّذِي قتله الخضر عليه السلام بأمر من ربه عَزَّ وَجَلَّ، كي يقي والديه من الطغيان والكفر، ولاشك أن الابتلاء بفقد الولد أخف كثيرًا من الابتلاء بالكفر والطغيان.

قال ابن كثير في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿ **فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾ أي: يحملهما حبه على متابعته في الكفر، وقال قتادة: لو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يحب، ومِن ثَمَّ وجب عليه الرضا حَتَّى ينجو بنفسه من سخط الله تَعَالَى.

ويترتب عَلَى هذا الرضا أن يقذف الله في قلبه السكينة والطمأنينة، وربما كان ما تكرهه هو نفسه عين الكرامة في حقه وهو وسيلته المستقبلية للحصول عَلَى أعلى الدرجات، يقول الله تَعَالَى: ﴿ **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومِن هنا تنجلي حِكم التوكل والاحتساب والاستخارة في أمور العبد، فإن العبد قاصر عن إدراك ما ينفعه في دينه ودنياه، ولذلك شرعت الاستخارة وتفويض الأمر إلى الله. ا.هـ[(١)].

فيا أيُّهَا المُبتلى...

اصبر، فقد بان لك الفضل، وظهر لك الأجر. واسمع إلى قول عبد الواحد بن زيد -رَحِمَهُ الله - وهو يقول: «الرِّضا باب الله الأعظم، وجنة الدُّنْيَا، ومستراح العابدين».

اللَّهُمَّ إِنَّا نسألك عيش السُّعداء، وموت الشهداء، ونسألك الرِّضا بالقضاء

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

---

(١) «نضرة النعيم» ٣٥ - ٤٢) باختصار شديد.

الخطبة الثامنة والأربعون بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: ميمونة بنت شاقولة

أثر المعاصي

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيذكر الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٢) في ترجمته لميمونة بنت شاقولة(١) رحمها الله تَعَالى: أنَّها ذكرت يومًا في وَعظها: أن ثَوْبَها الَّذِي عليها - وأشارت إليه - له في صُحبتها تَلْبَسُه منذُ سبع وأربعين سنة وما تغيَّر، وأنَّهُ كان من

---

(١) قال عَنْهَا ابن كثير: الواعظة، التي هي للقرآن حافظة. ا.هـ.

غَزْل أُمِّها. قالت: والثوبُ إذا لم يُعْصَ الله فيه لا يَتَخَرَّقُ سَريعًا.

عباد الله...

وهذا الَّذِي قالته ميمونة – رحمها الله – صحيحٌ.

قال الله تَعَالى: ﴿ **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١].

قال العلَّامة السعدي -رَحِمَهُ الله – في تفسيره لهذه الآية: «أي: استعلن الفساد في البر والبحر أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدُّنْيَا، ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم. فسبحان من أنعم ببلائه وتفضل بعقوبته وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة» ا.هـ[١].

قَالَ الإمام ابن القيِّم – رَحِمَهُ الله – في تفسير هَذِهِ الآية:

«قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ [الروم: ٤١].

وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف، إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني

---

(١) «تفسير السعدي» (٦٤٣).

آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عمومًا وخصوصًا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[(١)] اهـ..

عباد الله...

ومِمَّا يدلُّ أيضًا عَلَى أثر الذنوب والمعاصي:

(١) قوله تَعَالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا متصل بذكر المشركين.

وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»[(٢)].

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٢٣٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥)، وغيرهما.

فابتلوا بالقحط حَتَّى أكلوا العظام، ووجَّه إليهم رسول الله ﷺ طعامًا ففرّق فيهم.

﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ لا يهاج أهلها.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ مِن البر والبحر.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ الأنعم: جمع النِّعمة. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ.

﴿فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ﴾ أي أذاق أهلها.

﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْـخَوْفِ﴾ سمّاه لباسًا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي من الكفر والمعاصي.

وأصل الذوق بالفم، ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء.

وضرب مَكَّة مثلًا لغيرها من البلاد، أي إنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى. وقيل: إنه مثل مضروب بأيّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى». ا.هـ[١].

(٢) وقال تَعَالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَـهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٥- ٢٠]

قَالَ علماء النسب، ومنهم مُحَمَّد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس، قالوا: وكان أول من سبى من العرب فسمّي سبأ لِذَلِكَ، وكان يُقال له الرائش لأَنَّهُ كان يعطي النَّاس الأموال من قناعه.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٧٦).

قَالَ السهيلي: ويُقال أَنَّهُ أوَّل مَن تتوج، وذكر بعضهم أَنَّهُ كان مسلمًا، وكان له شِعر بشَّر فيه بوجود رَسُول الله ﷺ.

قال ابْنَ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَإٍ مَا هُوَ؟ أَرَجُلٌ أَم امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: «**بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةً، فَسَكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبالشَّام مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا اليَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَالأَزْدُ وَالأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارٌ وَحِمْيَرُ، عَرَباً كُلَّهَا، أَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ**»[1].

قلت: وسكن قوم سبأ بأرض اليمن، وأغدق الله عليهم مِن نعمه الظاهرة والباطنة، وأصلح لهم البال والحال، وبارك لهم في الأرض والمال، ووضع عنهم الأوزار والأحمال، ونقى لهم الهواء، ونزلت عليهم بركة السماء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ** ﴾ [سبأ: ١٥]. أي: علامة دالة عَلَى كمال قدرة الله وبديع صنعه.

قَالَ الإمام عبد الرحمن بن زيد - رَحِمَهُ الله -: «إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملة ولا عقربًا ولا حيّة، ولا غير ذَلِكَ، وإذا جاءهم الرَّكب في ثيابهم القُملَّ ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم»[2].

قوله تَعَالَى: ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾ [سبأ: ١٥]، كان الماء يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا السيول، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا (قلت: وهو سد مأرب كما ذكرت الروايات الأخرى) حَتَّى ارتفع الماء وحُكم عَلَى حافات تلك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، فكانت الأشجار تثمر أجود وأنضج وأحلى الثمار بقدرة العزيز الغفار.

قَالَ غير واحد من السَّلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الَّذِي يخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذَلِكَ ما

---

(١) **إسناده حسن**: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٦)، قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٩٢): إسناده حسن.

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٣٢٠).

يملؤه من غير أن تحتاج إلى كُلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه.

قَالَ الشوكاني: وهاتان الجنتات كانتا عن يمين واديهم وشماله، قَدْ أحاطت به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي.

قَالَ القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة، في كل جهة بساتين كثيرة[١].

عباد الله...

ماذا طلب الله منهم عَلَى كل هَذِهِ النِّعم؟

هذا ما سوف نعرفه بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَـهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ [سبأ: ١٥]، لم يطلب الله تَعَالى منهم عَلَى كل هَذِهِ النِّعم سوى الشكر، والإقرار بأنه المُنعم وحده وبيده كل شيء، فمع ذَلِكَ الزيادة والنماء والبركة وغفران الذنوب ودوام النعمة.

فماذا حدث؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ [سبأ: ١٦]، قال القاسمي: أي: عن الشكر[٢].

قال الشوكاني: عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءه.

فماذا كانت العاقبة؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ** ﴾ [سبأ: ١٦]، العرم: الشديد، أي: مطرًا

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٣٢٠).

(٢) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٢).

شديدًا وماءً كثيفًا.

قَالَ مجاهد وابن أبي نجيح: العرم:ماء أحمر أرسله الله في السد فشقه وهدمه، وقال ابن الأعرابي: العرم: السيل الَّذِي لا يطاق.

وقال ابن الأعرابي أيضًا: العرم مِن أسماء الفأر.

قَالَ العلامة ابن كثير: قَالَ غير واحد: أرسل الله عَلَى أصل السد الفأر وهو الجرذ، فلما فطنوا لِذَلِكَ أرصدوا عندها السنانير(١).

قَالَ القرطبي في «تفسيره»: «قَالَ وهب: فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة» ا.هـ.

فلم تغن شيئًا إذا حم القدر ولم ينفع الحذر، ﴿ كَلَّا لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة: ١١]، فلما تحكم أصله الفساد سقط وأنهار، فسلك الماء القراء فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار، وحادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والثمار، كما قَالَ العزيز الجبار: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦].

قَالَ ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحد: خمط: هو الأراك، وأثل: وهو الطرفاء(٢).

وقيل: خمط: ثمر مُرّ لا يُؤكل، وأثل: شجر لا ثمر له. ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قلة من شجر النبق.

قلت: أي: نبق قليل في شوك كثير، لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ [سبأ: ١٧]، أي: فالجزاء من جنس العمل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] قال الشوكاني - رَحِمَهُ الله -: وهل نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونُزول النقمة إلَّا لشديد الكفر المتبالغ فيه(٣).

وقال ابن كثير: أي: نعاقب هَذِهِ العقوبة الشديدة مَن كفر بنا، وكذَّب رُسلنا،

(١) السّنور: الهرّ.
(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ١٩٤).
(٣) «فتح القدير» (٤/ ٣٢١).

وخالف أمرنا، وانتهك محارمنا[١].

ثم فرّقهم الله في البلاد وأذلهم بين العباد وشرّدهم في كل واد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿... وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -:

«وذَلِكَ لَـمَّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا إلى أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها، فتفرقوا في غور البلاد، ونجدها أيدي سبأ شذر مذر»[٢].

قَالَ الشوكاني: «والمعنى: جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها مَن بعدهم تعجبًا من فعلهم واعتبارًا بحالهم وعاقبتهم، وفرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ خصَّ الصَّبار الشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات»[٣].

قال تَعَالَى بعد ذَلِكَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

قَالَ الحسن البصري:

«والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم عَلَى شيء، وما كان إلَّا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه».

قلت: فهل يتعظ المفرّطون في نِعم الله، الذين جحدوا نِعمهِ واستخدموها في محاربة المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالى؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، فما علينا إلَّا أن نؤدي شكر النعمة للمنعم سُبْحَانَهُ، وأن نعطي مِن أموالنا حق الفقير والمسكين واليتيم، وأن نرضى بقسمة الله تَعَالَى.

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١٩٤).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «فتح القدير» (٤/ ٣٢٢).

وقَدْ أحسن القائل:

إذا كُـنتَ في نِعمـةٍ فارْعَهَـا ... فـإنَّ المعاصـي تُـزيلُ الـنِّعَم
وَحُطْهـا بطاعـة رَبِّ العـباد ... فَـرَبُّ العِـبَادِ سَـرِيعُ الـنِّقم
وإيّـاك والظّلـم مهمـا استطعتَ ... فَظُلْـم العِـبَادِ شَـديد الـوَخَم
وسـافر بقلـبك بين الـوَرَى ... لِتُبْـصِر آثـار مـن قَـدْ ظَلَـم
فـتلك مَـساكنُهُم بَعـدَهُم ... شُـهودُ علـيهم ولا تـتَّهِم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ لِلطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَا لِلصَّائِمِ الصَّابِرِ**»(١).

وقال الإمام الحسن: «إن الله لَيُمَتِّعُ بالنِّعمة ما شاء، فَإِذَا لم يُشْكَر قَلَبها عليهم عذابًا».

قَالَ الإمام القُشيريّ عن إهلاك قوم سبأ: «ما عُوملوا إلَّا بما استَوجَبوا، وما وَقَعوا إلَّا في الوَهْدَةِ التي حَفروا، وما قُتلوا إلَّا بالسَّيف الَّذِي صَنَعُوا»(٢).

❁❁❁❁❁

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٢١٧٩).
(٢) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٨١).

الخطبة التاسعة والأربعون بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: ميمونة بنت شاقولة

الدُّعاء وشروطه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيحكي الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٢) في ترجمته للواعظة: ميمونة بنت شاقولة رحمها الله: «أن ابنها عبد الصَّمد قال: كان في دارنا حائطٌ يُرِيدُ أنَّ يَنْقَض فَقُلت لأمي ألا نَدعُو البنَّاء ليُصْلح هذا الجدار، فَأَخَذَت رُقْعةً فَكَتَبت فيها شيئًا ثُمَّ أمَرَتْنِي أن أَضَعَها في موضع مِن الجدار فوضعتُها، فَمَكث عَلَى ذَلِكَ عشرين سنة، فلما تُوفِّيت أردتُ أن أَسْتَعلِمَ مَا كَتَبَت في الرُّقعة، فحين أخذتُها مِن الجِدار سَقَطَ، وإذا في الرُّقعة: «﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر: ٤١]،

اللَّهُمَّ مُمسِك السَّموات والأرض أمْسِكْهُ».

عباد الله...

وهذه الكرامة ثمرة استقامة.

واستقامة العبد مِن أسباب قبول دعائه.

وكثيرٌ من النَّاس يشكو مِن عدم استجابة الدعاء، ولم يَدْرِ هؤلاء أنَّ الإسلام وَضَعَ للدُّعاءِ آدابًا وشروطًا.

أمَّا عن آداب الدُّعاء:

فيقول الإمام الغزاليّ - رَحِمَهُ الله -:

مِنْ آدابِ الدُّعَاءِ:

١- أنْ يَتَرَصَّدَ لِدُعَائِهِ الأوْقَاتَ الشَّريفةَ كَيَوم عَرَفةَ مِنَ السَّنةِ، ورَمَضَانَ مِنَ الأشْهُرِ، ويَومِ الجُمُعةِ مِنَ الأُسبُوعِ، وَوَقتِ السَّحرِ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيلِ.

٢- أن يَغْتَنِمَ الأحْوَالَ الشَّريفةَ كَحَالِ الزَّحفِ، وعِندَ نُزُولِ الغَيْثِ، وعِنْدَ إقَامَةِ الصَّلاةِ، وعِنْدَ إفطَارِ الصَّائِمِ، وحَالَةِ السُّجُودِ، وفي حَالِ السَّفَرِ.

٣- أنْ يَدْعُو مُستَقْبِلَ القِبلَةِ، مَعَ خَفْضِ الصَّوتِ بَيْنَ المُخَافَتَةِ والجَهْرِ، وأنْ لا يَتَكَلَّفَ السَّجْعَ في الدُّعَاءِ فإنَّ حَالَ الدَّاعِي يَنْبغِي أنْ يَكُونَ حَالَ مُتَضرِّع، والتَكلُّف لا يُنَاسِبهُ.

٤- الإخْلَاصُ في الدُّعَاءِ والتَّضَرُّعُ والخُشُوعُ والرَّغبَةُ والرَّهبَةُ، وأنْ يَجزِمَ الدُّعَاءَ ويُوقِنَ بالإجَابَةِ ويَصدُقَ رَجَاؤُهُ فِيه.

٥- أنْ يُلِحَّ في الدُّعَاءِ ويَكُونَ ثَلاثًا، كَما يَنبغِي لَهُ أنْ لا يَستَبطِأَ الإجَابةَ.

٦- أنْ يَفْتِتِحَ الدُّعَاءَ ويَختَتِمَهُ بِذِكرِ الله تَعَالى والصَّلاةِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ يَبدأُ بالسُّؤالِ.

٧- التَّوبَةُ ورَدُّ المَظَالِمِ والإقْبَالُ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ بِكُنْهِ الهِمَّةِ، وهُوَ الأدَبُ البَاطِنُ وهُوَ الأصْلُ في الإجَابةِ، وتَحرِّي أكْلِ الحَلَالِ[١].

---

(١) «مستفاد من إحياء علوم الدين» (٣٠٤ - ٣٠٧).

عباد الله...

وقَدْ يسأل سائل: وما هي فوائد إخفاء الدُّعَاء؟

الجواب: لَقَدْ أمَرَ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى بإخفَاءِ الدُّعَاءِ في آية الأعرافِ: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ [الأعراف: ٥٥]، والدُّعَاءُ هُنَا وإنْ كَانَ يَشمَلُ نَوعَي الدُّعَاءِ إلَّا أنَّهُ ظَاهِرٌ فِي دُعاءِ المَسألةِ المُتَضَمِّنِ دُعَاءَ العِبَادَةِ، ولِهَذَا أمَرَ بإخْفَائِهِ وإسْرَارِهِ وفي هذا الإخفَاءِ فَوائِدُ عَديدةٌ مِنْهَا:

١- أنَّهُ أعْظَمُ إيمانًا، لِعِلمِ صَاحِبِهِ أنَّ الله يَسمَعُ الدُّعَاءَ الخَفِيَّ.

٢- أنَّهُ أعْظَمُ فِي الأدَبِ والتَّعظِيمِ.

٣- أنَّهُ أبْلَغُ فِي التَّضَرُّعِ والخُشُوعِ.

٤- أنَّهُ أبْلَغُ فِي الإخْلاصِ.

٥- أنَّهُ أبْلَغُ فِي جَمعيَّةِ القَلْبِ عَلَى الذِّلَّةِ في الدُّعَاءِ.

٦- أنَّهُ دَليلٌ عَلَى قُربِ الدَّاعِي مِنْ مَولاهُ القَرِيبِ مِنْهُ.

ولَيْسَ مِنْ مَسألةِ البَعِيدِ للبَعِيد، وقَدْ أشَارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هَذَا المعنَى بِعَينِه عِندَمَا قَالَ في الحَديثِ الصَّحيح: عِنْدَمَا رَفَعَ الصَّحَابةُ أَصْوَاتَهُمْ بالتَّكبيرِ وَهُم مَعَهُ في السَّفَرِ: «**أيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**».

وكَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهَذَا القُربُ مِنَ الدَّاعِي إنَّما هُوَ قُربٌ خاصٌّ ولَيسَ قُربًا عَامًّا مِن كُلِّ أحدٍ، فَهُو سُبْحَانَهُ قريبٌ مِن دَاعيهِ، وقَرِيبٌ مِن عَابِديهِ، وأقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وهُوَ سَاجِدٌ.

٧- أنَّهُ - أي إخفْاءُ الدُّعَاءِ- أدْعَى إلى دَوَامِ الطَّلَبِ والسُّؤالِ.

٨- أنَّهُ أبْعَدُ للدَّاعي مِنَ القَوَاطِعِ والمُشَوِّشَاتِ.

٩- أنَّ فيهِ إخْفَاءً للنِّعمةِ - أي نِعمَةِ الإقْبَالِ والتَّعَبُّدِ - عَنْ أعْيُنِ الحَاسِدينَ.

١٠- أنَّ الدُّعَاءَ نَوعٌ مِنَ الذِّكرِ مُتضمِّنٌ للطَّلَبِ مِنْهُ، والثَّناءِ عَلَيهِ بأسْمَائِهِ الحُسْنَى وأوصَافِهِ العُلَى فَهُوَ ذِكرٌ وزِيَادَةٌ، وقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فأمَرَ نَبيَّهُ في هَذِهِ الآيةِ أنْ يَذكُرهُ في نَفْسِهِ، قَالَ مُجَاهِدُ وابن جُريجِ: أمَرَ أن يَذكُرَ في الصَّدرِ بالتَّضرُّعِ والاسْتِكَانَةِ دُونَ رَفْعِ الصَّوتِ أو الصِّياحِ[١].

عباد الله...

وقَدْ نهى الإسلام عن الاعتداء في الدُّعَاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا. فَقَالَ: أَىْ بُنَىَّ سَلِ اللَّهَ الجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِى هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِى الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»[٢].

قال القُرطُبِّيُ -رَحِمَهُ الله -: «الاعْتِدَاءُ في الدُّعَاءِ عَلَى وُجُوهٍ؛ مِنْها الجَهْرُ الكَثيرُ والصِّيَاحُ، ومِنْهَا أنْ يَدعُوَ الإنْسَانُ لِنَفسِهِ بِمَا لا يَستَحِقُّ بِأن تَكُونَ لَهُ مَنزِلَةُ نَبيٍّ، أوْ يَدْعُو في مُحَالٍ، أَوْ أن يَدعُوَ طَالِبًا مَعصِيةٌ، أَوْ أن يَدعُو بِمَا لَيْسَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ». ا.هـ[٣].

وقَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ الله -: «الِاعْتِدَاءُ فِي الدُّعَاءِ يَكُونُ تَارَةً بِأَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ لَهُ سُؤَالُهُ مِنْ المَعُونَةِ عَلَى المُحَرَّمَاتِ، وَتَارَةً بأنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ كأنْ أَنْ يَسْأَلَ تَخْلِيدَهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، أَوْ بِأَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ مَنَازِلَ البَشَرِيَّةِ مِنْ الحَاجَةِ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا سُؤَالُهُ اعْتِدَاءٌ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَلَا يُحِبُّ سَائِلَهُ، وأَعْظَمُ المُعْتَدِينَ عُدْوَانًا هُمْ الَّذِين يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، إذْ إِنَّ أَعْظَمَ العُدْوَانِ الشِّرْكُ، وَمِنْ العُدْوَانِ أَنْ يَدْعُوَهُ غَيْرَ

(١) «الفتاوى» (١٧/ ١٥ - ٢٠)، و«التفسير القيم» (٢٤٦ - ٢٥٠) باختصار وتصرف، وانظر «نضرة النعيم» (١٩٠٣).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (٩٦)، وغيره.

(٣) «تفسير القرطبي» (٧/ ١١٤).

مُتَضَرِّعٍ؛ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْ مَسْأَلَةَ مِسْكِينٍ مُتَضَرِّعٍ خَائِفٍ فَهُوَ مُعْتَدٍ.

وَمِنْ الِاعْتِدَاءِ أَيضًا أَنْ يَعْبُدَهُ بِمَا لَمْ يَشْرَعْ، أَوْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا لَمْ يُثْنِ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا أَذِنَ فِيهِ، فَإِنَّ هَذَا اعْتِدَاءٌ فِي دُعَائِهِ الَّذِي هُو ثَنَاءٌ وعِبَادَةٌ، وَهُوَ نَظِيرُ الِاعْتِدَاءِ فِي دُعَاءِ المَسْأَلَةِ وَالطَّلَبِ». ا.هـ[(١)].

عباد الله...

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه والإشارة إليه:

أَنَّ لَفْظُ الدُّعَاءِ والدَّعْوَةِ فِي القُرآنِ الكَريمِ يَتَنَاوَلُ مَعْنَيَيْنِ:

الأَوَّلُ: دُعَاءُ العِبَادَةِ وَالآخَرُ دُعَاءُ المَسألَةِ.

ودُعَاءُ المَسْألةِ هُوَ طَلَبُ مَا يَنْفَعُ الدَّاعِي، وطَلَبُ كَشْفُ مَا يَضُرُّهُ ودَفْعُهُ، وكُلُّ مَنْ يَملِكُ الضُّرَّ والنَّفْعَ فإنَّهُ هُوَ المَعبُودُ بِحَقٍّ.

أَمَّا دُعَاءُ العَبَادَةِ فَهُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ويَكُونُ مَصْحُوبًا بِالخَوفِ والرَّجَاءِ.

والدُّعَاءُ فِي القُرآنِ يُرادُ بِهِ هَذَا تَارَةً، وهَذَا تَارةً، ويُرادُ بِهِ مَجْمُوعُهُمَا وهُمَا مُتَلَازِمَانِ، فالعَبْدُ يَدعُو للنَّفْعِ أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ دُعَاءَ المَسْأَلَةِ وَيَدْعُو خَوفًا ورَجَاءً دُعَاءَ العِبَادَةِ، فكُلُّ دُعَاءِ عِبَادَةٍ مُستَلزِمٌ لِدُعَاءِ المَسْأَلَةِ، وَكُلُّ دُعَاءِ مَسْألةٍ مُتضَمِّنٌ لِدُعاءِ العِبَادةِ، وقَدْ وَرَدَ المعْنيَانِ جَميعًا فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

أَمَّا قَولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ نَوعَيِ الدُّعَاءِ أيضًا، وبِكُلٍّ مِنهُمَا فُسِّرتِ الآيةُ.

قِيلَ المعْنَى: أُعْطِيهِ إذَا سألَنِي، وقِيلَ: أُثِيبُهُ إذا عَبَدَنِي، والقَولَانِ مُتَلَازِمَانِ.

ومِن ذَلِكَ قولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر: ٦٠]، ولكِنَّهُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٢، ٢٣).

في دُعَاءِ العِبَادةِ أظْهَرُ، ولِهَذَا أعْقَبَهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾، وقَدْ فُسِّرَ الدُّعَاءُ في الآيةِ بِهَذَا، وبِهَذَا.

وأمَّا قولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَـهُ ﴾ [الحج: ٧٣]، فَالْمرادُ بِهِ دُعَاءُ العِبَادَةِ الْمُتَضمِّنُ دُعاءَ الْمَسألَةِ.

وأمَّا قَولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ١٤]، فَهَذَا هُوَ دُعاءُ العِبَادَةِ، والمعْنَى: اعْبُدُوهُ وحْدَهُ وأخْلِصُوا عِبَادَتَهُ، وذَلِكَ بِخِلَافِ قَولِهِ تَعَالى: ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَـهُمْ ﴾ [القصص: ٦٤]، فَهَذَا دُعَاءُ المسألَةِ، يُبَكِّتُهُم الله تَعَالى ويُخْزِيهم يَوْمَ القِيَامَةِ بِأنْ يَرَوا أنَّ شُرَكَاءَهُم لا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعوَتِهِم، ولَيسَ الْمرادُ اعْبُدُوهُم» ا.هـ[(١)].

أيها المسلمون...

ما هي الآفات التي تمنع قبول الدُّعَاء؟

وما هي شروط الدُّعَاء المقبول؟

يجيب الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله - عن هذين السؤالين فيقول:

«من الآفات التي تمنع ترتُّب أثر الدُّعَاء عليه: أن يَسْتَعجِلَ العبدُ، ويَسْتَبْطئ الإجابة، فَيَسْتَحْسَر ويَدَعَ الدُّعَاء، وهو بمنزلة مَن بَذَرَ بَذْرًا أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فجعل يَتعاهَدُه ويُسقيه، فَلَمَّا استبطأ كَمَالَه وإدراكَه تَرَكَه وأهْمَلَه.

وفي «صحيح البخاري» مِن حديث أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ، أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**». ا.هـ[(٢)].

أما شروط الدُّعَاء المقبول:

فيقول ابن القيم -رَحِمَهُ الله -: «وإذا كان الدُّعَاءُ في نفسه غيرَ صالح، أَوْ الدَّاعي لم يَجمَع بين قلبه ولسانه في الدُّعَاء، أَوْ كان ثَمَّ مَانعٌ من الإجابة لم يَحصُلِ الأثر، ولقد دلّ

---

(١) «نضرة النعيم» (١٩٠٣).

(٢) «مختصر الداء والدواء» (٨، ٩).

العملُ والنقلُ والفطرُ عَلَى أن التقرّب إلى ربِّ العالمين وطلب مرضاته، والبرَّ والإحسانَ إلى خلقه مِن أعظمِ الأسباب الجالبة لكلِّ خير، وأضدادُها مِن أكبر الأسباب الجالبة لكلّ شرّ، فما استجلبت نعم الله تَعَالى واستُدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرّب إليه والإحسان إلى خَلقه». ا.هـ[١].

فأميطوا - عباد الله - عن أنفسكم الآفات التي تمنع قبول العمل، وحققوا شروط الدُّعَاء المقبول، حَتَّى يُستجاب لكم.

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لكل خير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأختم خطبة اليوم بحديث وأثر.

- **أما الحديث:**

فعَن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي**». ثُمَّ عَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً يُصَلِّي فَمَجَّدَ اللَّهَ وَحَمِدَهُ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ادْعُ تُجَبْ وَسَلْ تُعْطَ**»[٢].

- **وأمَّا الأثر:**

فعَن الأوزاعيّ -رَحِمَهُ الله - قال: خرج الناسُ يَسْتَسْقُون فقام فيهم بلالُ بنُ

---

(١) المرجع السابق (١١، ١٢).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والنسائي (٣/ ٤٤، ٤٥).

سعد[١]، فحمد الله تَعَالى وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر مَنْ حَضَر، أَلَسْتُم مُقِرِّين بالإِسَاءَة؟»

قالوا: بلى.

فقال: «اللَّهُمَّ إنَّا سمعناك تقول: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١]، وقَدْ أَقْرَرنا بالإساءة، فهل تكونُ مغفرتكُ إلَّا لِمِثْلِنا؟ اللَّهُمَّ اغفر لنا وارْحَمنا واسْقنا».

فرفع يديه ورفعوا أيديَهم فَسُقُوا[٢].

فاجتهدوا - عباد الله - في الدُّعَاء، واعلموا أَنَّهُ لن يهلك مَعَ الدُّعَاء أحد، والله يُحبُّ أن يُسأل.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك الجَنَّة، وما يُقَرِّب إليها مِن قولٍ أو عمل ونعوذ بك من النار، وما يُقرِّب إليها من قولٍ أو عمل.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

---

(١) من التابعين.

(٢) «الأذكار» للنووي (٦١٢).

الخطبة الخمسون بعد المائة:

[١] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية

من فوائد ذكر الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].
اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.
أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكر صاحب كتاب «أحاسن المحاسن» أن «**حبيبة العدوية**» رحمها الله تَعَالى، كانت إذا صَلَّتِ العَتَمَة (أي صلاة العِشاء) قامت عَلَى السَّطح وقالت: «إلهي، غارت النُّجومُ، ونامت العيونُ، وأَغْلَقَتِ الملوكُ أبوابَها، وبابُك مفتوحٌ، وخَلَا كُلُّ حَبيبٍ بِحبيبه، وهذا مَقامي بين يديك».
فَإِذَا كان السَّحر قالت: «اللَّهُمَّ هذا اللَّيلُ قَدْ أدْبَرَ، وهذا النَّهارُ قَدْ أسْفَرَ، فَلَيْتَ

شِعْري، هل قَبِلتَ مِنِّي ليلتِي فأُهَنَّى؟ أَم رَددتَّها عليَّ فَأُعَزَّى؟ وعزَّتك لو انْتَهَرتَني مَا بَرِحتُ مِنْ بَابِك».

عباد الله...

كان هذا ليلُ سَلَفَنَا الصَّالح، فكيف كان نَهارُهم؟

لقد أداروا الأيام والليالي في طاعة رَبِّهم وذِكره، ومع هذا الجهد العجيب، كانوا خائفين من عدم القبول!!

قَالَ تَعَالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

إذا فعلوا طاعة، حمدوا الله تَعَالى وسألوه قبولها، وإذا فعلوا معصية خافوا الله تَعَالى، وسألوه مغفرتها.

ولله دَرُّ الإمام ابن القيِّم – رَحِمَهُ الله – حين قَالَ:

مَبْنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشُّكر، قال تَعَالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال النَّبيُّ ﷺ لمعاذ: «**إِنِّى لأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ**». فقال مُعاذ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلاَ تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِى كُلِّ صَلاَةٍ: رَبِّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**» (١).

وليسَ المرادُ بالذِّكر مجرَّدَ ذِكْرِ اللِّسانِ، بل الذِّكر القَلبيّ واللِّسانيّ، وذِكْرُهُ يتضمَّنُ ذِكرَ أسمائِهِ وصِفَاتِهِ، وذكرَ أمرِهِ ونهيِهِ، وذِكرَه بِكلامِهِ، وذَلِكَ يَستلزمُ مَعرفتَه والإيمانَ به وبصفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ، والثناءَ عليه بأنواعِ المدحِ. وذَلِكَ لا يتمُّ إلَّا بتوحيدِهِ، فذِكْرُهُ الحقيقيُّ يستلزمُ ذَلِكَ كُلَّه، ويستلزمُ ذِكرَ نعمِهِ وآلائِهِ وإحسانِهِ إلى خَلقِهِ.

وأما الشُّكر فهو القيامُ له بطاعتِهِ والتقرُّبُ إليه بأَنواعِ محابِّهِ ظَاهرًا وبَاطِنًا، وهذانِ الأمرانِ هما جِمَاعُ الدِّينِ، فذِكْرُهُ مُستلزمٌ لمعرفتِهِ، وشُكرهُ متضمِّنٌ لطاعتِهِ، وهذانِ هما

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

الغايةُ التي خلقَ لأجلها الجنَّ والإنس والسَّموات والأرضَ، ووضعَ لأجلِها الثَّوابَ والعقابَ، وأنزلَ الكُتبَ وأرسلَ الرُّسلَ، وهي الحقُّ الَّذي به خُلقت السموات والأرضُ وما بينهما، وضدُّها هو الباطلُ والعبثُ الَّذي يتعالى ويتقدَّسُ عنه» ا.هـ[١].

عباد الله...

ويُبيِّنُ ابنُ القيِّمِ مَنزِلَةَ الذِّكرِ وأهميَّتَهُ فيَقُولُ:

وَهِي مَنْزِلَةُ القَومِ الكُبْرَى الَّتِي مِنْهَا يَتزوَّدُونَ وفِيهَا يَتَّجِرُونَ، وإليها دَائمًا يَتَردَّدُونَ.

والذِّكْرُ مَنْشُورُ الوِلَايَةِ الَّذِي مَنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ، ومَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وهُوَ قُوتُ قُلُوبِ القَومِ الَّذِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الأجْسَادُ لها قُبُورًا، وعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إذا تَعَطَّلَت عَنْهُ صَارَت بُورًا، وهُوَ سِلَاحُهُم الَّذِي يُقَاتِلُون بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، ومَاؤُهُم الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ التِهَابَ الحَرِيقِ، ودَوَاءُ أسْقَامِهِمُ الَّذِي مَتَى فَارَقُهُم انْتَكَسَت مِنْهُم القُلُوبُ، والسَّبَبُ الوَاصِلُ والعِلاقَةُ الَّتِي كَانْت بَيْنَهُم وبَيْنَ عَلَّامِ الغُيُوبِ.

إذا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

بِهِ يَسْتَدفِعُونَ الآفَاتِ ويَسْتَكْشِفُونَ الكُرُبَاتِ، وتَهُونُ عَلَيهِم بِهِ المُصِيبَاتِ، إذَا أظَلَّهُمُ البَلَاءُ فَإلَيهِ مَلجَؤُهُم، وإذَا نَزَلَت بِهِمُ النَّوَازِلُ فَإليْهِ مَفْزَعُهُم، فَهُو رِيَاضُ جَنَّتِهِم الَّتِي فِيْهَا يَتَقلَّبُونَ، يَدَعُ القَلْبَ الحَزِينَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا ويُوَصِّلُ الذَّاكِرَ إلى المَذْكُورِ، بَل يَدَعُ الذَّاكِرَ مَذْكُورًا.

وفِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ الجَوَارِحِ عُبُوديَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُوديَّةُ القَلْبِ واللِّسَانِ، وهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ بَلْ هُمْ يُؤمَرُوْنَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِم وَمَحْبُوبِهِم في كُلِّ حَالٍ: قِيَامًا وقُعُودًا، وعَلَى جُنُوبِهِم، فكَمَا أنَّ الجَنَّةَ قِيعَانٌ وهُو غِرَاسُهَا، فَكَذَلِكَ القُلُوبُ بُورٌ وخَرَابٌ وهو عِمَارَتُهَا وأَسَاسُهَا.

وهُوَ جَلَاءُ القُلُوبِ وصِقَالُـهَا، ودَوَاؤُهَا إذَا غَشِيَهَا اعْتِلَالُهَا، وكُلَّمَا ازْدَادَ الذَّاكِرُ في ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا ازْدَادَ المَذْكُورُ محبَّةً إلى لِقَائِهِ واشْتِيَاقًا، بِهِ يَزُولُ الوَقْرُ عَنِ الأسْمَاعِ والبَكَمُ

---

(١) «الفوائد».

عَنِ الالسُنِ وتَنْقَشِعُ الظُّلمَةُ عن الأبْصَارِ. زَيَّنَ الله بِهِ السِنَةَ الذَّاكرينَ كَمَا زَيَّنَ بِالنُّورِ أبْصَارَ النَّاظِرِينَ، فَاللِّسَانُ الغَافِلُ كَالعَيْنِ العَمْيَاءِ والأُذُنِ الصَّمَّاءِ واليَدِ الشَّلَّاءِ، وهُوَ بَابُ الله الأعْظَمُ المَفْتُوحُ بَيْنَهُ وبَيْنَ عَبْدِهِ مَا لم يُغْلِقْهُ العَبْدُ بِغَفْلَتِهِ» ا.هـ[(١)].

عباد الله...

وللذِّكر درجات:

قَالَ الإمام ابن القيِّم – رَحِمَهُ الله – عن درجات الذِّكر: وَهُوَ عَلَى ثَلاثِ دَرَجَاتٍ:

- **الدَّرَجَةُ الأُولَى: الذِّكْر الظَّاهِرُ – ثَنَاءً أو دُعَاءً أو رِعَايَةً:**

فأمّا ذِكْرُ الثَّناء: فَنَحْوُ: «سُبْحَانَ الله، والحَمْدُ لله، ولَا إلَهَ إلَّا الله، والله أَكْبَرُ».

وأمّا ذِكْرُ الدُّعاءِ: فَنَحْوُ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وأَمّا ذِكْرُ الرِّعاية: فَمِثْلُ قَوْلِ الذَّاكِرِ: «الله مَعِي، الله نَاظِرٌ إلَيَّ، الله شَاهِدِي».

- **الدَّرجةُ الثَّانية: الذِّكْر الخَفِيُّ:**

وهُوَ الخَلاصُ مِنَ القُيُود، والبَقَاءُ مَعَ الشُّهودِ، وَلُزُوم الـمُسَامَرَة.

- **الدرجة الثالثة: الذِّكر الحقيقيُّ:**

وهُو شُهُودُ ذِكْر الحقِّ إيَّاك، والتَّخَلُّصُ مِنْ شُهُودِ ذِكْرِكَ.

وقد سُمِّي هذا الذِّكر حَقِيقيًّا؛ لأنَّهُ مَنْسُوبٌ إلى الرَّبِّ – تَعَالَى – فَذِكْرُ الله لِعَبدِهِ هُوَ الذِّكْرُ الحَقِيقيُّ، وهُوَ شُهُودُ ذِكر الحَقّ عَبْده... إلخ» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وقَدْ وضع الإسلام للذِّكر آدابًا:

قَالَ الإمامُ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ الله –: «يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ الذَّاكِرُ عَلَى أكْمَلِ الصِّفاتِ، فَإنْ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٥ – ٢٥٣).

كَانَ جَالسًا فِي مَوْضِعٍ، اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، وجَلَسَ مُتخشِّعًا مُتَذَلِّلًا بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، مُطْرِقًا رَأسَهُ، وَلَو ذَكَرَ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الأَحْوَالِ جَازَ، ولو كان ذَلِكَ - أي تَرَكَ الذَّاكرُ ذَلِكَ - بِغَيرِ عُذرٍ كَانَ تَارِكًا للأَفْضَلِ.

ويَنْبَغِي أنْ يَكُونَ المَوضِعُ الَّذِي يَذكُرُ فِيهِ خَاليًا نَظِيفًا، ولهذا مُدِحَ الذِّكرُ فِي المَسَاجِدِ والأَمَاكِنِ الشَّرِيفَةِ، وقَدْ جَاءَ عن أبِي مَيْسرة، قال: «لا يُذْكَرُ الله تَعَالى إلَّا فِي مَكَانٍ طَيِّب».

ويَنْبَغِي للذَّاكِرِ - أيضًا - أنْ يَكُون فَمُهُ نَظِيفًا، فإنْ كَانَ فِيهِ تَغَيُّرٌ، أَزَالَهُ بِالسِّوَاكِ ونَحْوِهِ، وإنْ كَانَ فِي بَدَنِه أو ثَوْبه نَجَاسَةٌ أزَالَهَا بِالمَاءِ، فإنْ ذَكَر ولم يَفْعَل، فَهُو مَكرُوهٌ ولَيْسَ بِحَرَامٍ، وهُوَ محبوبٌ فِي جميع الأَحْوَالِ، إلَّا فِي أحوالٍ وَرَدَ الشَّرْعُ بِاسْتِثْنَائِهَا.

مِنْها: عِنْدَ الجُلُوسِ عَلَى قَضَاءِ الحَاجَةِ، وفِي حَالَةِ الجِمَاعِ، وفِي حَالَةِ الخُطْبَةِ لِمَن يَسْمَعُ صَوْتَ الخَطِيبِ، وفِي القِيَامِ فِي الصَّلاة؛ لأنَّ عليه الاشْتِغَالَ بِالقِرَاءَةِ، وفِي حَالَةِ النُّعَاسِ، ولا يُكْرَهُ فِي الطَّرِيقِ، ولا فِي الحَمَّام» ا.هـ[١].

فاحرصوا - عباد الله - عَلَى هَذِهِ الآداب، وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لِمَا يُحِبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول بعض الصالحين: الذِّكرُ عَلَى سَبعةِ أنحَاءَ:

- فَذِكرُ العَينَينِ بِالبُكَاءِ.
- وذِكرُ الأُذُنَينِ بالإصْغَاءِ.
- وذِكْرُ اللِّسَانِ بِالثَّنَاءِ.

---

(١) «الأذكار» للنووي (١٧، ١٨).

- وذِكرُ اليَدَينِ بِالعَطاءِ.
- وذِكرُ البَدَنِ بالوَفَاءِ.
- وذِكرُ القَلْبِ بِالخَوفِ والرَّجَاءِ.
- وذِكرُ الرُّوحِ بِالتَّسلِيمِ والرِّضَاءِ.

فالذِّكر إذًا لا يتوقف عَلَى حركة اللِّسان فقطْ كما يعتقد البعض، بل يشمل ظاهر الإنسان وباطنه.

فعلى المسلم أن يُحرِّك ظاهِرَه وباطَنه بِذكر الله تَعَالى، وأن يتخلَّى عَمَّا يُغضب ربَّه ظاهرًا وبَاطِنًا، كما قال تَعَالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قَالَ عددٌ من العلماء ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ معصيتهُ في السِّرِّ والعلانية.

وقال آخرون: ظاهرهُ: الزِّنا مَعَ البَغَايا ذوات الرّايات، وباطنه: الزِّنا مَعَ الخليلة والصّدائق والأخدان.

والصحيح: أن الآية عامَّة في ذَلِكَ كُلّه، وهي كقوله تَعَالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]» ا.هـ. (١).

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة - إن شاء الله - نتكلّم عن بعض فوائد ذِكر الله تَعَالى.

فإلى اللِّقاء.



(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٢).

الخطبة الحادية والخمسون بعد المائة:

[٢] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية

من فوائد ذكر الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا في الخطبة الماضية: أن حبيبة العدوية رحمها الله تَعَالى، كانت إذا صلَّت العَتَمة قامت عَلَى السَّطح حَتَّى السَّحر في صلاة ودعاء واستغفار.

ولعلّ هذا في بعض الليالي، لأن الثابت عن النَّبيّ ﷺ أنَّهُ كان يقوم وينام.

والمقصود: أن السَّلف رحمهم الله تَعَالى وظَّفوا أنفاسهم في طاعة الله تَعَالى.

وقَدْ تكلَّمنا عن أهمية الذِّكر، ودرجاته، وآدابه، في الجمعة الماضية، واليوم - إن شاء الله تَعَالَى - نتكلَّم عن بعض فوائد الذِّكر، والله الموفَّق لِما يُحبّ ويرضى.

عباد الله...

قَالَ الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - في كتابه الماتع «الوابل الصِّيب» ما مختصره:

«**وفي الذكر أكثر من مائة فائدة**:.

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرحمن عَزَّ وجَلَّ.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوى القلب والبدن.

السادسة: أنه ينوّر الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذَّاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يُورثه المحبَّة التي هي رُوح الإسلام وقطب رحى الدِّين ومدار السعادة والنجاة. وقد جعل الله عَزَّ وجَلَّ لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبَّة دوام الذِّكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عَزَّ وجَلَّ فليلهج بذكره فإنه الدرس والمذاكرة، كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبَّة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يُورثه المراقبة حتى يُدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذِّكر إلى مقام الإحسان كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يُورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عَزَّ وجَلَّ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عَزَّ وجَلَّ مَفزعه ومَلجأه، ومَلاذه ومَعاذه، وقِبلة قَلبه، ومَهربه عِند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يُورثه القُرب منه، فعلى قدر ذكره لله عَزَّ وجَلَّ يكون قربه منه،

وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يَفتح لَه بابًا عظيمًا مِن أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذِّكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يُورثه الهيبة لربه عَزَّ وجَلَّ وإجلاله، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإنَّ حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يورثه ذِكر الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولو لم يكن في الذِّكر إلا هذه وحدها لكفى بها فَضلًا وشَرفًا، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «مَنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى، وَمَنْ ذَكَرَنِى فِى مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلإٍ خَيرٌ مِنْهُمْ»[١].

السادسة عشرة: أنه يُورث حياة القلب، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى روحه - يقول: الذِّكر للقلب مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

السابعة عشرة: أنه قُوت القَلب والرُّوح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قُوّته، وحَضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرّة صلى الفجر ثُمَّ جلس يَذْكُر الله تعالى إلى قريب مِن انتصاف النهار ثُمَّ التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبًا مِن هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذِّكر إلَّا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لِذِكر آخر، أو كلامًا هذا معناه.

الثامنة عشرة: أنه يُورث جلاء القلب من صداه، كما تقدم في الحديث، وكل صدأ؛ وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذِّكر والتَّوبة والاستغفار، وقد تقدم هذا المعنى.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

---

(١) متفق عليه.

العشرون: أنه يُزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإن الغافل بينه وبين الله عَزَّ وجَلَّ وحشة لا تزول إلَّا بالذِّكر.

الحادية والعشرون: أنَّ ما يُذكر به العبد رَبّه عَزَّ وجَلَّ مِن جلاله وتسبيحه وتحميده يُذكِّر بصاحبه عند الشدة، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ**»[(١)]. هذا الحديث أو معناه.

الثانية والعشرون: أنَّ العبد إذا تعرَّف إلى الله تعالى بِذِكره في الرَّخاء عَرفه في الشِّدة.

الثالثة والعشرون: أنه يُنجِّي مِن عذاب الله تعالى، كما قال معاذ رَضِيَ الله عَنْهُ ويروى مرفوعًا: «مَا عَمِلَ امْرُؤٌ بِعَمَلٍ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ»[(٢)].

الرابعة والعشرون: أنه سبب تنزيل السَّكينة وغشيان الرَّحمة وحفوف الملائكة بالذَّاكر، كما أخبر به النبي ﷺ.

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللِّسان عن الغيبة والنَّميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لابد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره، تكلَّم بهذه المحرَّمات أو بعضها، ولا سبيل الى السلامة منها البتة إلا بذِكْر الله تعالى، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فَمَنْ عوَّد لسانه ذِكر الله صانَ لِسَانه عن الباطل واللَّغو، ومَن يَبِسَ لسانه عن ذكر الله تعالى ترطَّب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السادسة والعشرون: أن مجالس الذِّكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة ومجالس الشياطين، فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٨٠٩).

(٢) صحيح.

السابعة والعشرون: أنه يسعد الذَّاكِر بذكره ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أين ما كان، والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته ويشقى به مجالسه.

الثامنة والعشرون: أنه يؤمِّن العبد مِن الحسرة يوم القيامة، فإن كل مجلس لا يُذكر العبد فيه ربه تعالى، كان عليه حسرة وَتِرَة يوم القيامة.

التاسعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف، وهذا الذَّاكِر مستظل بظل عرش الرحمن عَزَّ وجَلَّ.

الثلاثون: أن الاشتعال به سبب لعطاء الله للذَّاكر أفضل ما يعطي السائلين، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ وَذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ**»[(١)].

الحادية والثلاثون: أنه أيسر العبادات وهو من أجلِّها وأفضلها، فإن حركة اللِّسان أخفّ حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الانسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة بل لا يمكنه ذلك.

الثانية والثلاثون: أنه غراس الجنة، فقد روى الترمذي في «جامعه» من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ**». قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ[(٢)].

وفي الترمذي من حديث أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ. غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِى الجَنَّةِ**»[(٣)]. قَالَ الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذي (٢٩٢٧)، وغيره، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤٥٢).

(٢) **حسن بشواهده:** أخرجه الترمذي (٣٤٥٨)، وانظر «الصحيحة» (١٠٦).

(٣) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢٣٣٥)، وغيرهما.

الثالثة والثلاثون: أنّ العطاء والفضل الذي رتّب عليه لم يُرتّب على غيره من الأعمال، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ في يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مائة حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مائةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ يَوْمَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسيَ، ولَمْ يَأتِ أحَدٌ بأفْضَلَ مِمَّا جاءَ بِهِ إلاَّ رَجُلٌ عَمِلَ أكْثَرَ مِنْهُ. ومَنْ قالَ سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ في اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَاياهُ وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، والحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ».

وفي الترمذي من حديث أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ حينَ يُصْبحُ أوْ يُمْسِي: اللَّهُمَّ إنِّي أصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أنْتَ لا إلهَ إلاَّ أنْتَ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ. أعْتَقَ اللَّهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قالَهَا مَرَّتَيْنِ أعْتَقَ اللَّهُ نِصْفَهُ مِنَ النَّار، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثاً أعْتَقَ اللَّهُ تعالى ثَلاثَةَ أرْبَاعِهِ، فإنْ قالها أرْبَعاً أعْتَقَه اللَّهُ تَعالى مِنَ النَّارِ»(١).

وفيه عن ثوبان أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ حِينَ يُمْسِي: رَضِيتُ باللهِ رَبّاً، وَبالإسْلامِ دِيناً، وبِمُحَمَّدٍ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَبِيّاً، كانَ حَقّاً على اللهِ تعالى أنْ يُرْضِيَهُ»(٢).

وفي الترمذي: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فقالَ: لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي ويُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ألفَ ألفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ ألفَ ألفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ ألفَ ألفِ دَرَجَة»(٣).

الرابعة والثلاثون: أنَّ دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يُوجب الأمان مِن نسيانه الَّذي

---

(١) **حسن بشواهده:** أخرجه أبو داود (٥٠٦٩)، وحسنه الشيخ بكر أبو زيد في «أذكار طرفي النهار» والدكتور/ مُحَمَّد سعيد رسلان في «أذكار الصباح والمساء».

(٢) **حسن بطرقه:** أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٧)، وحسنه الحافظ في «تخريج الأذكار».

(٣) **حسن:** أخرجه الترمذي (٤٣٢٤) وغيره، وحسّنه الألباني.

هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإنَّ نسيان الرب سُبحَانَهُ وتَعَالى يُوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذَلِكَ، مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره وضيّع مصالحه، فإنه يفسد ولا بد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان وهذا هو الذي صار أمره كله فرطًا فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطبًا به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك وبمنزلة الماء عند شدة العطش وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم [١].

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ هذا هلاك لا بد منه وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذِّكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفي بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]. أي: تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها ولم تعمل بها.

---

(١) **السموم**: الريح الحارة.

وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذِّكر الذي أنزله، وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ونعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذِّكر في الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل أو مضاف إضافة الأسماء المحضة، أعرض عن كتابي ولم يتله ولم يتدبره ولم يعمل به ولا فهمه، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبًا فيها.

والضنك: الضيق والشدة والبلاء، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح أنها تتناول معيشته في الدنيا وحاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين وهو شدة وجهد وضيق، وفي الآخرة تنسى في العذاب، وهذا عكس أهل السعادة والفلاح فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة ولهم في البرزخ، وفي الآخرة أفضل الثواب.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾، فهذا في الدنيا ثم قال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في البرزخ والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣]. فهذا في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

فهذه أربعة مواضيع ذكر الله تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.

فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره، ولذاته بمعاملة ربه

عَزَّ وجَلَّ وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته.

وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتشتته، وظلمته، وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه بل الغموم والهموم والأحزان والضيق، عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه، وامتلاء القلب من محبته واللَّهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته، ثوابٌ عاجل وجنَّة وعيش، لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة». ا.هـ.

عباد الله...

هَذِهِ بعض فوائد ذِكر الله تَعَالى، وسيأتي المزيد - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله - الكلام عن فوائد الذِّكر فيقول:

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «إنَّ في الدنيا جنَّة مَن لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة». وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني وإن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة»، أو قال: «ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير»، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللَّهُمَّ أعنِّي على ذكرك وشُكرك وحُسن عِبَادتك» ما شاء الله.

وقال لي مرة: «المحبوس مَن حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور مَن أسره هواه».

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

يقول ابن القيم: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرة النَّعيم على وجهه.

وكنَّا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقُوّة ويَقينًا وطمأنينة، فسبحان مَن أشهد عباده جنَّته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحوَ هذا.

وقال آخر: إنه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنَّة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فمحبَّة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسُّكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قوة عين المحبين وحياة العارفين، وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عَزَّ وجَلَّ، فمن قرت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنما يصدق هذا مَن في قلبه حياة، وأما ميِّت القلب فيوحشك ما له ثَمَّ، فاستأنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك وترحل عنه بقلبك، وفارقه بسرك ولا تشغل به عما هو أولى بك.

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله عَزَّ وجَلَّ، وانقطاعك عنه وضياع وقتك وضعف عزيمتك وتفرق همك.

فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل الله تعالى فيه واحتسب عليه ما أمكنك وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجرا لك لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم يكن في سيره مطمعٌ، فلا تقف معه بلا ركب الدرب، ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق، ولو كان من كان، فانج بقلبك وضن بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة فتؤخذ أو يطلع الفجر، أنى لك بلحاقهم» ا.هـ.

وللحديث بقية – إن شاء الله تَعَالى – فإلى اللِّقاء.

اللَّهُمَّ أعنَّا عَلَى ذِكرك، وشُكرك، وحُسن عبادتك



الخطبة الثانية والخمسون بعد المائة:

[٣] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدويّة

من فوائد ذكر الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَــقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

ويواصل الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله- الكلام عن فوائد الذِّكر فيقول:

والفائدة الخامسة والثلاثون: أنَّ الذِّكر يسير العبد وهو في فراشه وفي سوقه وفي حال صحته وسقمه وفي حال نعيمه ولذته، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله، حتى يسير العبد وهو نائم على فراشه فيسبق القائم مع الغفلة، فيصبح هذا (النائم) وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه، ويصبح ذلك الغافل في ساقة الركب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وحُكى عن رجل مِن العُبَّاد أنه نزل برجل ضيفًا، فقام العابد ليله يصلي وذلك الرجل مستلق على فراشه، فلما أصبحا قال له العابد: سبقك الرَّكب، أو كما قال. فقال: ليس الشأن فيمن بات مسافرًا وأصبح مع الرَّكب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الرَّكب.

وهذا ونحوه له محملٌ صحيح، ومحملٌ فاسد، فَمَن حكم على أن الرَّاقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت فهو باطل، وإنما محمله أن هذا المستلقي على فراشه عَلِق بربه عَزَّ وجَلَّ وألصق حبة قلبه بالعرش، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة، قد غاب عن الدنيا ومن فيها، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه، أو غير ذلك من الأعذار، فهو مستلق على فراشه وفي قلبه ما الله تعالى به عليم، وآخر قائم يصلي ويتلو وفي قلبه من الرِّياء والعجب وطلب الجاه والمحمدة عند الناس، ما الله به عليم، أو قلبه في وادٍ وجسمه في وادٍ، فلا ريب أن ذلك الرَّاقد يُصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة، فالعمل على القلوب لا على الأبدان والمعول على السَّاكن ويهيج الحب المتوارى ويبعث الطلب الميت.

السادسة والثلاثون: أنَّ الذِّكرَ نُور للذَّاكر في الدنيا، ونورٌ له في قبره، ونورٌ له في معاده يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢]،

فالأول: هو المؤمن، استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، **والآخر:** هو الغافل عن الله تعالى المُعرِض عن ذكره ومحبَّته، والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته، ولهذا كان النبي ﷺ يُبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه، وعصبه، وشعره، وبشره، وسمعه وبصره، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله، وخلفه وأمامه، حتى يقول: «**واجعلني نورًا**» (١)، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة،

(١) رواه البخاري (١١/ ١٣١)، ومسلم (٧٦٣) وغيرهما.

وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورًا، فدين الله عَزَّ وجَلَّ نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه.

وقد ضرب سُبحَانَهُ وتَعَالى النور في قلب عبده مثلًا لا يعقله إلا العالمون، فقال سُبحَانَهُ وتَعَالى: ﴿اللَّـهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَـمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّـهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّـهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في قلب المسلم، وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والايمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس وأصله في قلوبهم، ثم تَقْوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم بل ثيابهم ودورهم، يبصره مَن هو مِن جنسهم، وسائر الخلق له منكر، فإذا كان يوم القيامة برز ذَلِكَ النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم مَن نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يُعطي نُورًا على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذَلِكَ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانًا، ولما لم يكن للمنافق نُورٌ ثابت في الدنيا، بل كان نُوره ظاهرًا لا باطنًا أُعطى نورًا ظاهرًا مآله إلى الظلمة والذهاب.

عباد الله...

وضرب الله عَزَّ وَجَلَّ لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلًا بالمشكاة، وهي الكوة في الحائط، فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، وحتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه، وهي مثل القلب، وشُبِّه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافًا هي في قلب المؤمن؛ وهي الصَّفاء والرِّقة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم، ويشتد في

الحق ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى، ولا تعارضها بل تساعدها وتعاضدها. قال تعالى: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]،

هذا، وعلى حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أعماله وأقواله، ولها نور وبرهان، حتى أنَّ المؤمن مَن يكون نُور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا يكون نور وجهه في القيامة، والله تعالى المستعان وعليه الاتكال.

السابعة والثلاثون: أنَّ الذِّكر رأس الأصول، وطريق عامة الطائفة، ومنشور الولاية، فَمَن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عَزَّ وَجَلَّ، فليتطهر وليدخل على ربه عَزَّ وَجَلَّ يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عَزَّ وَجَلَّ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عَزَّ وَجَلَّ فاته كل شيء.

الثامنة والثلاثون: أنَّ في القلب خلة وفاقه لا يسدها شيء البته إلا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا صار شعار القلب بحيث يكون هو الذَّاكِر بطريق الأصالة، واللسان تبع له، فهذا هو الذِّكر الذي يَسدّ الخلّة ويَفني الفاقه، فيكون صاحبه غنيًّا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان، فإذا كان غافلًا عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فهو بضد ذَلِكَ، فقير مع كثرة جدته، ذليل معَ سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته.

التاسعة والثلاثون: أنَّ الذِّكر يجمع المتفرّق ويفرّق المجتمع، ويُقرّب البعيد ويبعد القريب، فيجمع ما تفرّق على العبد مِن قلبه وإرادته وهمومه وعزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه وانفراطها له، والحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه وعزمه وإرادته، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه، ويفرق أيضًا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل، ويفرق أيضًا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية، وكلما كان أقوى طلبًا لله سُبحَانَهُ وتَعَالى، وأمثل تعلقًا به وإرادة له، كانت السريّة أكثف وأكثر وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذِّكر.

وأما تقريبه البعيد؛ فإنه يُقرّب إليه الآخرة التي يبعدها منه الشيطان والأمل، فلا يزال يلهج بالذِّكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها فحينئذ تصغر في عينه الدنيا وتعظم في قلبه الآخرة، ويبعد القريب إليه وهي الدنيا التي هي أدنى إليه من الآخرة، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا، كلما قربت منه هذه مرحلة بعدت منه هذه مرحلة، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذِّكر.

الأربعون: أنَّ الذِّكر يُنبِّه القلب مِن نومه ويوقظه من سِنَتِهِ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شدّ المئزر وأحيا بقية عمره واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذِّكر، فإنَّ الغفلة نومٌ ثقيل.

الحادية والأربعون: أنَّ الذِّكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذِّكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذِّكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام وقاعدته التي ينبي ذلك المقام عليها، كما يبني الحائط على رأسه، وكما يقوم السقف على حائطه، وذلك أنَّ العبد إن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقظ إلا بالذِّكر - كما تقدم - فالغفلة نوم القلب أو موته.

الثانية والأربعون: أنَّ الذِّكر قريب من مذكوره ومذكوره معه، وهذه المعيّة معيّة خاصة غير معيّة العلم والإحاطة العامة، فهي معيّة بالقرب والولاية والمحبَّة النُّصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وللذاكر من هذه المعيّة نصيبٌ وافر، كما في الحديث الإلهي: «أَنَا مَعَ عَبْدِى إِذَا هُوَ ذَكَرَنِى وَتَحَرَّكَتْ بِى شَفَتَاهُ»(١).

والمعيَّة الحاصلة للذاكر معيَّةٌ لا يشبهها شيء وهي أخصُّ مِن المعيَّة الحاصلة

---

(١) **صحيح:** رواه البخاري تعليقًا (١٣/ ٤١٧)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥٤٠)، وغيرهما.

للمُحسِن والمتُقي، وهي معيَّة لا تُدركها العبارة ولا تنالها الصِّفة، وإنما تعلم بالذوق وهي مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود، وإلا وقع في حلول يضاهي به النصارى أو اتحاد يضاهي به القائلين بوحدة الوجود، وأن وجود الرب عين وجود هذه الوجودات، بل ليس عندهم رب وعبد، ولا خلق وحق، بل الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخلق المشبه هو الحق المنزه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

والمقصود أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة، وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذِّكر وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه، ولج باب الحلول والاتحاد ولا بد.

الثالثة والأربعون: أنَّ الذِّكر يعدل عِتق الرِّقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد تقدم أن «**مَنْ قَالَ: لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ في يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مائة حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مائةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ يَوْمَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسيَ...**» الحديث.

وذكر ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إنَّ رجلا أعتق مائة نسمة قال: إن مائة نسمة مِن مال رجلٌ كثير، وأفضل من ذلك وأفضل إيمان ملزوم بالليل والنهار: أن لا يزال لسان أحدكم رطبًا مِن ذِكْر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال ابن مسعود: لئِن أسبح الله تعالى تسبيحات أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وجلس عبد الله بن عمرو وعبد الله بن مسعود فقال عبد الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبّ إليَّ مِن أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال عبد الله بن عمرو: لأن أجد في طريق فأقولهن أحبّ إليّ مِن أحمل عددهن على الخيل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أعمالِكُمْ**

وَأَزْكاها عنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأرْفَعِها في دَرَجَاتِكُمْ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ؟» قالوا: بلى، قال: «**ذِكْرُ اللَّهِ تَعالى**». رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد [١].

الرابعة والأربعون: أن الذِّكر رأس الشكر فما شكر الله تعالى من لم يذكره.

قلت[٢]: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه[٣].

ولم تستثن حالة من حالة، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته وجنابته، وأما في حال التخلي فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولكن شُرع لأمته مِن الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الأعتناء بالذِّكر، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها، وكذلك شرِّع للأمة مِن الذِّكر عند الجماع أن يقول أحدهم: «**بِسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيْطانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطانَ ما رَزَقْتَنا**» [٤].

وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل، فلا ريب أنه لا يكره بالقلب، لأنه لا بد لقلبه من ذكر، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب إليه، فلو كلف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال كما قال القائل:

يــــراد مـــن القلـــب نــــسيانكم وتأبـــى الطـــباع علـــى الـــناقل

فأمَّا الذِّكر باللِّسان على هذه الحالة، فليس مما شرع لنا ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ ولا نقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وقال عبد الله بن أبي الهذيل[٥]: إنَّ الله تعالى ليحب أن يُذكر في السوق ويُحب أن يُذكر على كل حال إلا على الخلاء.

ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة، والنعمة عليه في هذه الحالة وهي من أجلّ الذِّكر، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها، واللائق بهذه الحال التقنع بثوب

(١) وهو كما قال.
(٢) القائل ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله - .
(٣) أخرجه مسلم (٣٧٣) وغيره.
(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٠)، ومسلم (٤٣٤)، وغيرهما.
(٥) تابعي.

الحياء من الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له لو بقي فيه لقتله، فالنعمة في تيسير خروجه كالنعمة في التغذي به.

وكذلك ذكره حال الجماع ذكر هذه النعمة التي منَّ بها عليه، وهي أجلّ نِعم الدنيا، فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها هاج من قلبه هائج الشكر، فالذِّكر رأس الشكر.

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**يا مُعَاذُ! وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، فَقالَ: أُوصِيكَ يا مُعاذُ! لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبادَتِكَ**»(١).

فجمع بين الذِّكر والشُّكر، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالذِّكر والشُّكر جماع السعادة والفلاح.

الخامسة والأربعون: أنَّ أكرم الخلق على الله تعالى مِن المتقين مَن لا يزال لسانه رطبًا بذكره، فإنه اتقاه في أمره ونهيه وجعل ذكره شعاره، فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار، وهذا هو الثواب والأجر، والذِّكر يوجب له القرب من الله عَزَّ وَجَلَّ والزلفى لديه، وهذه هي المنزلة.

هذا، واعلموا - عباد الله - أن عُمّال الآخرة على قسمين:

منهم من يعمل على الأجر والثواب.

ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى، ويسابق إلى القُرب منه.

وقد ذكر الله تعالى النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الحديد: ١٨]، فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب.

ثم قال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٩]، فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٥)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وغيرهما.

ثم قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] فقيل هذا عطف على الخبر من ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم.

ثم أخبر عنهم أن لهم أجرًا وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور: أنهم صديقون وشهداء فهذه هي المرتبة والمنزلة.

قيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾، ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلأوا منه، فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل، والأولون أهل البر والإحسان، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم.

ثم ذكر الشهداء وأنه تعالى يجري عليهم رزقهم ونورهم، لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله تعالى أثابهم الله تعالى عليها؛ أن جعلهم أحياء عنده يرزقون، فيجري عليهم رزقهم ونورهم، فهؤلاء السعداء.

ثم ذكر الاشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، **والمقصود**: أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجور والمراتب، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السَّحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]، أي: أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب منِّي، فالعمال عملوا على الأجور، والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله.

وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء». ا.هـ.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا قلوبًا خاشعة، وألسنًا ذاكره، إنه وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونواصل ذكر فوائد الذِّكر مع الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله - حيث يقول:

الفائدة السادسة والأربعون: إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى، وذَكَرَ حماد بن زيد عن المعلى بن زياد: أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذِبْهُ بالذِّكر(١). وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

السابعة والأربعون: أنَّ الذِّكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى.

فإن ذَكَرَته شفاها وعافها، فإذا غفلت عنه انتكست، كما قيل:

إذا مَرِضْنَا تداوينا بذِكْرِكُم فنترك الذّكر أحيانا فننتكس

الثامنة والأربعون: أنَ الذِّكر أصل موالاة الله عَزَّ وَجَلَّ ورأسُها، والغفلة أصل معاداته ورأسُها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه عَزَّ وَجَلَّ حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه.

قال الاوزاعي: قال حسان بن عطية: ما عادى عبدٌ ربه بشيء أشدّ عليه مِن أن يَكره ذِكره أو مِن أن يَذكره، فهذه المعاداة سببها الغفلة، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله، ويكره مَن يَذْكُره، فحينئذ يتخذه عدوًّا كما اتخذه الذَّاكِر وليًّا.

التاسعة والأربعون: أنه ما استجلبت نِعم الله عَزَّ وَجَلَّ واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله تعالى، فالذِّكر جلَّاب للنِّعم دافعٌ للنقم، قال سُبحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ**

---

(١) جيد: رواه البيهقي في «الشعب» (١/ ٧٠٣).

الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج: ٣٨]، وفي القراءة الأخرى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمَن كان أكمل إيمانًا وأكثر ذِكرًا، كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومَن نقص نقص، ذِكرا بِذِكر ونِسيانا بِنِسيان، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

والذِّكر رأس الشكر - كما تقدم - والشكر جلَّاب النِّعم وموجب للمزيد، قال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر مَن لا يغفل عَنْ ذِكرك.

الخمسون: أنَّ الذِّكر يُوجب صلاة الله عَزَّ وَجَلَّ وملائكته على الذَّاكِر، ومَن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته، إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله وبالله التوفيق» ا.هـ.

وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالَى - فإلى اللِّقاء.



الخطبة الثالثة والخمسون بعد المائة:

[٤] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية

من فوائد ذكر الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا قَبْلُ أن «حبيبة العدوية» - رحمها الله تَعَالى - كانت إذا صلَّت العَتَمة (العِشاء) قامت عَلَى السَّطح قائمة وساجدة، داعية، وذاكرة، حَتَّى السَّحر، ثم تدعو بدعوات تُحرِّك القلوب، وتستمطر الدَّمع.

وكان هذا حال كُلِّ سلفنا الصالح، يسابقون الزمان، ويُعمّرون الوقت بطاعة الله تَعَالى وذكره.

وإن دلّ ذَلِكَ عَلَى شيء، فهو يدلّ عَلَى عُمق إيمانهم، وصحة اعتقادهم، وشدّة حُبِّهم لربِّهم، والتي من ثمراتها: كثرة ذِكرِه سُبْحَانَهُ.

عباد الله...

وجرّنا الحديث عن ذِكر الله تَعَالَى إلى الحديث عن بضع فوائد الذِّكر.

واليوم - إن شاء الله - نواصل الحديث مع الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله - عن فوائد الذِّكر، حيث يقول:

الفائدة الحادية والخمسون: أنَّ مَن شاء أنْ يَسكن رياض الجنَّة في الدنيا، فليستوطن مجالس الذِّكر، فإنها رياض الجنة.

الثانية والخمسون: أنَّ مجالس الذِّكر مجالس ملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه.

كما أخرجا في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فُضُلاً**[(١)] **عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ**[(٢)]**، يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.**

قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ

---

(١) **فُضُلًا**: هم ملائكة ليسوا من الحفظة، زائدون عليهم وليس لهم وظيفة إلَّا تتبع حلق الذكر.

(٢) اللفظ عند البخاري: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق**»، وعند مسلم: «**إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضُلًا يتبعون مجالس الذكر**». و«كتاب الناس» عبارة لا وجود لها في الصحيحين، لكنها عند الطبراني، وابن أبي الدُّنْيَا.

أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[١].

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم فلهم نصيب من قوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، فهكذا المؤمن مبارك أين حَلَّ، والفاجر مشؤوم أين حَلَّ، فمجالس الذِّكر مجالس الملائكة ومجالس الغفلة مجالس الشياطين وكل مضاف إلى شكله وأشباهه امرئ يصير إلى ما يناسبه.

الثالثة والخمسون: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بالذَّاكِرين ملائكته، كما روى مسلم في «صحيحه» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ. قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟». قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: «آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟». قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ»[٢].

فهذه المباهاة مِن الرَّب تبارك وتعالى دليلٌ على شَرف الذِّكر عنده ومحبَّته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال.

الرابعة والخمسون: أنَّ مُدمِن الذِّكر يدخل الجنة وهو يضحك، لما ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه عن أبي الدرداء قال: «الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله عَزَّ

(١) رواه البخاري (١١/ ١١٧، ١٧٩)، ومسلم (٢٦٨٩)، وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧١)، والترمذي (٣٣٧٦)، وغيرهما.

وَجَلَّ يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك».

الخامسة والخمسون: أنَّ جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى قال سُبحَانَهُ وتَعَالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤]، قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل أي: لأذكرك بها، وقيل: مضاف إلى المذكور أي: لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل، وقيل: هي اللام الوقتية، أي: أقم الصلاة عند ذكري، كقوله: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله تَعَالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهذا المعنى المراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذِّكر مصدر، إلا أن يقدر زمان محذوف، أي: عند وقت ذكري؛ وهذا محتمل.

والأظهر أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، ويلزم مِن هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه فذكر الله تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالـمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فقيل: المعنى: أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو ذاكرًا مَن ذكره، ولذكره الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال: وهو قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فذِكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إيَّاه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾.

ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أعمالِكُمْ وَأَزْكاها عنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأرْفَعِها فِي دَرَجَاتِكُمُ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْر مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ؟» قالوا: بلى، قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعالى»[1].

---

(١) صحيح.

وكان شيخ الإسلام أبو العباس - قدس الله روحه - يقول: الصحيح أنَّ معنى الآية: أنَّ الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سُئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

السادسة والخمسون: أنَّ أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ، فأفضل الصوَّام أكثرهم ذكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وأفضل الحاج أكثرهم ذِكرا لله عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا سائر الأحوال.

السابعة والخمسون: إن إدامته تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها سواء كانت بدنية أو مالية كحج التطوع. وقد جاء ذلك صريحا في حديث أبي هريرة قَالَ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ**». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ مَرَّةً...**» الحديث. متفق عليه.

فجعل الذِّكر عِوضًا لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذِّكر، فلما سمع أهل الدثور بذلك عملوا به فازدادوا ـ إلى صدقاتهم وعباداتهم بمالهم ـ التعبد بهذا الذِّكر، فحازوا الفضيلتين فنافسهم الفقراء وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم في ذلك وانفردوا لهم بها لا قدرة لهم عليه فقال ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**» (١).

وفي حديث عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله كثرت علي خلال

---

(١) بقية الرواية السابقة عند مسلم.

الإسلام وشرائعه فأخبرني بأمر جامع يكفيني، قال: «**عليك بذكر الله تعالى**» [(١)]، قال: ويكفيني يا رسول الله؟ قال: «**نعم ويفضل عنك**» [(٢)].

فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه وهو ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ. ويوضحه:

الثامنة والخمسون: أنَّ ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ مِن أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل والتجربة شاهدة بذلك. يوضحه:

التاسعة والخمسون: أنَّ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ يُسَهِّل الصَّعب، ويُيَسِّر العسير، ويخفف المشاق، فما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كُربة إلا انفرجت، فَذِكر الله تعالى هَوَ الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم، والهم يوضحه.

الستون: أنَّ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ يُذهِب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حسّ قد جرب هذا وهذا، والله المستعان.

الحادية والستون: أنَّ الذِّكر يُعطي الذَّاكِر قُوّة، حتى إنه ليفعل مع الذِّكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت مِن قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه، وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم مِن التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه وأكثر، وقد شاهد العسكر مِن قوته في الحرب أمرًا عَظيمًا، وقد علَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٧٢) بمعناه، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وغيرهما.

(٢) انظر السابق.

وعليًا رضي الله عنهما: أنْ يُسبِحَا كل ليلة إذا أخذوا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويُحمدا ثلاثًا وثلاثين، ويُكبرا أربعًا وثلاثين، لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه مِن الطحن والسعي والخدمة فَعلَّمهَا ذَلِكَ، وقال: «**إنه خير لكما من خادم**»(١)، فقيل: إن مَن دَاومَ على ذَلِكَ وجد قُوّة في يومه مُغنية عن خادم.

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقي عدوًّا أو ناهض حصنًا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنه ناهض يومًا حصنًا للروم فانهزم فقالها المسلمون وكَبَّرُوا، فَانْهَدَمَ الحِصْن.

الثانية والستون: أنَّ عُمَّال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذَّاكِرون هم أسبقهم في ذَلِكَ المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع مِن رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق.

قال الوليد بن مسلم: قال محمد بن عجلان: سمعت عمرو مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملا أفضل ثوابًا مِن الذِّكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا مِن الذِّكر.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**سيروا سبق المفردون**»، قالوا: وما المفردون؟ قال: «**الذين أهتروا(٢) في ذكر الله تعالى يضع عنهم أوزارهم**»(٣).

أهتروا بالشيء وفيه: أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم.

وفي بعض ألفاظ الحديث: «**المستهترون بذكر الله**»(٤)، ومعناه: الذين أُولعوا به. يقال: استهتر فلان بكذا؛ إذا ولع به.

وفيه تفسير آخر أن «أهتروا في ذكر الله» أي: كبَّروا وهلك أقرانهم وهم في ذكر الله تعالى، يقال: أهتر الرجل فهو مهتر؛ إذا سقط في كلامه مِن الكبر، والهتر: السقط من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩١٧)، ومسلم (٢٧٧)، وغيرهما.
(٢) كلمة «أهتروا» في «مسند أحمد».
(٣) رواه أحمد (٣٢٣)، ومسلم (٢٦٧٦)، وغيرهما.
(٤) رواها الترمذي، وقال: حسن غريب.

الكلام، كأنه بقي في ذكر الله تعالى حتى خرف وأنكر عقله، والهتر: الباطل أيضًا، ورجل مستهتر؛ إذا كان كثير الأباطيل.

وفي حديث ابن عمر: «أعوذ بالله أن أكون من المستهترين»، وحقيقة اللفظ أن الاستهتار الإكثار من الشيء والولوع به، حقًّا كان أو باطلا، وغلب استعماله على المبطل حتى إذا قيل فلان مستهتر لا يفهم منه إلا الباطل، وإنما إذا قيد بشيء تقيد به نحو: هو مستهتر، وقد أهتر في ذكر الله تعالى، أي: أولع به وأغري به، ويقال: استهتر فيه وبه.

الثالثة والستون: أنَّ الذِّكر سبب لتصديق الرَّب عَزَّ وَجَلَّ عبده، فإنه أخبر عن الله تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدقه ربَّه، ومن صدَّقه الله تعالى لم يحشر مع الكاذبين، ورجي له أن يحشر مع الصادقين.

وروى أَبو إِسْحَاقَ عَنِ الأَغَرِّ أَبِى مُسْلِمٍ أَنَّهُ شَهِدَ عَلَى أَبِى هُرَيْرَةَ وَأَبِى سَعِيدٍ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَالَ: العَبْدُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ. وَإِذَا قَالَ العَبْدُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِى. وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ شَرِيكَ لِى. وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا لِىَ الْمُلْكُ وَلِىَ الحَمْدُ. وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِى**».

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَالَ الأَغَرُّ[1] شَيْئًا لَمْ أَفْهَمْهُ. فَقُلْتُ لأَبِى جَعْفَرٍ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «**مَنْ رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ**»[2].

الرابعة والستون: أنَّ دور الجنة تُبنَى بالذِّكر، فإذا أمسك الذَّاكِر عن الذِّكر أمسكت الملائكة عن البناء. ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه عن حكيم بن محمد الأخنسي قال: بلغني أن دور الجنة تُبنَى بالذِّكر فإذا أمسك عن الذِّكر أمسكوا عن البناء، فيقال لهم، فيقولون: حتى تأتينا نفقة.

---

(١) أحد رواه الحديث.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٤٢٦)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، وغيرهما.

وكما أن بناءها بالذِّكر فغراس بساتينها بالذِّكر كما تقدم في حديث النبي ﷺ عن إبراهيم الخليل عليه السلام: «**أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ**»[1].

فالذِّكر غراسها وبناؤها.

الخامسة والستون: أنَّ كثرة ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أمان مِن النفاق، فإنَّ المنافقين قليلو الذِّكر لله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في المنافقين: ﴿ **وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال كعب: مَنْ أكثر ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ برئ مِن النفاق ولهذا - والله أعلم - خَتَمَ الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون: ٩]، فإنَّ في ذَلِكَ تحذيرًا مِن فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فوقعوا في النفاق.

وسُئل بعض الصحابة رضي الله عنهم[2] عن الخوارج: منافقون هُم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، فهذا من علامة النِّفاق، قلّة ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وكثرة ذكره أمان مِن النفاق، والله عَزَّ وَجَلَّ أكرم مِن أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذَلِكَ لقلوب غفلت عَنْ ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ» ا.هـ.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

❊❊❊

(١) صحيح.
(٢) هو عليٌّ رَضِي الله عَنْهُ.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويُواصل الإمامُ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- حديثه عن فوائد الذِّكر فيقول:

التاسعة والستون: أنَّ للذِّكر مِن بين الأعمال لذّة لا يُشبهها شيء، فلو لم يكن للعبد مِن ثوابه إلَّا اللَّذّة الحاصلة للذَّاكر والنَّعيمِ الَّذِي يحصل لقلبه لكفى به، ولهذا سُمِّيت مجالس الذِّكر «رياض الجنة».

قال مالك بن دينار: وما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فليس شيء من الأعمال أخف مؤنة منه، ولا أعظم لذة ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب.

أنه يكسو الوجه نضرة في الدنيا ونورًا في الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهًا في الدنيا وأنورهم في الآخرة.

السابعة والستون: أنَّ في دوام الذِّكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع، تكثيرًا لشهود العبد يوم القيامة، فإن البقعة والدار والجبل والأرض تشهد للذاكر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَـهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَـهَا** ﴾ [الزلزلة: ١- ٥].

فروى الترمذي في «جامعه» مِن حديث سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟**».

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «**فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ عَمِلَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا**».

قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[1].

---

(١) **حسن بشواهده:** أخرجه الترمذي (٣٣٥٠)، وغيره.

والذَّاكِرِ لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر البقاع مكثر شهوده، ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة، يوم قيام الأشهاد وأداء الشهادات، فيفرح ويغتبط بشهادتهم» ا.هـ.

وسيأتي المزيد - إن شاء الله - فإلى اللِّقاء في الخطبة القادمة.

اللَّهُمَّ أطلق ألسنتنا بذكرك والدعوة إليك

آمين... آمين... آمين

الخطبة الرابعة والخمسون بعد المائة:

[٥] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية

من فوائد ذكر الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شَرِيكٍ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ: فما زال الحديث موصولًا عن بعض فوائد ذكر الله تَعَالَى.

عباد الله...

ويواصل الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله- الكلام عن فوائد الذِّكر فيقول:

الفائدة الثامنة والستون: أنَّ فِي الاشتغال بالذِّكر اشتغالًا عن الكلام الباطل من الغيبة واللغو ومدح الناس وذمهم وغير ذَلِكَ، فإن الإنسان لا يسكت البتة: فإمَّا لسان ذاكر وإما لسان لاغٍ، ولا بد مِن أحدهما، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك

بالباطل، وهو القلب إن لم تُسكِنه محبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ سكنَهُ محبَّة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان إن لم تشغله بالذِّكر شغلك باللغو وما هو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين.

التاسعة والستون: وهي التي بدأنا بذكرها وأشرنا إليها فنذكرها ههنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها وحاجة كل أحد بل ضرورته إليها وهي: أنَّ الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظًا وأحاطوا به وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي الترمذي عن أنسٍ بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَك بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللَّهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**». رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن[(١)].

وقد تقدم قوله: «**مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمِ مائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مائة حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مائةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ يَوْمَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسيَ**»[(٢)].

وفي «صحيح البخاري» عن مُحَمَّد بن سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَام، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَذَكَرَ الحَدِيثَ، فَقَالَ له: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فأصبح فأخبر النبي ﷺ بقوله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ**»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٢)، وغيرهما.

(٢) صحيح: وقَدْ تقدم.

(٣) صحيح: رواه البخاريّ معلّقًا، ووصله النسائي والإسماعيلي، وأبو نُعيم. انظر «فتح الباري» (٤/ ٣٩٨).

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا آوى الإنسان إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشر. فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعني النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد لله الَّذِي أحيا نفسي بعد موتها ولم يُمتها في منامها، الحمد لله الَّذِي يمسك الَّتِي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد لله الَّذِي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، الحمد لله الَّذِي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه»** (١).

وفي الصحيحين من حديث سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِى الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِى، فَيُولَدُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فَلَنْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَداً»**.

وقد ثبت في الصحيح أن الشيطان يهرب من الأذان، فَعَنْ سُهَيْلِ بن أبي صالح قَالَ: أَرْسَلَنِى أَبِى إِلَى بَنِى حَارِثَةَ وَمَعِى غُلاَمٌ لَنَا - أَوْ صَاحِبٌ لَنَا - فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ، وَأَشْرَفَ الَّذِى مَعِى عَلَى الحَائِطِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لأَبِي فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ، وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادِ بِالصَّلاَةِ، فَإِنِّى سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِىَ بِالصَّلاَةِ وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ (٢)»** (٣).

وفي رواية: **«إِذَا سَمِعَ الشَّيْطَانُ المُنَادِىَ يُنَادِى بِالصَّلاَةِ وَلَّى وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ الصَوْتَ فَإِذَا فَرَغَ رَجَعَ فَوَسْوَسَ فَإِذَا أَخَذَ فِى الإِقَامَةِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ»**.

---

(١) **صحيح**: قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٢٠): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح إلَّا إبراهيم الحجاج الشامي وهو ثقة.

(٢) **حصاص**: ضراط، وقيل: شدة العَدو، يعني الجري.

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦٩، ٧٠)، ومسلم (٣٨٩)، وغيرهما.

الفائدة السبعون: الذِّكر نوعان:

أحدهما ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته والثناء عليه بها، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى. وهذا أيضًا نوعان:

أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذَّاكِر، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث نحو: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)، ونحو ذَلِكَ.

فأفضل هذا النوع: أجمعه للثناء وأعمه نحو: (سبحان الله عدد خلقه) فهذا أفضل من مجرد (سبحان الله) وقولك: (الحمد لله عدد ما خلق في السماء، وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق) أفضل من مجرد قولك: (الحمد لله) وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**» رواه مسلم.

الحادية والسبعون: الخبر عن الرَّبِ تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عَزَّ وَجَلَّ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته[١]، ونحو ذَلِكَ.

وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، ومجد.

فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله سُبحَانَهُ وتَعَالى، مع محبَّته والرضاء به فلا يكون المحب الساكت حامدًا ولا المثني بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئًا بعد الشيء كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة

(١) الحديث في الصحيحين.

والكبرياء والملك كان مجدًا، وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة: «فَإِذَا قَالَ العَبْدُ ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي...»(١).

الفائدة الثانية والسبعون: مِن الذِّكر ذِكر أمره ونهيه وأحكامه وهو أيضًا نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا، وأحب كذا وسخط كذا ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذِّكر وأجله وأعظمه.

فائدة: فهذا الذِّكر مِن الفقه الأكبر وما دونه أفضل الذِّكر إذا صحت فيه النية.

ومِن ذكره سبحانه وتعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضا مِن أجلّ أنواع الذِّكر.

فهذه خَمسة أنواع وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذِّكر، وبالقلب وحده تارة وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة وهي الدرجة الثالثة، فأفضل الذِّكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا منها فثمرته ضعيفة.

الثالثة والسبعون: الذِّكر أفضل من الدعاء، الذِّكر ثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟.

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله والثناء عليه بين يدي

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، وغيره.

حاجته، ثم يسأل حاجته كما في حديث فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**». رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في «صحيحه» (١).

وهكذا دعاء ذي النون عليه السلام قال فيه النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته: ﴿لَّا إِلَـهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**» [الأنبياء: ٨٧].

وفي الترمذي: «**دَعْوَةُ ذِى النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِى بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِى شَىْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ**» (٢).

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام، ومنه قوله ﷺ في دعاء الكرب: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**» (٣).

ومنه حديث بريدة الأسلمي الذي رواه أهل السنن وابن حبان في «صحيحه»: أنَّ النَّبِيُّ ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِأَنِّى أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**» (٤).

وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّى ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ

---

(١) **صحيح**: وقَدْ تقدم.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١/ ١٧١)، والترمذي (٣٥٠٠)، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ١٢٣) في «الدعوات»، ومسلم (٢٧٣٠) وغيرهما.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (٣/ ٥٢) في «السهو» وغيرهما.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ العَظِيمِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»(١).

فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذِّكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

عباد الله...

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذِّكر والثناء؛ أنه يجعل الدُّعاء مستجابًا، فالدعاء الذي تقدمه الذِّكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسّل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه وأوصاف المسئول مقتضى من الله، فاجتمع المقتضي من السائل والمقتضى من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعًا وأتم معرفة وعبودية.

وأنت ترى في المشاهد ـ ولله المثل الأعلى ـ أنَّ الرجل إذا توسّل إلى ما يريد معروفه بكرمه وجوده وبره، وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته، كان أعطف لقلب المسؤول وأقرب لقضاء حاجته، فإذا قال له: أنت جودك قد سارت به الركبان، وفضلك كالشمس لا تنكر، ونحو ذَلِكَ، وقد بلغت بي الحاجة والضرورة مبلغًا لا صبر معه، ونحو ذَلِكَ، كان أبلغ في قضاء حاجته مِن أن يقول ابتداء: (أعطني كذا وكذا) فإذا عرفت هذا فتأمل قول موسى ﷺ في دعائه: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]، وقول ذي النون في دعائه: ﴿ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقول أبينا آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وفي الصحيحين أن بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْنِى دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِى صَلاَتِى. قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ». فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه عَزَّ وَجَلَّ بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية». ا.هـ.

فما أحوجنا - عباد الله - إلى أدب الدُّعَاء وآداب العبودية، فما ضَلَّ مَن ضَلّ، ومَا شَقى مَن شَقِي، وما خُذِل مَن خُذِل إلَّا بسبب سوء الأدب مَعَ الله تَعَالى.

نسأل الله تَعَالى بَدَنًا هَيِّنًا لَيِّنًا بطاعته، ولسانًا رَطِبًا بِذِكره، ولله دَرُّ الحسن البصري حين قَالَ: «إنَّ الله تَعَالى يَذْكُر مَنْ ذَكَرَه، ويَزَيدُ مَنْ شَكَره، ويُعذِّب مَنْ كَفَره».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ الله - حديثه عن بعض فوائد الذِّكر فيقول:

الفائدة الرابعة والسبعون: قراءة القرآن أفضل من الذِّكر والذِّكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر لكل منهما مجرَّدًا وقد يعرض للمفضول ما يجعله أوْلى مِن الفاضل بل يعينه، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة، وكذلك التسميع[1] والتحميد في محلهما أفضل من القراءة وكذلك التشهد وكذلك: «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذِّكر عقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد ـ أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة وكذلك إجابة المؤذن والقول كما يقول أفضل من القراءة.

---

(١) التسميع: سَمِع الله لِمَن حَمِده.

وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه، لكن لكل مقام مقال متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره، اختلت الحكمة وفقدت المصلحة المطلوبة منه.

وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللَّهُمَّ إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذِّكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله: أن يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبة من استغفار أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحفظه، وكذلك أيضا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله تعالى وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالًا، فهذا يكون اشتغاله بالدعاء، والحالة هذه أنفع وإن كان كل من القراءة والذِّكر أفضل وأعظم أجرًا.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حق حقه ويوضع كل شيء موضعه: فللعين موضع، وللرِّجل َموضع، وللماء موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي والله تعالى الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان، أنفع للثوب في وقت، والتجمير وماء الورد وكيه، أنفع له في وقت، وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - يومًا: سُئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لي - رحمه الله تعالى -: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثُلثُ القرآن، ومع هذا فلا تَقُوم مقام آيات المواريث والطلاق والخُلع والعِدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذِّكر والدعاء وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، كانت أفضل من كل من القراءة والذِّكر والدعاء بمفرده،

جمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء، فهذا أصل نافع جدًّا يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح إبليس الفضل الذي بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها إن كان ذلك وقته، فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا، وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها وفقه في إعطاء كل عمل منها حقه وتنزله في مرتبته وتفويته لما هو أهم منه، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل لإمكان تداركه والعود إليه، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه فالاشتغال به أَوْلى ـ وهذا كترك القراءة لرد السلام وتشميت العاطس ـ وإن كان القرآن أفضل لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت، والله تعالى الموفق» ا.هـ.

عباد الله...

هذه بعض فضائل وفوائد ذِكر الله، انتقيناها من كلام العلَّامة ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- مِن كتابه الماتع «**الوابل الصِّيب**»، فأطلقوا ألسنتكم بِذِكر ربّكم، فقد بان الفضل العظيم، والأجر الكبير، والثواب الجزيل.

وهذا - والله - من فضل الله علينا، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون.

فاحذروا - عباد الله - من الغفلة، فإن الشيطان قرين أهل الغفلة، قال تَعَالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

اللَّهُمَّ عَطِّر ألسنتنا بِذِكرِك، وأطلق ألسنتنا بالدَّعوة إلى دينك

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الفهرس

الخطبة الثامنة بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ شريكٍ الأنصارية ٣
الخطبة التاسعة بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: أُمّ شَرِيك الأنصاريّة ١٣
الخطبة العاشرة بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سليم بنت مِلحَان ٢٠
الخطبة الحادية عشر بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: أُم سُليم ٢٨
الخطبة الثانية عشر بعد المائة: [جـ] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سُليم بنتِ مِلحان ٣٩
الخطبة الثالثة عشر بعد المائة: [د] لقطات وعظات من حياة: أُمّ سُلَيم بنت مِلحان ٤٦
الخطبة الرابعة عشر بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: أُمِّ الدرداء ٥٧
الخطبة الخامسة عشر بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: أُم الدرداء ٦٥
الخطبة السادسة عشر بعد المائة: [جـ] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء ٧٥
الخطبة السابعة عشر بعد المائة: [د] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء ٨٢
الخطبة الثامنة عشر بعد المائة: [هـ] لقطات وعظات من حياة أم الدرداء ٩٠
الخطبة التاسعة عشر بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة أم حَرّام بنت مِلحَان ٩٦
الخطبة العشرون بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة أُم حرام بنت ملحان ١٠٧
الخطبة الحادية والعشرون بعد المائة: [١] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشْر الحافي... ١٢٠
الخطبة الثانية والعشرون بعد المائة: [٢] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي ١٢٧
الخطبة الثالثة والعشرون بعد المائة: [٣] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي ١٣٤
الخطبة الرابعة والعشرون بعد المائة: [٤] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي ...١٤٢
الخطبة الخامسة والعشرون بعد المائة: [٥] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي.... ١٥٠
الخطبة السادسة والعشرون بعد المائة: [٦] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي...١٥٨

الخطبة السابعة والعشرون بعد المائة: [٧] لقطات وعظات من حياة: أخوات بشر الحافي .. ١٧٠
الخطبة الثامنة والعشرون بعد المائة: [٨] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي.... ١٨١
الخطبة التاسعة والعشرون بعد المائة: [٩] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي .. ١٩٦
الخطبة الثلاثون بعد المائة: [١٠] لقطات وعظات من حياة: أخوات بِشر الحافي ٢٠٧
الخطبة الحادية والثلاثون بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدويّة ٢١٧
الخطبة الثانية والثلاثون بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية ٢٢٤
الخطبة الثالثة والثلاثون بعد المائة: [جـ] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية....... ٢٣٣
الخطبة الرابعة والثلاثون بعد المائة: [د] لقطات وعظات من حياة: معاذة العدوية... ٢٤٠
الخطبة الخامسة والثلاثون بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: الخَنساء........ ٢٤٤
الخطبة السادسة والثلاثون بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: الخنساء ٢٤٩
الخطبة السابعة والثلاثون بعد المائة: [١] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين .. ٢٥٦
الخطبة الثامنة والثلاثون بعد المائة: [٢] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين ٢٦٣
الخطبة التاسعة والثلاثون بعد المائة: [٣] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين .. ٢٦٩
الخطبة الأربعون بعد المائة: [٤] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين ٢٧٥
الخطبة الحادية والأربعون بعد المائة: [٥] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين .. ٢٨٢
الخطبة الثانية والأربعون بعد المائة: [٦] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين.... ٢٩٥
الخطبة الثالثة و الأربعون بعد المائة: [٧] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين... ٣٠٨
الخطبة الرابعة والأربعون بعد المائة: [٨] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين .. ٣٢٣
الخطبة الخامسة والأربعون بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين.. ٣٤٠
الخطبة السادسة والأربعون بعد المائة: [ج] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين ٣٤٧
الخطبة السابعة والأربعون بعد المائة: [د] لقطات وعظات من حياة: حفصة بنت سيرين .. ٣٥٥
الخطبة الثامنة والأربعون بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: ميمونة بنت شاقولة... ٣٦٢

الخطبة التاسعة والأربعون بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: ميمونة بنت شاقولة .. ٣٧١
الخطبة الخمسون بعد المائة: [١] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية ٣٧٩
الخطبة الحادية والخمسون بعد المائة: [٢] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية...... ٣٨٥
الخطبة الثانية والخمسون بعد المائة: [٣] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدويّة ٣٩٦
الخطبة الثالثة والخمسون بعد المائة: [٤] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية ٤٠٧
الخطبة الرابعة والخمسون بعد المائة: [٥] لقطات وعظات من حياة: حبيبة العدوية......... ٤١٨
الفهرس ٤٢٩

